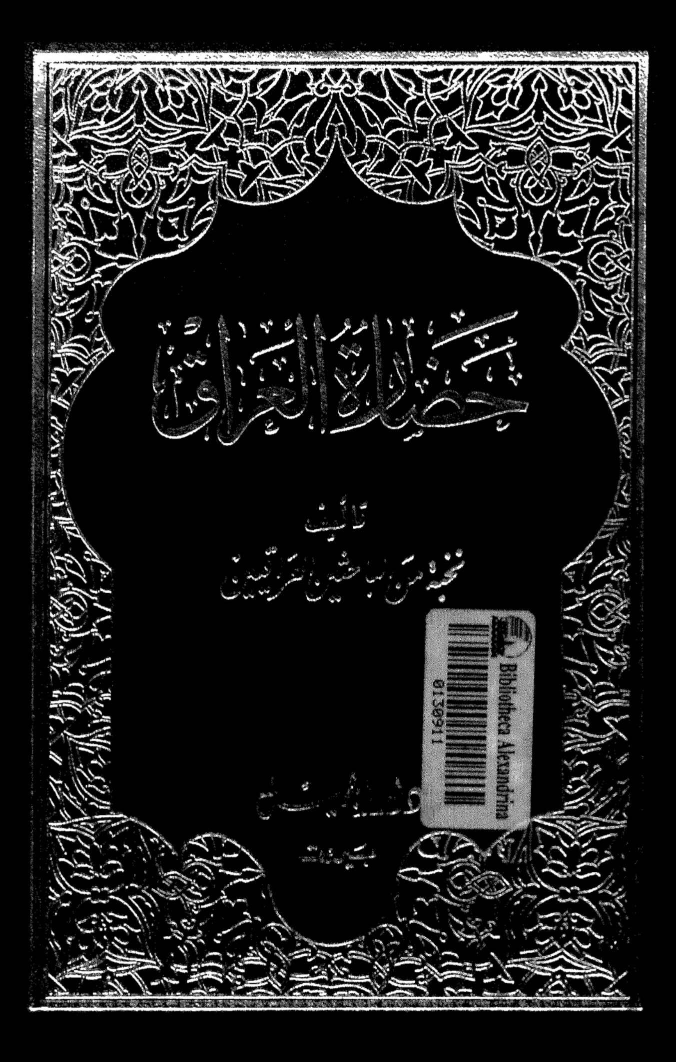

حضارة العراق
تأليف
نخبة من الباحثين العراقيين
بيروت


حضارة العراق

حضارة العراق

تأليف

نخبة من الباحثين العراقيين

الجزء الحادي عشر

بغداد ١٩٨٥

العصور الحديثة

(٢)

١٢٥٨ - ١٩١٤

الفصل الأول

العلوم الدينية

المبحث الأول

علوم القرآن الكريم

د . احمد نصيف الجنابي

كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية

علوم القرآن الكريم في عهد المغـــول
من سنة ٦٥٦ ـ ٧٣٨ هـ

كان للانعطاف الخطير الذي أصاب الحياة العلمية بعد الغزو المغولي نتائجه على حركة التأليف في علوم القرآن الكريم. فلقد اختفت مباحث في علوم القرآن ـ كانت قبل الغزو المغولي ـ معالمها قائمة ، وحركـــة التأليف فيها موّارة بالنشاط ، مثل « علم متشابه القرآن » ، و « علم نقط المصاحف » و « علم العدد » ... مع ما أصاب بعض العلوم من فتور ...

غير أنّ العِلْمَيْنِ اللذين بقيا مستمرين نشطين طَوال العهد المغولي وما بعده ، هما علم القراءات وعلم التفسير . واتصال كل علم منهما بالآخر وثيق كاتصال الاصبع باليد ، فقلما تجد عالما بالتفسير لا يتقن القراءات لان من الشرائط التي يجب توفرها في عالم التفسير أن يكـــون عالما بالقراءات ،

ولذلك نجد جُلّ علماء التفسير في هذا العهد المغولـي وقبلـه وبعـده ، مقرئين ، فالكواشي الموصليّ (ت ٦٨٠ هـ) مقرىء ومفسر ، وابـو حيان الاندلسي (ت ٧٤٥ هـ) مقرىء ومفسر ... وهكذا دواليك .

ومما ساعد على تنشيط هذين العلمين ــ ولا سيما علم القراءات ــ أن سوقهما في أقطار الاسلام والعروبة كانـت رائجـة . وكان اتصال علمـاء العراق باقطار العروبة والاسلام في العهد المغولي قويـة . فعِلْمُ القراءات وصل الى اوجه ــ في الشام ومصـر وفلسطين ــ في القرنين السابع والثامن ، بل ومنذ نهاية السادس !! فظهر أمثال أبي الحسن السخاوي (ت ٦٤٣ هـ) ، بدمشق . وقد وصفه ابن الجزري بقوله : « كان اماما علامة محققا مقرئـا مجوداً بصيرا بالقراءات وعللها اماما في النحو واللغة والتفسير والادب . أتقن هذه العلوم اتقانا بليغا ، وليس في عصره من يلحقه فيها .... » . وفي مصر ظهر أمثال شمس الدين بن الصائغ : محمد بن عبدالرحمن بن علي (٧٠٤ ــ ٧٧٦ هـ) ، أحد اساتذة ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) وقد وصـف اسـتاذه « بالامام العلامة » .

وفي بلد ابراهيم الخليل من فلسطين ظهر « الجَعْبَرِيّ » : ابراهيم ابن عمر بن ابراهيم بن خليل (٦٤٠ ــ ٧٣٢ هـ) وقد وصـفه ابن الجزري بانه « استاذ علامة محقق حاذق ثقة كبير » . وهو ممن زار العراق واخذ عن المقرىء : المنتجب : حسين بن حسن التكريتي (المتوفى ٦٨٨ هـ) ، القراءات العشـر .

وليس هذا النشاط مقصورا على أقطار بلاد العروبـة والاسلام دون العراق .... فان المتتبع لحركة القراءات والتفسير ، بعد سقوط بغـداد يجد بروز دور مدينتي الموصل وواسط بشكل يلفت النظر ، فوق ما بقي في بغداد نفسها من علماء بعد الارهاب المغولي الدموي ...

ان جُلّ علماء القراءات والتفسير في العهد المغولي كانوا من الموصل وواسط ... كما سنرى في ثنايا هذا المبحث . ولذلك فان قول ابن خلدون في مقدمته : (أما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه ، وان كانت الامصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت : مثل بغداد والبصرة والكوفة ، الا أن الله تعالى قد ادال منها ، الى ماوراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب ، فلم تزل موفورة وعمرانها متصلا ، وسند العلم بها قائما) ... قول يحتاج الى تعديل لانه ينكر دور الموصل وواسط في الحركة العلمية واتصال السند فيها .

(١)

وأول العلماء العراقيين الذين أسهموا في علوم القرآن في العهد المغوليّ ، هو أبو العباس الخَرْفيّ (بضم الخاء المعجمة بواحدة من فوق ، وراء ساكنة ، ثم فاء . قرية من قرى نصيبين) .

وهو أحمد بن المبارك بن نوفل المعروف بتقيالدين وقد وصفه من ترجم له بأنه « كان اماما عالما فقيها مقرئا نحويا » .

والعلم الذي برّز فيه هو علم القراءات . وقد أقرأ بالموصل وسنجار (وتوفى سنة ٦٦٤ هـ) .

(٢)

وثانيهما المقرىء البغدادي : عبدالصمد بن أحمد بن عبدالقادر بن أبي الجيش ويكنى بابي أحمد .

والفن الذي اتقنه هو فنّ الاقراء . ولذلك تحلقت جموع الطلبة حول مجلسه وكان في مسجد (قَمرْية) الذي أمر ببنائه الخليفة العباسي

« الناصر » ، وهو الآن قرب ثانوية الكرخ للبنين ، قائم على الجانب الغربيّ لدجلـة الخالـد .

والعلم الذي أتقنه هو علم القراءات . وقد روى اكثر من ثلاثين كتابا في القراءات.وصفه ابن رافع السلامي بقوله : (عُني بالقراءات عناية تامة، وانتهت اليه مشيخة بغداد في الاقراء ، فصار من مشايخ القراء المعروفين . وكانت له حلقة كبيرة ببغداد ، وتخرج به جماعة في القـرآن ، وكـان اماما بمسـجد القمريـة) .

ووصفه المقرىء العلامة ابن الجزري في طبقات القراء بقولـه : (شيخ القراء ببغداد . امام عارف استاذ محقق ، زاهد ثقة ورع) .

من سمات العلم التحقيق والمعرفة والاحاطة بالمادة العلمية التي يمارسها الاستاذ ... وقد نالها ابن ابي الجيش .

ومن سمات علماء القرآن الزهد والورع حتى يخلص العلم من الشوائب والافات التي تفسده ... وقد خلص العلم منهما على يد هذا العالم الجليل ومن سمات العلمـاء الثقة...فاذا لم يثق الناس بانسان يحمل العلم انصرفوا عن علمه ، واذا وثقوا بعلمه أخذوا عنه فصار مورد الظمآن ... وهذا ما كان لابي أحمد البغدادي الثقة ولا غرابة بعد ذلـك أن يوصـف « بالامـام » و « بشيخ القراء » و « بالاستاذ » .

(٢)

الكواشي احمد بن يوسف بن حسن بن رافع بـن حسين الشيباني . الكواشي بفتح الكاف والواو ، نسبة الى قلعة من أعمال الموصل .

ولد الكواشي بكواشة سنة احدى وتسـعين وخمسـمائة واشـتغل بالقراءات والتفسير وبرع فيهـما .

قرأ على والده . وقدم دمشق فقرأ على السخاوي أبـي الحسن عليّ

ابن محمد بن عبدالصمد الهمداني ، امام القراءات بدمشق (٥٥٩ — ٦٤٣ هـ) .

ويعد الكواشي أشهر المفسرين في العراق في النصف الاول من القرن السابع الهجري ، وهو من حيث كونه مفسرا أشهر منه مقرئا وان كان من القراء الكبار اذ ترجم له الذهبي في كتابه « معرفة القراء الكبار » وابن الجزري في كتابه « غاية النهاية » .

ألف في التفسير كتابه المعروف « تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر » ، ولخصه في مجلد وسماه « التلخيص » . ولهذا التفسير أهمية كبيرة في تاريخ التفسير وعلمه . وقد قرأه عليه من العلماء الكبار : الشيخ تقي الدين أبو بكر المقصاتي فقال : « قرأت على الشيخ موفق الدين الكواشي تفسيره ، فلما بلغت الى — والفجر — منعني من اتمام الكتاب ، وقال : أنا أجيز لك » . واهم سمات هذا التفسير صفتان :

الاولى : أنه اهتم باعراب الآيات الكريمة . والاخرى : انه اهتم بالوقف والابتداء . وتأثر الجلال السيوطي والجلال المحلي بتفسير الكواشي ولاسيما في الناحية الاعرابية . وهذا ما عبر عنه السيوطي بقوله : (وعلى تفسير الكواشي اعتمد الشيخ جلال الدين المحلي في تفسيره واعتمدت عليه أنا في تكملته ، مع الوجيز وتفسير البيضاوي وتفسير ابن كثير) .

وتفسيرهما معروف « بتفسير الجلالين » ، وهو مطبوع طبعات عديدة ، مشهورة شهرة واسعة .

وللكواشي كتابان في القراءات :

الاول سماه : « المواقف في القراءات » ، هكذا ذكره صاحب كشف الظنون (٢/١٨٩٤) . ولا أدري مايقصد بالمواقف ، فان هذا العنوان غريب في ميدان القراءات . والكتاب يعد مما فقد من تراثنا الاصيل .

والآخر : سماه : « المطالع في المبادىء والمقاطع » وهــو في موضــوع « الوقف والابتداء في القرآن الكريم » . ويؤخذ من كتاب ايضاح المكنون أن الكتاب مختصر كتاب « الوقوف » ، وارجح أن الاخير هو كتاب « وقوف القرآن » للسجاوندي :أبي جعفر محمد بن طيفور (المتوفى سنة ٥٦٠ هـ) .

وهو من الكتب المهمة في الوقف والابتداء ، وتوجد منه نســخ عديدة في العراق وتركية ، وقد اطلعت على بعضها .

(٤)

والمفسر الجليل الذي اسهم في اغناء علم التفسير ببغداد ونشط حركــة التفسير في هذا العهد « جلال‌الدين العكبريّ » : عبدالجبار بن عبدالخالق ابن محمد بن أبي نصر العكبري الحنبلي البغدادي . ولد ببغداد سنة عشر وستمائة . وتوفى بها سنة احدى وثمانين وستمائة . أسهم في علوم القرآن بكتابه الكبير : « مشكاة البيان في تفسير القرآن » . ويقع فيثماني مجلدات، كما وصفه الداودي في طبقات المفسرين .

ولا ريب في أن المجلد في مصطلح ذلك الزمان يعنى الكتاب الكبير او الجزء الكبير او القسم .

وله في علوم القرآن أيضا كتاب :« رياض الجنان في فواتح القرآن » .

وهذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي شغلت أذهان علماء القرآن وعلماء التفسير ، فمنهم من توقف في بيان المراد منها أخذا بآيــة آل عمران السابعة : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيــاتٌ محكماتٌ هُنّ أُمّ الكتاب وأُخَرُ متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلــم يقولون آمنا به كلٌ من عند ربّنا » ، وحملــوا الواو في قولــه تعالــى : « والراسخون » على الاستئناف . فجعلوا فواتح السور من المتشابه وقالوا :

الله أعلم بمراده بها . ومنهم من فسّرها فجعلها سمة من سـمات الاعجاز في القرآن ووسيلة من وسائل التحدي .

وجاء جلال الدين العكبري البغدادي فأفردها بالتأليف وبهذا يكون قد اسهم في مبحث مهم من مباحث علوم القرآن العظيم ، وافرده بالتأليف ... وما أندر من ألفوا في هذا الموضوع الحيوي الجليل !!

والى جانب اسهامه في علوم القرآن اسهم في أصول الفقه وألف فيـه « المقدمة في اصول الفقه »، وصلة أصول الفقه بعلم التفسـير صلة قويـة إذ يُعدّ « علم أصول الفقه » المعيار العقليّ الذي تفسر على أساسه آيات الاحكام ، ولهذا نجد كثيرا من الفقهاء والاصوليين ألفوا في احكام القـرآن وعلى رأسهم الامام الشافعيّ (ت ٢٠٤ هـ) ، وهـو مطبـوع . و «احكام القرآن » للطحاوي الحنفيّ : احمـد بـن محمـد بن سلامة الازدي (ت ٢٣٩هـ) . واحكام القرآن ، للجصاص وهو مطبوع في ثلاثة اجزاء . والجامع لاحكام القرآن . للقرطبي .وهو مطبوع فيعشرين جزءاً. ومشهور جدا .... وغيرها كثير . وكلها دليل على ماذهبنا اليه .

ولا غرابة بعد ذلك أن يصفه معاصروه بما يدل على سمو منزلته ، وعلو كعبه في العلم .

روى عنـه ابن الفُوَطيّ (ت ٧٢٣ هـ) ، وقـال : (كان وحيد دهره في علم الوعظ ومعرفة التفسير) .

وقال الامام صفيالدين الارموي : (شيخ الوعاظ ببغداد ومتقدمهم . وقد رتب فقيها بالمستنصرية ، واشتغل بالفقه والتفسير ....) .

ووصفه الداودي (ت ٩٤٥ هـ) ، فقال : (اشتغل بالفقـه والاصول والتفسير والوعظ ، وبرع في ذلك) .

(٥)

وفي بداية القرن السابع ولد بقرية من قرى الدجيل ــ بزنة سُهيل ــ يوسف بن جامع بن أبي البركات ــ وتسمى هذه القرية (قُفص) : بضم القاف وسكون الفاء • ولذلك قيل له (القفصي) ، وكان مولده سنة ست وستمائة (٦٠٦ هـ) •

نشأ ببغداد وسمع بها أبا الفضل عمر بن عبدالعزيز بن أحمد المعروف بالناقد • وسمع أخته عجيبة بنت عبدالعزيز المعروفة بتاج النساء •

ولما أكمل دراسته على شيوخ عصره ، ظهرت عليه مخايل الذكاء فبرز في علم القراءات ، وألف فيه كتباً عديدة ، أثنى عليها علماء هذا الفنّ الراسخون فيه ، كما سنرى • وقد ذكرت له مراجع القراءات المؤلفات الآتية :

(١) التأييد في القرآءات •

(٢) الشافي في القراءات العشر •

(٣) النهايــة في القراءات •

والكتاب الذي نال الشهرة وحاز قصب السبق لدي القراء هو كتابه الثاني « الشافي في القراءات العشر » قال فيه امام القراء في عصره : ابن الجزري ، بعد أنْ اطلع عليه : (رأيت كتابه الشافي يدل على عمله الكثير في هذا العلـم) •

أما الشريف عزالدين الحسيني فيظهر أنه قرأ كل كتبه فقومها وقال في وصفها : (له معرفة باللغة ووجوه القراءات وطرق القرّاء ، وله في ذلك تصانيف تدل على فضله • توفى ببغداد سنة ٦٨٢ هـ) •

ولو ألقينا نظرة فاحصة على حركة التأليف في علوم القرآن في القرن السابع بالعراق ، لوجدنا أن القفصيّ اكثر من ألف في علم القراءات وأشدهم تدقيقا وتمحيصا •

(٦)

وفي واسط مدينة القرّاء والاقراء في القرن السابع ولد جمال الدين أبو الفضل : اسماعيل بن علي بن سعدان الواسطي ، المعروف بابن الكدي ، وكانت ولادته في النصف الاول من القرن السابع ، ولا نعرف السنة بالتحديد.

وقد قرأ بواسط على خاله المقرئ المشهور : أبي جعفر المبارك بن الفضل (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) ، الذي وصف بأنه (مقرئ ماهر) . وتخرج به جماعة من القراء أشهرهم أحمد بن غزال بن مظفر بن يوسف الواسطي (٦٢٧–٧٠٧هـ)، وهو ممن أجاز الذهبي.وقد وصف بأنه (شيخ ماهر) .

والمنتجب بن حسين التكريتي (ت ٦٨٨ هـ) الذي انتهت اليه رئاسة الاقراء بالعشر . وهو شيخ ابراهيم بن عمر الجعبري .

واشتهر ابن الكدي صاحبنا بكتابه : « دُرّ الافكار في قراءة العشرة أئمة الامصار » ويتصف هذا الكتاب ــ كما ذكر العلماء الذين اطلعوا عليه ــ بالصفات الآتية :

أولا : ان الكتاب نظم وليس نثراً .

ثانيا : إنه قصيدة « لامية » مثل قصيدة الشاطبي (القاسم بن فيرّه ــ ت ٥٩٠ هـ) ، المعروفة بالشاطبية . وهي في القراءات السبع .

ثالثا : انّ القصيدة في القراءات العشر ، عن طريق كتاب « الارشاد في القراءات العشر » . لابي العز القلانسي الواسطي .

رابعا : ان المؤلف قد خالف فيه منهج الكتابين السابقين (الشاطبية والارشاد) ، فقد ذكر عن كل مقرئ راوياً واحداً ، وذكر كل واحد منهما راويين ...

و « دُرّ الافكار » من المراجع المهمة في علم القراءات ، لأن ابن الكدي

جاء فيها بمنهج جديد او اضافة جديدة اذ كان اول من ذكر عن كل مقرىء راوياً واحداً ، في حين جعلهم غيره اثنين او اكثر ...

وقد وصفها ابن الجزري بالجودة . ووصف مؤلفها بأنه « إمام عارف » ... وقال : « أظن أنه توفى سنة تسعين وستمائة » .

(٧)

ومن أشهر تلاميذ ابن الكدي « المنتَجَبُ بن الحسين بن الحسن التكريتي (المتوفى سنة ٦٨٨ هـ) .

ويعد من قراء بغداد في القرن السابع الهجري كما انتهت اليه رئاسة الاقراء ببغداد . ويبدو أنه كان يقرىء القراءات العشر ، دون غيرها . قرأها عليه الجعبري : امام القراءات في فلسطين في عصره . وصف علماءُ القراءات « المنتجبَ » بأنه (أُستاذ حاذق) . لكنه لم يؤلف كتابا في القراءات ....

(٨)

وفي نهاية هذا القرن ظهر المقرىء البغدادي عبدالرحمن بن عبداللطيف ابن محمد بن عبدالله يكنى أبا الفرج وينعت بالكمال ويعرف بابن وَرِّيدة ـــ بفتح الواو وتشديد الراء المكسورة ـــ ولد ببغداد سنة ٥٩٩ هـ ، وتوفي سنة ٦٩٧ هـ .

أخذ القراءات رواية عن فخرالدين محمد بن ابي الفرج الموصلي الشافعي الفقيه المقرىء (المتوفى ببغداد سنة ٦٢١ هـ) .

واهتم برواية كتابين من كتب القراءات هما :

(١) التجريد في القراءات السبع لابن الفحّام : عبدالرحمن بن أبي بكر عتيق بن خلف الصقليّ (المتوفى بالاسكندرية ، سنة ٥١٦ هـ) .

(٢) التيسير في القراءات السبع لابي عمرو الداني : عثمان بن سعيد (المتوفى سنة ٤٤٤ هـ) .

ويبدو أنه اسهم في حركة « علم القراءات » بالتدريس والرواية ، من غير تأليف فيها . غير أنه كان ذا دراية في هذا العلم حتى لُقّب « بالفُوَيره »، من الفروهية، لحسن فهمه.ولذلك كان الذهبي ــ وهو في الشام ــ يتحسر على الرحلة اليه ولا يتجاسر ــ على حد تعبيره ــ خوفا من الوالد فانه كان يمنعه . لكنه استفاد منه بالاجازة .

(٩)

وخُتِمَ القرن السابع وخِتامُهُ مِسْكٌ بالاخوين : احمد بن غزال ابن مظفر بن يوسف بن قيس المولود بواسط سنة ٦٢٧ هـ ، والمتوفى سنة ٧٠٧ هـ ، بها ومحمد بن غزال ..... المنعوت بشمس الدين المولود بواسط سنة ٦٢٤ هـ ، والمتوفى بها سنة ٦٩٥ هـ .

ويظهر أنهما كانا استاذين من اساتذة القراءات في عصرهما ، ولاسيما « القراءات العشر » . ووُصف « أحمد » بأنه (شيخٌ ماهر) . ووصف « محمد » بأنه : « مقرىء عارف ، أحد شيوخ واسط » .

واصطلاح « الشيخ » في ذلك العصر يعني ما نعنيه باصطلاح «الاستاذ» اليوم .

واسهامهما في الحركة العلمية المتصلة بعلوم القرآن يرجع الى اهتمامهما الخاص بالقراءات العشر .

وأرى ان هذا الاهتمام متأثر ــ الى حد كبير ــ بالاساس الذي ارساه المقرىء الواسطي : أبو العزّ محمد بن الحسين بن بندار (٤٣٥ ــ ٥٢١ هـ) ، بكتابه « الارشاد في القراءات العشر » وهو كتاب مشهور عند العراقيين كشهرة التيسير عند اهل الاندلس .

والدليل على هذا التأثير ان جميع المؤلفين في القراءات العشر ــ بواسط ــ

في القرنين السابع والثامن اهتموا « بالارشاد » نظماً ، او انتهاجا لمنهجه ، او تأثراً بناحية من نواحيه التأليفية .

(١٠)

واذا أخذنا بمنهج ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٤ هـ) ، في كتابه : « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » ، وبمنهج شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢ هـ) في كتابه : « الضوء اللامع » فانّ أول علماء القرن الثامن العراقيين الذين أسهموا في حركة علوم القرآن ، هو « أبو بكر المَقَصّاتيّ »: بفتح الميم والقاف . وقد جاء اسمه في « غاية النهاية » و « الدرر الكامنة » هكذا : (أبو بكر بن عمر بن مشبع الجزري) .

ولد سنة احدى وثلاثين وستمائة . ونشأ بالموصل وببغداد . وقدم الى دمشق فقرأ بها على السخاوي عشرين جزءاً . ثم رجع الى بغداد فقرأ فيها بكتاب « التجريد » لابن الفحام ، على عبدالصمد بن أبي الجيش . وروى عن الكواشي « تفسيره » ، بفوت يسير . ثم قدم دمشق وولي مشيخة الاقراء بدار الحديث ونيابة الامامة والخطابة ، بالجامع الاموي ، وفي هذه الفترة قرأ عليه « الذهبيّ » سورة البقرة ، وقرأ عليه كتاب « التجريد » أيضا .

ويعد من أفذاذ القراء لأنه لو لم يكن كذلك لما ولى مشيخة الاقراء بدمشق في وقت كانت دمشق قبلة طلاب القراءات لكثرة علماء القراءات فيها آنئذ ... ولهذا فقد وصفه من ترجم له بأنه (بصير بالقراءات قيّم بمعرفتها ، واقف على غوامضها ، عالم بالمخارج والأداء) .

وظل يقرىء اكثر من خمسين سنة فانتفع به جماعة حتى توفي سنة ٧١٣ هـ . رحمة الله عليه .

(١١)

وبعد المقصاتي يبرز اسم « الطوفى » نسبة الى قرية : « طوفى » . وهي قرية من قرى بغداد على دجلة .

وهو أبو الربيع سليمان بن عبدالله بن عبدالقوى بن عبدالكريم بن سعيد.

ولد ببغداد سنة ٦٩١ هـ وتوفى ببلد الخليل سنة ٧١٦ هـ وأسهم في علوم القرآن بكتابه : « بُغية الواصل الى معرفة الفواصل » . أي : فواصل الآيات .

وقد وصفه ابن رافع السلامي بقوله : (كان فاضلا طارحا للتكلف نزيه النفس ، جمع مجاميع مفيدة) .

(١٢)

ولعل اكثر علماء العراق نشاطاً في التأليف في هذا القرن « محبّ الدين جعفر بن مكي بن جعفر الموصليّ » ويكنى أبا موسى ، المتوفى سنة ٧١٣ هـ

وصفه ابن الجزري بأنه « إمام فاضل كامل » . وهو مؤلف تسعة كتب في القراءات هي :

(١) شرح الشاطبية وأرى أنه اول من شرحها من علماء العراق .

(٢) الكامل الفريد في التجويد والتفريد وهو كتاب كبير يقع في (٢٣٠ ورقة) .

(٣) مفردة نافع بن أبي نُعيم المدني (ت ١٦٩ هـ) .

(٤) مفردة عاصم بن أبي النجود الكوفي (ت ١٢٩ هـ) وهو مقرىء العراق والاقطار العربية (الآن) .

(٥) مفردة حمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦ هـ) .

(٦) مفردة الكسائي : علي بن حمزة (ت ١٨٩ هـ) .

(٧) مفردة أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) .

(٨) مفردة عبدالله بن كثير المكي (ت ١٢٠ هـ) .

(٩) مفردة عبدالله بن عامر الشامي (ت ١١٨ هـ) .

والمفردة تعنى قراءة مقرىء واحد .

وبهذا يكون أبو موسى الموصلي أول من أفرد القراءات السبع من علماء القراءات في العراق ، بعد الغزو المغولي ، أما قبله فالذين افردوا القراءات ــ في العراق وغيره ــ كثيرون .

(١٣)

وفي الموصل أيضا برز في هذا القرن المقريء المفسر : « محمد بن علي بن علي بن أبي القاسم بن أبي العز » المعروف بابن الوراق .

ولد بالموصل سنة ٦٤٠ هـ ، وتوفي بها سنة ٧١٧ هـ ، كما ذكر الامام الذهبي .

قرأ ابن الوراق على علماء بغداد والموصل . فتلا على عبدالصمد بن أبي الجيش . وقرأ تفسير الكواشي على المصنف . وقدم دمشق فجلس للاقراء بالتربة الاشرفية ... غير أنه « حن الى وطنه فرجع اليه » على حد تعبير الحافظ « ابن حجر » .

(١٤)

وفي « واسط » ولد عبدالله بن محمد بن عبدالعظيم ، سنة ٦٧٠ هـ ، المعروف بنجم الدين ونشأ بواسط ، فقرأ على الاخوين أحمد ومحمد ابني غزال وغيرهما .

وقدم دمشق سنة ٦٩٧ هـ فاستوطنها وجلس للافادة . أخذ منه « الذهبي » .

ألف نجم الدين الواسطي : « قراءة يعقوب » نظماً وقد وصفها الذهبي « بالجودة » ولاجله ألفها نجم الدين . توفي نجم الدين سنة ٧٢٢ هـ .

(١٥)

وفي التفسير برع « ابن الصبّاغ » الاسدي الكوفي المولود بالكوفة

سنة ٦٣٩هـ . واسمه الكامل : صالح بن عبدالله بن جعفر بن علي بن صالح . نشأ بالكوفة وفيها نشر علمه . وأجاز له الكواشي المفسر العظيم ، والامـام رضي‌الدين الحسن بن محمد الصاغاني .

واجاز ابن الصباغ ابن رافع السلامي ، اذ كتب اليه من الكوفـة سنة ٧٢٣ هـ .

كانت من دروسه في « تفسير الكشاف » . وقد لاحظ علماء عصره انه كان يناقش آراء الزمخشري في كشافه ، ويشكك في صحة بعضها ، قال ابن حجر في الدرر الكامنة ٢/٢٩٩ : (كان فريداً في علوم التفسير والفقه نادرة العراق في ذلك ، مع الزهد والفضل والورع . ألقى تفسير الكشاف دروساً من صدره ثماني مرات ، مع بحث وتدقيق ، وايراد وتشكيك) . وقد استحق من ابن رافع السلامي معاصره قوله فيه : (كان جمال بلده وإمامها في أنواع العلوم) !! فماذا يقول القائلون بعد هذا القول ؟!

(١٦)

وفي القراءات ظهر محمد بن داود بن محمد بن منتاب الـذي ولد في الموصل بعد سنة ٦٧٠ هـ ، وبها نشأ .... وتوفي سنة ٧٢٨ هـ .

واتجهت عنايته اول ما اتجهت الى الحديث ثم القراءات ، فحفظ قصيدة الشاطبي في القراءات السبع المعروفة بالشاطبية ، وكان الى جانب ذلك تاجراً . وقد وقف كتبا كثيرة لطلاب العلم.ولذلك كان‌التجار يخضعون له ويحتكمون اليه « وثوقاً بعلمه وورعه » ، حتى قال الذهبي : « قلّ أنْ رأيتُ مثله في الدين والمحاسن والوقار والايثار ، ومدحته بقصيدة » ... والذهبيّ لايمدح جزافـــاً ...

(١٧)

وفي القراءات أيضاً وفي الموصل الحدباء نفسـها ولد ابن الدقوقي :

عبدالرحمن بن احمد بن عبدالرحمن بن عبدالأعلى ، سنة ٦٦٨ هـ ، وتوفى سنة ٧٣٥ هـ ، بناحية ماردين •

وتبرز أهميته في تأليفه كتاب « الحواشي المفيدة في شرح القصيدة » ، يعنى شـرح القصيدة الشاطبية • وأهميـة هذا الشـرح لا تنحصر في أن (الشاطبية) بَحْرٌ قلّ من يستطيع ان يعبُرَهُ •••• القصيدة التي شرحها بعض علماء القراءات فعلق عليه أبو شامة المقدسيّ بقوله : « وتعاطى شرح القصيدة فخاض بحراً عجز عن سباحته » !!

أقول لا تنحصر أهمية كتاب « ابن الدقوقى » في شرحه القصيدة وعبوره البحر الذي عجز غيره عن سباحته ، وانما يضاف الى ذلك انه أجاد في شرحها •

وأن كتـاب « الحواشـي المفيـدة » دلّ على قـوة ابـن الدقوقى ودقته وتبحره في علم القراءات ، وهذا الامام الذهبيّ يقول عنه في كتابـه « معرفة القراء الكبار » : (وقفتُ على السِفْرِ الاول منه فوجدته يُنبىء بامامتـــه) •

(١٨)

وختام المسك في هذا العهد ، فقيه العراق وعالمها يحيى بن عبدالله بن عبدالملك الواسطيّ الشافعيّ المولود بواسط سـنة ٦٦٢ هـ ، والمتوفـى بها في ربيع الاخر سنة ٧٣٨ هـ

تفقه على والده ، وسمع من عزالدين الفاروثي : احمد بن ابراهيم بن عمر ٦١٤ ــ ٦٩٤ هـ (بواسط) واجاز له محمد بن يعقوب المعروف بابن أبي الدينـة شيخ دار السُنّة بالمدرسـة المستنصريـة (٥٨٩ ــ ٦٨٠ هـ) • وعبدالصمد بن أبي الجيش ، وهم من هم علماً وورعاً واسهم في علوم القرآن بكتابه : « الناسخ والمنسوخ في القرآن » وأهمية هذا الكتاب تبرز حين نعلم أنه لم يؤلف أحد من علماء العراق في العهد المغولي في « الناسخ والمنسوخ » غير صاحبنا « يحيى الواسطي » • رحمة الله عليه

علوم القرآن الكريم في عهد التركمان
من سنة ٧٣٨ ـ ٩٤١ هـ

يعدّ هذا العهد امتدادا للعهد السالف ، من الناحية العلمية • وقد ظل علم القراءات وعلم التفسير علمين قائمين يهتم بهما العلماء ، على الرغم من الاضطراب السياسي الذي كان يرافق تلك العهود السوداء •

(١)

وفاتحة هذا العهد المقرىء العراقي الواسطي : عبدالله بن عبدالمؤمن ابن الوجيه هبةالله ، ابو محمد الواسطي ، المعروف بابن الوجيه (٦٧١ ـ ٧٤٠ هـ) •

وصفه علماء عصره ومن بعدهم من القراء ، بصفات تدل على علوّ شأنه في علم القراءات • فقال الامام الذهبي : (كان بصيرا بهذا الشأن • نظم في العشرة كتابا نفيسا سماه « الغاية » • قدم علينا كهلا ، واخذت عنه)• ووصفه ابن الجزري بقوله : (الاستاذ العارف المحقق الثقة المشهور • كان شيخ العراق في زمانه) • وقال في خاتمة ترجمته : (ولم يخلف بعده بالعراق مثله) •

اما اسهامه في علم القراءات فكتبه :

(١) روضة الازهار في قراءة العشرة أئمة الامصار ـ وهو قصيدة عدتها (ألف ومائة وثلاثة وخمسون بيتا) •

وهي في القراءات العشر • نظم فيها الارشاد في القراءات العشر لابي العز القلانسي • وزاد « ابن حجر » في الدرر الكامنة فقال : (نظم فيه الارشاد للقلانسي ، وزاد عليه الادغام الكبير ، لابي عمرو) •

(٢) الكنز في القراءات العشر ـ وقد جمع فيه بين كتابين من كتب القراءات المشهورة ، هما : الشاطبية والارشاد • هذا ما قاله ابن الجزري ،

في غاية النهاية ، وابن حجر في الدرر الكامنة • وحاجي خليفة • وقال ابـن الجزري ، في كتابه : النشر : (جمع فيه بين الارشاد للقلانسي ، والتيسير ، للداني ، وزاد فيه فوائـد) • ووصفه بأنه حسن في بابه •

ويبدو أنه كتاب كبير • فهو في مخطوطة الظاهرية المرقمة (٣١٦) ، في (١٨٠ ورقـة) •

وقد نظم الكتاب مؤلفه في قصيدة (لامية) ، سماها :

(٣) الكفاية في القراءات العشـر — وهي في ألـف ومائتين وثلاثـة وسبعين بيتا اولهـا :

بـدأت أقـول : الحمـد للـه أولا
الهـاً عظيمـا واحـدا صمدا عـلا
سـميعا بصـيرا باقيـا متكلمـا
عليمـا مريـدا قـادرا متفضـلا

اثنى عليها المقرىء المعروف « الجعبري » : ابراهيم بن عمر بن ابراهيم (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ) • وهو من معاصريه • وشهادة المعاصر القرين مـن أحسن الشـهادات •

(٤) وله : المختار في القراءة — ذكره ابن حجر في « الدرر » وصاحب كشف الظنون •

أما كتاب « الغاية في القرءات العشر » الذي تفرد « الذهبي » بذكره ، فأراه وهمـاً منـه •

(٢)

وانجبت واسط مقرئا كبيرا آخر — في هذا العهد — هو علي بن أبى محمد بن أبي سعد بن عبدالله ، المعروف بأبي الحسن الديواني (٦٦٣ — ٧٤٣ هـ) •

قرأ بواسط على الشيخ علي بن عبدالكريم المعروف بخريم (ت ٦٨٩هـ، بواسـط) .

ثم قدم دمشق (سنة ٦٩٣ هـ) ، فقرأ « بالتيسير » على الشيخ ابراهيم الاسكندري . وتوجه الى مدينة الخليل ، فقرأ على « الجعبري » .

وصفه ابن الجزري بقوله : (كان خاتمة المقرئين بواسط مع الديـن والخير . وهو استاذ ماهر محقق) .

أما اسهامه في علم القراءات فهو الكتب الآتية :

(١) جمع الاصول في مشهور المنقول في القراءات العشر وهو قصيدة لامية في وزن الشاطبية ورويّها . نظم فيها كتاب الارشاد ، للقلانسي اولها :

❋ بدأتُ وقد فَوَّضْتُ أمري مُبَسْمِلا ❋

وتوجد منها نسخة مخطوطة في « الظاهرية » في (٤٩ ورقة) .

(٢) شرح جمع الاصول في مشهور المنقول وهو كتاب شـرح فيـه قصيدته السالفة . وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية ، في (٦٨ ورقة)، تحت رقم ٢٠٧٨٧ ب ، لكنها ناقصة من اولها مقدار كراستين .

(٣) روضة القرير في الخلف بين الارشاد والتيسير . وهـو قصيدة ، جمع فيها زوائد الارشاد والتيسير . وعلق عليها شرحا ، اسماه :

(٤) شرح روضة القرير .

(٥) اللوامع في القراءات . وهي ارجوزة في القراءات الشاذة .

(٣)

والعلم الثالث من أعلام القراءات في هذا العهد المقرىء عبدالرحمن بن احمد بن علي بن المبارك بن معالي ، البغدادي (٧٠٢ ــ ٧٨١ هـ) .

وهو شيخ ابن الجزري ولذلك وصفه في غاية النهاية « بشيخنا الامام العالم العلامــة » .

ومن تلاميذ أبي حيان الاندلسي في التفسير والنحو . أخذ القراءات بالروايات الكثيرة على الاستاذ التقى محمد بن أحمد الصائغ ...

اشتهر علمه بمصر فانتهت اليــه مشيخة الاقــراء بالديــار المصرية . قــرأ عليه ابــن الجــزري جمعــا بالقراءات ختمتين : الاولــى : بمضمن الشاطبية والتيسير والعنوان في شهور سنة تسع وستين وسبعمائة . والختمة الاخرى بمضمن كتب شتى بالقراءات الثلاث عشرة .

وله من الكتب المتصلة بعلوم القرآن :

(١) شرح الشاطبية . شرحها شرحين .

(٢) مختصر « البحر المحيط » في التفسير . والاصل لابــي حيان . وهو كتاب مشهور ومطبوع في ثمانية اجزاء .

(٤)

ورابع علماء القرآن ، في هذا العهد ، العالم البغدادي عبدالصمد بــن ابراهيم بن خليل ، المعروف بابن الحصري يلقب بجمال‌الدين ويكنى بأبــي احمــد ...

وكان يدرس بمسجد « يانس » ، ببغداد . وألقى دروسه في التفسير. وحصيلة هذه الدروس كتابه :

* « مختصر تفسير الرسعني » ــ والرسعنى هــو : العالم المفسر : عبدالرزاق بن رزق‌الله بن أبي بكر بن خلف بن أبي الهيجاء الرسعني الحنبلي المتوفى (سنة ٦٦٠ هـ) ، بسنجار .

واسم كتابه : رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز . وقد ألف هـذا الكتاب للخليفة العظيم المستنصر بالله (٦٢٣ ــ ٦٤٠ هـ) .

وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الظاهرية ، تحت الارقام ٥٢٨ تفسير ، ٥١٠ تفسير ، ٥١١ تفسير .

(٥)

ومن المفسرين في هذا العهد :

علي بن محمد بن ابراهيم بن عمر بن الخليل البغدادي ثم الشيحي (بكسر الشين المعجمة ومثناة من تحت ساكنة ، ثم حاء مهملة) . نسبة الى (شيحة) . قرية من قرى حلب . ولد ببغداد سنة ٦٧٨ هـ . وهو من المفسرين المشهورين . ترجم له « الداودي » في طبقاته .

وله كتب في الحديث والسيرة النبوية ، والتفسير . ويهمنا كتابه في التفسير المسمى : التأويل لمعالم التنزيل . وقد وصفه ابن حجر ، في « الدرر الكامنة » بأنه (تفسير كبير) . توفي ــ رحمه الله ــ سنة ٧٤١ هـ .

(٦)

ومن أهل القرآن العالم الواسطي البغدادي عمر بن علي بن عمر ، الملقب بسراج الدين ويكنى بأبي حفص ولد سنة ٦٨٣ هـ .

واول سماعه بواسط سنة ٦٩٦ هـ ، وعمره ثلاث عشرة سنة . وكانت قراءته القرآن قبل ذلك ، بواسط أيضا .

وحياته العلمية حافلة بالجهد والعناء من اجل العلم . ولا نجد أحسن مما حدث به عن نفسه ، اذ قال : (أقرأني الشيخ الصالح جمعة بن تركان سنة ٦٩١ هـ ، وكان يختم في اليوم والليلة ختمتين . فمنعني من الخروج ، وجعلني معيدا لدار القرآن ــ وكان بها الشيخ عزالدين الفاروثي ــ

واشتغلت بكتب السبع والعشر • ولم يبق كتاب يـروى الا وأقرأني بـه وبالغ في تربيتي بما قضى الناس منه العجب • وخرجت من عند الشيخ جمعة الواسطي خفية ، للقراءة على الشيخ نجم‌الدين بـن غـزال • وكـان عالي الرواية فقرأت عليه جميع كتب القراءات المرويـة وسـافرت الى بغـداد ، (سنة ٧٠٠ هـ) ، وحصل لي بها القبول • ثم فـوّض الـيّ مشيخة دار القرآن ، بالبشرية ، سنة ٧٠١ هـ • وفي هذه السنة تأهلت • ثم فـوّض اليّ تدريس المدرسة الثقتية ، بباب الازج • ثم امامة الجامع • وكان يومئـذ شيخي أحمد بن غزال ، ببغداد ، فابتدأت عليه بقراءة المصابيح والمقامات الحريرية والفصيح ، وسمعت معالم السنن ، للخطابي ، وصحيح مسلم) •

وصفه ابن رافع بالمحدث المقرىء • ووصفه ابن الجزري بشيخ بغداد • واسهاماته في علوم القرآن ، كانت بكتابه (التجويد) • توفـى رحمه الله ، ببغداد ، سنة ٧٥٠ هـ •

(٧)

ومن علماء القراءات في العراق الامام المقرىء : أحمد بن علي بـن أحمد الهمداني ثم الكوفى الحنفى ، المولود بالكوفة ، (سنة ٦٨٠ هـ) •

وقد سمع ببغداد من « ابن الدواليبي » : محمد بن عبدالمحسن بـن أبى الحسن بن عبدالغفار البغدادي (٦٣٩ ــ ٧٢٨ هـ) ، وتلا بالروايات على المقرئين : صالح بن عبدالله بن الصباغ ، الاسـدي الكوفي ، والشيخ علي بن أبي محمد بن أبى سعيد الديواني الواسطي (الذي مضى ذكـره في هذا المبحث) • قال ابن حجر : (وكان له صيت في بلاد العراق ، ثم قدم دمشق فاكرمه نائب الشام ، ودرّس بالقصاعين ، واعاد بالريحانية • وكان فاضلا متوددا) •

ووصفه ابن الجزري بأنه (امام كامل) • ومدحه أبو حيان الاندلسي ببيتين همـا :

شَرُفَ الشـــامُ واستنارتْ رُباهُ
باِمـام الأئمـــة ابــنِ الفصـــيح
كـلَّ يــوم لــه دروسُ علــومٍ
بلســانٍ عَذْبٍ ، وفكــر صحيح

واسهم في القراءات بكتابه : (حلّ الرموز في القراءات السبع) •

وهي قصيدة في وزن الشاطبية ، وفي حجمها • لكنها بغير رمـوز • والعادة أن يرمز لكل قارىء برمز على طريق الشاطبية •

توفي بدمشق سنة ٧٥٥ هـ •

(٨)

ويليه المقرىء المفسّر :

تاج الدين عليّ بن محمد بن عبدالعزيز بـن فتوح بـن ابراهيـم • الموصلي • المعروف بابن الدريهم •

ولد بالموصل سنة ٧١٢ هـ ، وتوفي سـنة ٧٦٢ هـ وقـرأ القـرآن بالروايات على : أبي بكر بن المعلم الموصلي • وقرأ على أبي حيان بعـض مؤلفاته • وكان يحفظ ألفيتي ابن معط ، وابن مالك ، في النحو • وكان من العلماء الموسوعيين ، اذ شارك في القراءات والتفسير والحديث والفقه •

قال ابن حجر فيه : (وكان يتكلم في جميع ذلك من ذهن وقّاد حاد) •

واسهم في التفسير وعلم الاصوات الذي يدخل في موضوع التجويد ، بالكتـب الآتيـة :

١ ـ الآثار الرائعة في اسرار « الواقعة » •

أي : سورة الواقعة • وهي السورة السادسة والخمسون • وهـي مكية • وآياتها ست وتسعون •

٢ ـ سبر العرف في سدّ الحرف .
٣ ـ كنز الدرر في حروف أوائل السور .
٤ ـ النسمات الفائحة في آيات الفاتحة .

(٩)

وجاء بعده المقرىء الواسطى الاصل ، البغدادي : تقي الدين عبدالرحمن بن أحمد بن علي . ولد سنة احدى وسبعمائة او اثنتين وسبعمائة .

تلا بالقراءات السبع على تقيّ الدين الصائغ : محمد بن احمد بن عبدالخالق : مُسْنِدُ عصره وشيخ زمانه وإمام أوانه (٦٣٦ ـ ٧٢٢ هـ) . وسمع عليه الشاطبية . وقرأ النحو على أبي حيان . ونظم كتابه (غاية الاحسان) ، في النحو ، وعرضه عليه فأُعجبَ به ، وقرظه .

قال ابن حجر في أنباء الغمر : ودرس القراءات بجامع ابن طولون . ومات سنة ٧٨١ هـ ، وعاش تسعاً وسبعين سنة . واسهم في القراءات بكتابه : شرح الشاطبية .

(١٠)

ومن العلماء البارزين في بغداد في القرن الثامن الهجري شمس الدين محمد بن يوسف بن علي بن سعيد الكرماني ثم البغدادي .

ولد يوم الخميس سادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٧١٧ هـ ، كما قال ابنه تقي الدين يحيى ، في « ذيل المسالك » .

قرأ على والده بهاء الدين يوسف بن علي .

دخل دمشق ومصر . وحج ورجع الى بغداد واستوطنها ثلاثين سنة . وألف فيها سائر تصانيفه .

قال فيه الشيخ شهاب الدين بن حجر : (كان مقبلا على شأنه ، لا يتردد الى أبناء الدنيا ، قانعاً باليسير ، مع ملازمة التواضع ، والبرّ باهل العلم) .

ووصفه (الداودي) بقوله : (الامام العلامة في التفسير والحديث والفقه والمعاني والعربية) . وصنف كتباً منها :

(١) أنموذج الكشاف . في التفسير .

(٢) وحاشية على تفسير البيضاوي ، والبيضاوى هو المفسر المشهور: عبدالله بن عمر بن محمد بن علي (المتوفى سنة ٦٨٥ هـ) . واسم تفسيره : « أنور التنزيل واسرار التأويل » . وهو مطبوع مشهور .

(٣) شرح الفوائد الضيائية في المعاني والبيان .

(٤) وشرح صحيح البخاري في مجلدين ضخمين ، وسماه : « الكواكب الدراري » .

توفى راجعاً من الحج ، سنة ٧٨٦ هـ .

(١١)

ويليه ابنه تقي الدين يحيى بن محمد بن يوسف البغدادي ، (المتوفى سنة ٨٣٣ هـ) .

ويمثل قطب الحركة في العلوم القرآنية واللغوية ، في عهد التركمان . وقائمة الكتب التي قرأها او حفظها تمثل دائرة معارف عصره .

وإن قائمة أساتذته الذين أخذ عنهم تلك العلوم جعلته يؤلف فيهم رسالة، رآها شمس الدين السخاوي واستفاد منها في كتابه « الضوء اللامع » .

فقد حفظ القرآن الكريم على أستاذه : أسعد بن محمد بن محمود الحنفي . وحفظ عليه الشاطبية في القراءات السبع وقرأ اللغة على الفيروزآبادي : محمد بن يعقوب بن محمد . اذ قرأ عليه كتابه المشهور (القاموس المحيط) . والعباب الزاخر ، ، للصاغاني . والمحكم ، لابن سيده .

أما عن والده فقد أخذ إعراب القرآن . وسمع عليه تفسير الكشاف ،

للزمخشري ، وتفسير البيضاوي . وشرح صحيح البخاري (السالف الذكر). وشرح المفصّل في النحو ، لابن الحاجب ، وشافية ابن الحاجب وكافيته ، وغيرها كثير .

(١٢)

ومن المفسرين العراقيين : أحمد بن محمد بن محمد بن محمد المعروف بالاخوي . وهو من علماء المدرسة المستنصرية . ولد سنة ٧١٩ هـ . وتوفي سنة ٨٠٢ هـ . واسهم في حركة علوم القرآن الكريم بكتابين هما :

(١) تفسير القرآن الكريم .

(٢) وحاشية على الكشاف . للزمخشري .

(١٣)

ومن علماء العراق في النصف الاول من القرن التاسع الهجري : نجم الدين محمد بن عبدالله بن عبدالقادر الواسطي .

ولد بواسط ، سنة ٧٦٠ هـ واشتغل ببغداد على جماعة من العلماء منهم : فريد الدين عبدالخالق بن الصدر محمد بن محمد الاسفراييني .

وتلا بالسبع والعشر بما تضمنه « الارشاد » لابي العزّ ، على خضر العجمي عند قدومه من القاهرة الى العراق ، وعرض عليه من حفظه (الشاطبية) .

وقرأ الشاطبية على ابي العباس أحمد التَرَوْجي مدرس البرجانية ببغداد ، قراءة بحث واتقان وتحقيق لوجوه القراءات .

وحج سنة (تسع وثمانمائة) ، وجاور بمكة التي تليها (أي : سنة ٨١٠هـ) ، وتلا فيها للسبع على النور بن سلامة ، بما تضمنه التيسير والشاطبية . فاذن له بالاقراء والتصدير .

وعاد الى العراق وتصدى بها للاقراء • ثم دخل دمشق قاصداً زيارة بيت المقدس ، (سنة ٨١٥ هـ) ، فقرأ به على أبي المعالي بن اللبان ، بما تضمنه الكنز في القراءات العشر ، والكفاية : نظم الكنز • وكلاهما لنجم الدين عبدالله بن عبدالواحد الواسطي • واذن له بالاقراء والتصدير •

ثم قدم مكة قبل سنة ٨٣٠ هـ ، بمدة يسيرة وانقطع بها للاقراء • ثم قطن مكة سنة ٨٣٧ هـ ، الى أنْ مات بها ، سنة ٨٣٨ هـ •

وقد ألف أربعة كتب اثنين في القراءات واثنين في الادب • أما في القراءات فألف :

(١) التتمة في القراءات العشر •

وهي قصيدة في وزن الشاطبية وقافيتها وتشمل القراءات الثلاث المكملة للقراءات العشر • وهي قراءة ابي جعفر يزيد بن القعقاع المدني المتوفى سنة ١٦٠ هـ • وقراءة يعقوب بن اسحاق الحضرمي ، امام جامع البصرة ، بعد أبي عمرو بن العلاء • توفى يعقوب سنة ٢٠٥ هـ • وقراءة خلف بن هشام البزاز البغدادي ، توفى سنة ٢٢٩ هـ •

ذكرها ابن حجر في « انباء الغمر » فقال : نظم بقية القراءات العشر ، تكملة للشاطبي على طريقته حتى يغلب على ظن سامعه أنه نظم الشاطبي•

(٢) شرح التتمة • (مختصر) • وهو شرح للكتاب السابق •

(١٤)

ويليه : عبدالعزيز بن علي بن أبي العز بن عبدالعزيز البكري التيميّ القرشيّ ، البغدادي •

ولد قبيل سنة سبعين وسبعمائة ، ببغداد ، وبها نشأ • وحفظ القرآن وتلاه بالروايات •

وسمع في سنة تسعين وسبعمائة من العماد : محمد بن عبدالرحمن بن عبدالمحمود السهروردي ، شيخ العراق . ثم سمع بعد سنين من ولده (أحمد) . وتوفى بدمشق ، سنة ٨٤٦ هـ .

ألف كتباً عديدة يهمنا منها كتابان :

(١) مسلك البررة في معرفة القراءات العشرة .

(٢) جنة السائرين الابرار وجنة المتوكلين الاخيار .

والكتاب الاخير في تفسير آيات الصبر والتوكل . وهو في مجلد ، كما قال « السخاوي » في « الضوء اللامع » .

(١٥)

وآخر العلماء الذين أسهموا بمؤلفات في علوم القرآن الكريم ، الشيخ سراج الدين محمد بن السيد عبدالله المخزومي الرفاعي البغدادي (ت ٨٨٥ هـ) . وله في التفسير كتابه : « البيان في تفسير القرآن » .

(١٦)

وقد ذكرت المراجع اسماء علماء عراقيين آخرين ولم تذكر لهم مؤلفات في أي علم من علوم القرآن . مثل عبدالسلام بن أحمد بن عبدالمنعم القَيلوي ــ بفتح القاف نسبة لقرية ببغداد ــ المولود بالجانب الشرقي من بغداد سنة ٧٧٥ هـ ، والمتوفى سنة ٨٥٩ هـ ، المقرىء ، الذي كان يحفظ الشاطبية . واحمد بن محمد بن أبي بكر الموصلي ، الذي وُصف بالشيخ المقرىء . المولود سنة ٧٨٩ هـ والمتوفى سنة ٨٧٠ هـ ومحمد بن علي البعقوبي المولود « ببعقوبا » من شرقي بغداد ، والمتوفى سنة ٨٩٦ هـ . الذي وصفه صاحب « الضوء اللامع » ، بالمقرىء .

وغير هؤلاء . ولم أفصل في تراجمهم للسبب الذي ذكرته .

علوم القرآن الكريم في العهد العثماني الاول
من سنة ٩٤١ ـ ١١٦٢هـ

ظلّتْ حركة القراءات القرآنية نشطة في هذا العهد ، نشطة ، لأنها متصلة بتلاوة القرآن الكريم ، وتلاوته مستمرة ، وقد تكفل الله سبحانه وتعالى ، باستمرارها ، وهي جزء من مدلول الاية الكريمة : « إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون » .

ومن الشواهد على مانقول تلك الاجازات العلمية الكثيرة ، التي اعطاها العلماء لتلامذتهم واثبتتها مجموعة من كتب التراجم .

غير أنني سأقتصر على العلماء الذين أسهموا في تأليف علمي في أيّ فرع من فروع علوم القرآن ...

(١)

واولهم الشيخ خضر بن عطاء الله الموصلي المتوفى سنة ١٠٠٧ هـ وقد ألف سنة ٩٩٤هـ كتابه : « الاسعاف : شرح أبيات القاضي والكشاف » ويريد بالقاضي المفسر « البيضاوي » : عبدالله بن عمر بن محمد بن علي (ت ٦٨٥هـ) ، وتفسيره هو : « أنوار التنزيل واسرار التأويل » المعروف بتفسير البيضاوي . وهو مطبوع مشهور .

وكتاب « الاسعاف » هو في شرح الشواهد الشعرية التي جاءت في « تفسير الكشاف » للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، وتفسير البيضاوي .

وعلة الجمع بين هذين التفسيرين ـ فيما يبدو ـ أنّ البيضاوي تابع الزمخشري في الاستشهاد بهذه الأبيات . ويؤيد هذا منهج كتاب « الاسعاف » الذي بسطه المؤلف في المقدمة ويمكن تلخيص منهجه بالنقاط الآتية :

(١) أنه ذكر ما قاله الكشاف في الشاهد .
(٢) ثم ما ذكره البيضاوي .
(٣) ثم ما اتفقا عليه .
(٤) ثم يذكر محل الشاهد في البيت او مايسميه النحاة : « وجه الشاهد» .
(٥) ثم اللغة والاعراب ــ في البيت ــ وما يتعلق بهما .
(٦) ثم ما يتعلق بالعروض والقوافي .
(٧) ويعين اسم الشاعر ويشرح ترجمته ويذكر قصيدته .

(٢)

ومن المؤلفين في القراءات في القرن الحادي عشر الهجري محمد بن حمدان الموصلي . ولـه كتـاب : « القولُ النصّ في روايـة حفص » وهو في قراءة « عاصم بن أبي النّجود » (المتوفى ١٢٩هـ) .وهو مقرىء العراق وسائر الاقطار العربية (الآن) سوى أقطار المغرب العربي الاربعة . وحفص هو ابن سليمان بن المغيرة الاسدي الكوفيّ (المتوفى سنة ١٨٠هـ).

وتوجد من الكتاب نسخة بالمكتبة التيمورية ، بدار الكتب المصرية برقم ٤٥٠ تفسـير .

(٣)

وثالثهم أبو محمد المقرىء خليل الخطيب البغدادي (المتوفى سـنة ١١٣٨هـ) .

وكان يقرىء في مدرسة الشيخ عبدالقادر الجيلاني (من سنة ١١١٤هـ ، الى سـنة ١١٣٦ هـ) وعنه أخذ مقرىء العراق في وقته : (الشيخ سلطان ابن ناصر الجبوري) .

وللشيخ خليل الخطيب البغدادي « أبيات لامية » تتصل بقراءة ورش المصري : عثمان بن سعيد بن عبدالله (١١٠ ــ ١٩٧ هـ) .

والابيات تتصل « بالفتح والامالة » ، ومايتعلق بها من « أصول المدّ » ، وهي :

وآيٌ لورشٍ افتحْ بقصرٍ ووسطنْ
بفتحٍ فتقليل كذا المدّ فاعقلا

وأما (تلقى آدم) فافتحنّه
وثلّثْ لمدّ آدم يا أخا العُلا

وقلّلْ (تلقّى) مع توسط (آدم)
كذا « ك » مع التطويل فاحفظه مجملا

وفي « آمنوا » قبل النصارى فثلّثنْ
وقلّلْ على كلٍ لورش تُقبلا

وأما رؤوس الآي فالحكم فيه ما
تقدم من ذي الراء فاضبطه مكملا

اذا لم يكنْ في ختمها (ها) ، وإنْ يكن
فحكمُ ذواتِ الياء فيه تأصّلا

ولكنْ (تلاها) مع (دُحاها) كذاك مع
(ضُحاها طَحاها) ليس فيه مُقلّلا

وقد شرحها تلميذه الشيخ سلطان بن احمد ، في « شرح الرسالة البقرية » ، فقال : (إنّ لورش في مثل « أتى » و « فتلقى آدم » خمسة أوجه : أما « أتى » فتأخذ اولا قصر البدَل مع الفتح ثم التوسط ، وعليه الفتح والامالة .... ثم الطول ، وعليه الفتح والامالة ، أيضا ... وكذا كل آية تقدمت فيها الامالة وكانت من ذوات الياء) .

وتأخر البدل .... وبالعكس ، فتأخذ أولا على الفتح في « فتلقى آدم » . وأمثاله ثلاثة أوجه : البدل ، ثم تأخذ على الامالة التوسط ، والطول، لا غير . أما القصر فليس له على امالة .

وأما اذا كانت رائية وتقدم البدل فعلى كل وجه من أوجه البدل ، الامالة . أما رؤوس الآي فان لم يكـن في آخرها (ها) فكالرائية ، وإلا فكاليائية) .

والمقصود برؤوس الآي : الفواصل . مثل قوله تعالى « والضحى . والليل اذا سجى . ماودعك ربك وماقلى » . فرؤوس الآي هذه يائية .

أما رؤوس الآي التي في آخرها (ها) فمثل قوله تعالى : « والشمس وضحاها . والقمر اذا تلاها » .... الخ الايات .

(٤)

وأشهر علماء هذا العهد واكثرهم تعمقاً في علم القراءات هو العلامة أبو المواهب سلطان بن أحمد الجبوري .

ولد بالموصل حوالي سنة ١٠٧٢ هـ ونزح الى لواء الخابور ، ودير الزور . ثم عاد الى بغداد : مدينة السلام « شوقاً لطلب العلم والمعرفة » .

أخذ القراءات ــ ببغداد ــ عن الشيخ المقرىء عمر بن حسين الجبوري (المتوفى سنة ١١٠١ هـ) ثم أخذها عن شيخ القراء أبي محمد خليل الخطيب البغدادي ، المدرس بمدرسة جامع الشيخ عبدالقادر الجيلاني (من سـنة ١١١٤ هـ ، الى سنة ١١٣٦ هـ) ، وتوفى سنة ١١٣٨ هـ .

أما أهم الذين أخذوا عن الشيخ سلطان بن ناصر ، فهم :

(١) الحاج عبدالغفور بن عبدالله الربتكي (أخذ عن الشيخ سلطان، القراءات سنة ١١١٩ هـ) .

(٢) الشيخ عبد الله السويدي (١١٠٤ ـ ١١٧٤ هـ) أخذ القراءات عن الشيخ سلطان الجبوري ٠وقد وصف استاذه بانه (سيبويه زمانه) وذلك في كتابه (النفحة المسكية) ٠

وللشيخ سلطان بن ناصر كتب عديدة ، منها مايتصل بعلم النحو ، ومنها مايتصل بعلم الحديث ٠ ومنها مايتصل بعلم القراءات ٠ وهما كتابان :

(١) القول المبين في تكبير سُنّة المكيين ٠

(٢) العقود المجوهرة واللالىء المبتكرة في شرح القواعد المقررة والفوائد المحررة ، لمؤلفها الشيخ محمد بن قاسم البقري الازهري (المتوفى سنة ١١١١ هـ) ٠

أما الكتاب الاول « القولُ المبين في تكبير سنة المكيين » فيتصل بقول القارىء (الله اكبر) ، واحكامها ، وما جاء فيها من روايات عن أئمة القراء ، ولاسيما عبدالله بن كثير ، ورواته ٠ وهو مقرىء المكيين ، من القراء السبعة (توفى ابن كثير ، سنة ١٢٠ هـ) ٠واوضح امام القراء في عصره (ابن الجزري ـ المتوفى سنة ٨٣٣هـ) ، في كتابه (النشر في القراءات العشر) ، هذه المسألة ، فقال : (اعلم أنّ التكبير صح عند أهل مكة قرائهم وعلمائهم وائمتهم ومن روى عنهم ، صحة استفاضت واشتهرت وذاعت وانتشرت حتى بلغت حدّ التواتر ٠ وصحت أيضا عن أبي عمرو من رواية السوسي ، وعن ابي جعفر (يزيد بن القعقاع المدني) من رواية العمري ، ووردت أيضا عن سائر القُراء) ٠

ويأتي لفظ التكبير قبل « البسملة » (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فيقول القارىء : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠

الله اكبر ٠

بسم الله الرحمن الرحيم ٠

أما من حيث القطع والوصل بين هذه العبارات الثلاث مع مايليها فأحكامه مشروحة في كتب القراءات . ولكن السؤال المهم الوارد هنا هو :

هل التكبير لأول السورة ام لآخرها ؟

هذا هو السؤال الذي طرحه الشيخ سلطان بن ناصر ، في كتابه (القول المبين) .

وأجاب عنه بقوله : (اما ابتداؤه فنص صاحب التيسير : الشيخ الداني على أنه من آخر سورة الضحى . وكذلك شيخه أبو الحسن طاهر ابن غلبون ووالده أبو الطيب عبدالمنعم . وقيل من آخر « سورة » الليل، واليه أشار الشاطبي بقوله :

وقال به البزّيّ من آخر « الضحى »

وبعضٌ له من آخر « الليل » وصّلا

ونصّ صاحب « المستنير » : أبو طاهر أحمد بن علي بن سوار ، على أنه من أول « ألم نشرح » ، وكذا ابو العِزّ محمد (بن حسين) ، في « ارشاده » .

وأما انتهاؤه فمن كان عنده لآخر السورة كبرّ في آخر كل سورة حتى يكبّر في آخر الناس . ومن كان عنده لاول السورة كبرّ في اول كل سورة ، حتى يكبرّ في اول (سورة الناس) ، ولا يكبرّ في آخرها) .

وذكر عن شيخ مشايخه سلطان المزاحي المصري (المتوفى سنة ١٠٧٥هـ) ، صورة أخرى من صور التكبير ، وهي الجمع بينه وبين التهليل والتحميد هكذا : (لا اله الا الله والله اكبر ولله الحمد) .

وذكر أن هذه الصيغة لا يفصل بعضها عن بعض ، ولا يتقدم بعضها على بعض ، بل دفعة واحدة .

وأسلوب الرسالة واضح لكنه مركز . فهي من الكتب المختصرة . وعدد صفحاتها مايقرب من عشرين صفحة (صفحات ١٣٣ ـ ١٥٢ : من كتاب : توضيح أصول قواعد الشفع) .

أما مصادره في هذه الرسالة فهي :

(١) التيسير في القراءات السبع . للداني : عثمان بن سعيد ، المتوفى سنة ٤٤٤ هـ . والكتاب مشهور مطبوع .

(٢) الشاطبية . او « حرز الاماني » . وهي قصيدة لامية ، في القراءات السبع .

وهي مطبوعة طبعات عديدة . وطبع قسم من شروحها . وهي للامام القاسم بن فيرّه (بضم اللام المشددة وبعدها ، هاء) . المتوفى سنة ٥٩٥ هـ .

(٣) « النشر في القراءات العشر » ، للمقرىء محمد بن محمد بن محمد، المعروف بابن الجزري ، المتوفى سنة ٨٣٣ هـ . وللكتاب اكثر من طبعة .

(٤) وقد اعتمد الشيخ سلطان بن ناصر ، أيضا على اقوال العلماء الذين عاصرهم ، او عن اساتذتهم .

ومن العلماء المذكورين في رسالة « القول المبين » المعتمد على أقوالهم :

* الشيخ سلطان بن أحمد المزاحي (ت ١٠٧٥ هـ) ، الذي سماه « شيخ مشايخي » .

* استاذه البغدادي : الشيخ خليل الخطيب مقرىء الحضرة الجيلانية (من سنة ١١١٤ هـ ـ الى سنة ١١٣٦ هـ) .

* الشيخ ابو المواهب محمد بن عبدالقادر الدمشقي المولود سنة ١٠٤٤ هـ . والمتوفى سنة ١١٢٦ هـ .

أما كتابه الآخر :

« العقود المجوهرة واللالىء المبتكرة » فهو شرح كتاب « القواعد المقررة والفوائد المحررة » ، للشيخ محمد بن قاسم البقري الازهري (المتوفى سنة ١١١١ هـ) • وتسمى « البقرية » نسبة الى (البقري) • وشرح الشيخ سلطان بن ناصر عليها يسمى (شرح البقرية) •

يقول الشيخ سلطان في مقدمة شرح البقرية : بعد حمد الله سبحانه وتعالى والصلاة على نبيه الكريم : (هذا شرح لطيف وضعته على الرسالة البقرية في أصول القرّاء السبعة ، رضي الله عنهم أجمعين ، لشيخي المتقن المجيد الشيخ محمد بن قاسم بن اسماعيل البقري ، وسميتها بالعقود المجوهرة واللالىء المبتكرة) •

والرسالة ــ كما اشار شارحها ــ في أصول القراءات والمقصود بالاصول المسائل الاساسية التي تدور حولها القراءات ، وهي :

١ ــ الفتح والامالة •

٢ ــ الهمز واحكامه ، وترك الهمز •

٣ ــ الادغام •

٤ ــ المدّ واحكامه •

أما المسائل الجزئية التي لا تدور حولها القراءات وانما تأتي في بعض الحالات التي قد لا تتكرر ، فتسمى (الفَرْش) •

وكل كتاب في القراءات ، (بعد كتاب القراءات ، للمقرىء البغدادي : علي بن عمر بن احمد الدارقطني ، المتوفى سنة ٣٨٥ هـ) ، يحتوي على قسمين : القسم الاول : قسم الاصول ، والقسم الاخر : الفرش ، مرتب على السور •

ومنهج الشارح أنه يضع النصّ بين قوسين ، ثم يشرحه . ومن الامثلة على ذلك ماجاء في « مبحث الامالة » :

(أمال ابو عمرو كل ألف بعدها راء مكسورة متطرفة) ، حقيقة كانت اذا لم تُضَفْ (كالابصار والابرار) ، او حُكْماً فيما اذا أضيفت كأبصارهم . وعلة الامالة طلب الخفة لأن الالف بعدها كسرة ، فاذا أميلت قربتْ من الياء ، وقربت الفتحة التي قبلها من الكسرة ، فعمل اللسان عملاً واحداً مستقلاً وذلك أخفّ من أنْ يعمل متصعداً بالفتحة والالف ، ثم يهبط مستفلاً بالكسرة .

وقد فرغ من هذا الشرح في الرابع والعشرين من شهر شوال ، بالمدرسة المرجانية ، ببغداد ، من سنة ١١١٤ هـ . أما مصادره في شرحه فهي :

١ ــ التيسير . للداني .

٢ ــ الشاطبية .

٣ ــ شرح الشاطبية . لابن القاصح : علي بن عثمان بن محمد ، المتوفى ٨٠١ هـ ، ويسمى شرحه : سراج القارىء المبتدي وتذكار المقرىء المنتهي . وهو مطبوع .

٤ ــ النشر في القراءات العشر . لابن الجزري .

٥ ــ طيبة النشر . وهي قصيدة في القراءات العشر . لابن الجزري . وشرحها ابنه « أحمد » (المتوفى سنة ٨٥٩ هـ) ، وغيره .

علوم القرآن الكريم في عهد المماليك
من سنة ١١٦٢ ـ ١٢٤٧هـ

برزت في هذا العهد ظاهرة جديدة لم تكن قد برزت في العهود الثلاثة السابقة ، وهي نبوغ مجموعة من العلماء ينتمي كل واحد منهم الى عائلة من العوائل التي اشتهرت فيما بعد ، في بلدنا العزيز ، وأدّتْ خدمات جليلة ، للعلم وأهله ، عشرات السنين ، بحيث نستطيع أن نطلق عليه : « عهد العوائل العلمية » .

وليس من غرض البحث ذكر هذه العوائل ، كما أنه ليس في الامكان ذكرها جميعاً لانها كثيرة ، والسبب الاخر هو أنني لا أُريد أن اذكر بعضها واهمل بعضا .. وان العلماء المتصلين ببحثي سيكشفون عن أسماء كثير من هذه العوائل .

(١)

وأول عالم من العلماء الذين أسهموا في حركة علوم القرآن ، في هذا العهد ـ الشيخ فخرالدين الطُريحيّ .

وهو ابن الشيخ محمد علي بن الشيخ أحمد بن الشيخ علي بن الشيخ أحمد بن الشيخ طُريح (بضم الطاء بزنة سُهيل) . واشتهر بالطريحي نسبة الى الشيخ طريح ، الذي ذكرناه في نسبه . ولد في النجف سنة ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م ، وتوفى في الرماحية سنة ١٠٨٥ هـ /١٦٧٤ م .

وفخرالدين الطريحى عالم وأديب وفقيه ومحدّث .

قال محقق كتابه « مجمع البحرين » ، في المقدمة : اذا قرأت كتابه غريب القرآن رأيته محدثاً متفننا في أنواع ما ورد عن النبي وآل بيته . واذا دققت النظر في كتابه الضياء اللامع وشفاء السائل ، وجدته فقيها

متضلعا في أنواع الفقه • واذا قرأت كتابه مجمع البحرين فانك ترى العجب من اطلاعه وتضلعه في الفنون الاسلامية المعروفة في عصره •

« وآل طريح » من البيوت العلمية العريقة في النجف ، نزحوا اليهـا في منتصف القرن السادس الهجري ••• ولهم مؤلفات مشهورة في مختلف العلوم والفنون ، ولايزال فيهم رجال من أهل العلم والادب •

أما مؤلفات الشيخ فخرالدين الطريحى المتصلة ببحثنا فهي :

١ ــ «ربيع الاخوان الموضح لكلمات القرآن» وفد أتمه سنة١٠٧٣هـ وتوجد منه نسـخة مخطوطة ، في خزانة جامعة مدينة العلم • وقد طبع فـي المطبعة الحيدرية بالنجف ، سنة ١٣٧٢ هـ /١٩٥٣ م ، تحت عنوان (غريب القـرآن) •

وهو كما يدل عليه اسمه في « ألفاظ غريب القرآن » وقد رتبه ترتيبا هجائيـاً •

وجعل كتاب « نزهـة القلوب في غريب القرآن » لمحمـد بن عُزيـز (ت ٣٣٠ هـ) ، أصلا ، واستعان بكتب اللغة كالصحاح « الذي أعجب بـه الشيخ فخرالدين ، وغير الصحاح •

٢ ــ كشف آيات القرآن • واسمه في كتاب : رياض العلماء : «كشف غوامض القـرآن » •

٣ ــ مشارق النور للكتاب المشهور • وهو تفسير مختصر ، ويعرف : بالمشارق الطريحية •

٤ ــ مجمع البحريـن •

واعتقد انه من أنفس كتبه واعمقها وأحسنها • طبع بدار الثقافـة في النجف ، سنة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ، بتحقيق السيد أحمد الحسيني • وهـو

أشبه بكتاب « الغريبين » للهَرَوي ّ • وقد أتـمّ تأليفه سـنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م •

قال في مقدمته : (لما كان العلم باللغة العربية مـن الواجبات العقليـة لتوقف العلوم الدينية عليه ، وجب على المكلفـين معرفته والالتفـات اليه ، وحيث لا طريق الى معرفة غير المتواتر منها سوى الآحاد المستفادة من التتبع والاستقراء ، مسّت الحاجة الى ضبط ماهو بالغ في الاتفاق حدا يقرب من الاجماع ويوثق به في الانتفاع ••••• ولما صُنّف في ايضاح غير الاحاديث المنسوبة الى الآل ، كتبٌ متعددة ، ولم يكن لاحد من الاصحاب مُصنَّفٌ مستقل موضح لاخبارنا ، مبيِّنٌ لآثارنا ، وكان جمع الكتب في كل وقـت متعبا ، وتحصيلها عن آخرها معجزاً معجبا ، ووفق الله المجاورة لبيته الحرام، وللحضرة الرضوية ، وظفرت هناك وهنالك بعدد عديد من الكتب اللغويـة كصحاح الجوهري ّ ، والغريبين للهروي ، والدر النثير ، ونهاية ابن الاثير ، وشمس العلوم ، والقاموس ، ومجمع البحـار المأنوس ، وفائـق اللغـة ، وأساسها ، والمجمل من أجناسها ، والمغرب الغريب ، وشرح النهج العجيب ، ونحوها من الكتب المرضية •••••• حداني ذلك على الشروع في تأليـف كتاب كافٍ شافٍ ، يرفع عن غريب أحاديثنا أستارها ، ويدفع عن غير الجليّ غبارها • ثم اني شفعته بالغرائب القرآنية والعجائب البرهانية ليتم الغرض من مجموعي الكتاب والسنّة ، لمن رام الانتفاع بهما ، ويتحصل المطلوب فيه من كل منهما • ثم اني اخترت لترتيبه من الكتب الملاح ما أعجبني ترتيبـه من كتاب الصحاح ، غير أني جعلت باب الهمزة والالف بابا واحدا ، ليكون التناول اسهل والانتشار أقل • وحين تم التأليف صببته في قالب الترصيف ، معلما لكل حرف من حروف الهجاء كتابا ، ولكل كتاب أبوابا •••) •

من هذه المقدمة نستنتج ما يأتي :

١ ـ ان الغرض من تأليف الكتاب سد الفراغ العلمي الـذي وجـده

المؤلف ، حين رأى أصحابه « الامامية » ليس لهم كتاب في «غريب الحديث» في حين رأى غزارة في التأليف ، عند غيرهم من علماء المسلمين ، « وان كان المؤمنون أمة واحدة » بنص القرآن الكريم ، « ان هذه امتكم امة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » (سورة الانبياء ، الآية ٩٢) .

٢ ــ ان منهجه الجمع بين غريبي القرآن والحديث .

٣ ــ انه رتب الكتاب ، على كتب بعدد حروف الهجاء (الثمانية والعشرين) ، لانه جعل الهمزة والالف كتابا واحدا .

٤ ــ انه جعل لكل كتاب أبوابا رتبها كترتيب كتاب الصحاح ، للجوهري .

(٢)

ويأتي بعده من الناحية الزمنية ، وليس الموضوعية ، العلامة : (عبدالله السويدي) . وهو ابن الشيخ حسين بن الشيخ مرعي بن الشيخ ناصرالدين العباسي البغدادي . ولد سنة ١١٠٤ هـ . وتوفى سنة ١١٧٤ هـ . وكان من علماء عصره المعدودين، ومن الادباء المبرزين، ومن النحاة المصنفين .

وصفه معاصره الاديب عثمان عصام العمري ، في الجزء الثالث من كتابه : الروض النضر في ترجمة أدباء العصر ، فقال : (مجرّة سماء العلوم ، ونور مرج المنثور والمنظوم .... صاحب الامثال السائرة ، والبديهة الغريبة النادرة .... رجل العراق ، وواحد الادب على الاطلاق ....) .

ووصفه العلامة محمود شكري الآلوسي ، في المسك الاذفر فقال : (كان شيخ المعارف وامامها ، والآخذ بيد زمامها ، فبماذا أصفه وقد بهر ، وبدا فضله كالصبح اذا أسفر ...) .

وقد أسهم في حركة التفسير ، وان كان سهمه في الادب وفير .

وله بعض الاقوال في التفسير ، مذكورة في مخطوط محفوظ بمكتبة الاوقاف العامة ببغداد ، عنوانه : « تفسير واعراب بعض الآيات القرآنية » .

وليس الكتاب له وحده ، بل يشركه فيه « صبغةالله الحيدري » . وهما متعاصران .

(٣)

أما صبغة الله الحيدري فهو وأبوه وجده من العلماء الذين أسهموا في الدراسات القرآنية .

ذكرهم ابراهيم فصيح الحيدري في « عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد » . فقال عن صبغة الله (شيخ مشايخ العراق وخاتمة المحققين) . وذكر والده « ابراهيم بن حيدر » وان له تفسيرا في مجلدين « جمع فيه الظاهر والباطن » .

وكان حيا سنة ١١٥١هـ ، كما جاء في مسودة كتابه : «ملهمات ربانية» .

وذكر جد صبغةالله : « أحمد بن حيدر » وان له رسالة كبيرة ، في تفسير قوله تعالى : (الله نور السموات والارض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ....) . ووصفها بأنها (رسالة مفيدة جامعة لدقائق لطيفة) .

ويهمنا منهذه الدوحة الكريمة : صبغةالله بن ابراهيم بنحيدر الثاني .

ترجمه ياسين بن خيرالله العمري في « غاية المرام » ، فقال : (علامة العلوم ، وحبر الفهوم ، من بيت علم وعمل ، وزهد وعفاف وتقوى وانصاف. أخذ عنه العلم جميع العلماء المعاصرين له ، في الموصل وبغداد . وهو من قرية « ماوران » ، ورحل الى بغداد واستوطنها . توفي سنة ١١٨٧ هـ) .

وصفه صاحب « عنوان المجد » ، فقال (علامة الدنيا على الاطلاق الذي وقع على جلالة قدره الاتفاق ... كان قوى العربية كامثال سيبويه ، وفي التفسير كأمثال الزمخشري ....) .

وله في علوم الكتاب العزيز :

١ ــ تفسير واعراب بعض الآيات القرآنية وهو رسالة في (٢٤) ورقة ، محفوظة بمكتبة الاوقاف العامة ببغداد (تحت رقم ٣٧٩٧/٣ مجاميع) .

ومن الامثلة التي توضح منهجه في التفسير في هذه الرسالة :

أ ــ تفسير قوله تعالى : « ان كان قميصه قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فصدقتْ وَهُوَ مــن الكاذبين . وان كان قميصه قُدَّ مــن دُبُرٍ فكذبت وهو مــن الصادقين » . (سورة يوسف . الآيتان : ٢٧ ــ ٢٨) .

قال صبغةالله : (الظاهر أن دلالة كل من الشقين على مادل عليه مــن حيث موافقته لما ادعاه صاحبه ، فانهــا كانت تقول : هــو طلبني مقبلا عليّ فخلصتُ نفسي عنه ، بالدفع والضرب . وهو يقول : هي الطالبة لي ففــررت منها فتبعتني وجذبت ثوبي فقدته . فوقوع الشق في شق الدرع يدل علــى كونه مدبرا عنها ، لا مقبلا عليها ، وعكسه على عكسه ، بلا شبهة) .

ب ــ تفسير : «انّا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مُستمرّ» (سورة القمر . الآية ١٩) .

قال : (اختار رجوع المستكنّ ــ ويريد به الضمير المســتتر ــ الــى الشؤم دون اليوم لعدم استقامة اسناد الاستمرار حقيقة الى اليوم ، اكثر من المدة المعينة ، الا اذا أريد منه نحو الحين ، مجازا ، وهو خلاف الظاهر) .

ومن هذين المثالين يبدو أن منهجه يعتمد على بيان النكــت العقليــة والنحوية في بعض الآيات ، فهذه الرسالة أشبه بالتعليقات والنكت ...

وله كتاب آخر ينحو فيه هذا المنحى ، وهو :

٢ ــ حاشية على « أنوار التنزيل واسرار التأويل » وتوجد منه نسخة خطية محفوظة في مكتبة جامعة السليمانية (رقمها ٢١٤/١) ، في (٣٤٨ ص) .

كتبها : أحمد بن محمد سنة ١١٩٧ هـ ــ ١٧٨٢ م ، تتضمن القسم الاول والثاني من الحاشية .

(٤)

ومن تلاميذ « صبغةالله الحيدري » المشهورين : محمد أمين بن خيرالله الخطيب العمري ، ولد في الموصل الحدباء سنة ١١٥١ هـ .

وفي سنة ١١٧٨ هـ ، سافر الى بغداد ، ودرس على الشيخ « صبغةالله الحيدري » ، وحصل على اجازة .

وكان خطيب الجامع العمري ــ في الموصل ــ سنة ١١٨٠ هـ ، ووالده حيّ . وتلك سمة من سمات النبوغ . وهو في هذا مثل ابي بكر محمد بن القاسم الانباري (المتوفى ٣٢٨ هـ) ، الذي جلس في حلقة علمية خاصة ، ووالده مازال يدرس .... فلله دَرُّ هؤلاء !!

وفي سنة ١٢٠٣ هـ ، انتقل الى جوار ربه . وله في علوم القرآن كتابان :

١ ــ حدائق الزهر والريحان في البيان عن بلاغات القرآن .

جعله خمسة اقسام : كل قسم سماه حديقة . وتحت كل قسم مباحث : كل مبحث سماه زهرة . والاقسام هي :

الحديقة الاولى : في حقيقة القرآن ومجازه . وفيه أزاهر .

الحديقة الثانية : في تشبيه القرآن . وفيه أزاهر .

الحديقة الثالثة : في استعارات القرآن .

الحديقة الرابعة : في كنايات القرآن

الحديقة الخامسة : في حصره واختصاصه .

٢ ــ تيجان البيان في مشكلات القرآن :

وهو في ثلاثة أقسام ومقدمة وخاتمة . وتعد الخاتمة قسما قائما بذاته . أما أقسامه فهي :

القسم الاول : نبذة من مشكلات معانيه .

القسم الثاني : نبذة من مشكلات متشابهه وبيان محكمه .

القسم الثالث : مشكلات اعرابه .

أما الخاتمة فهي في غريبه ، وما أنزل فيه بغير لهجة قريش .

(٥)

ومن علماء الموصل أيضا اسماعيل بن عبدالله بن أحمد بن محمد حمودة الموصلي . كان حيا سنة ١٢٠٤ هـ . وله : « الانوار اللائحة في تفسير الفاتحة » .

ويوجد مخطوطا في مكتبة الاوقاف بالموصل (تحت رقم ٢/٨) ، في (٢٩ ورقة) .

(٦)

وجاء بعده العالم حسن باشا بن حسين باشا الجليلي (المتوفى سنة ١٢٣٣ هـ/١٨٢١ م) .

وهو مؤلف كتاب يعد طريفا في بابه في هذا العهد الذي نكتب عن الحركة العلمية فيه . وهو في ترتيب آيات القرآن الكريم ، وفهرستها ، وسماه : « ترتيب حسن » . وقد رتب فيه كتاب « الجامع لآي القرآن وكلماته » الذي ألفه الوزير « عبدالله باشا » ، ترتيبا جديدا ، اذ كان « كتاب الجامع » مرتبا ترتيباً غريبا ، وكانت ارقامه فلكية بحساب البروج ، والدقائق على طريق الجمّل الكبير . وفيه تقديم وتأخير في ترتيب الآيات ، بحسب السور والاجزاء .

وجاء ترتيبه الجديد على وفق المنهج الآتي :

١ ــ جعل ترتيب الآيات حسب ترتيب السور في المصحف الشريف .

٢ ــ جعل الارقام هندية بدلا من الارقام الفلكية . (لانه المشهور بين الجمهور . وعليه العمل في كل مصر وناحية ، وهو المأثور ...) ، على حد تعبير المؤلف . وقد جاء فيه أن :

أ ــ آيات القرآن الكريم (٦٦٦٦) آية ؛

ب ــ وان كلماته (٧٢٤٣٥) ، كلمة .

ج ــ وان حروفه (٣٢٢٣٧٢) ، حرفا .

استغرق تأليفه أربع سنوات من سنة ١١٩٧ هـ الى سنة ١٢٠١ هـ .

وقد قال في آخر مقدمته : جاء تأريخه سنة احدى بعد المائتين (وألف) ونظمت بيتا للتاريخ الاول لانه في ضمن أبيات اول الابتداء الذي وقع فيه ذلك الاختراع والانشاء ، وهو قولي :

حمداً لوهّاب المِنَنْ جلا الرزايا والمحن
رتّبْتُ فيه كتابه كالدرّ جاء على سَنَنْ
كنزٌ أتى تاريخه ها انّ ترتيبي حَسَنْ

وتوجد منه نسخة بمكتبة المتحف العراقي (برقم ٥٩٤٣) وعليها كان اعتمادي ، في هذه الدراسة .

وتوجد منه نسخ أخرى بمكتبة الاوقاف في الموصل . وأهمية كتابه تتجلى في أمرين :

الاول : انه في طليعة المؤلفين في فهارس القرآن الكريم ، بالارقام العربية . فهو بهذا أسبق من المستشرق الالماني فلوجل في كتابه : « نجوم

الفرقان في أطراف القرآن » الذي طبع لاول مرة سنة ١٨٤٢ م/١٣٥٤ هـ واسبق من كتاب « المعجم المفهرس » ، لمحمد فؤاد عبدالباقي ، بدلالة .

الآخر : انه في طليعة المؤلفين في احصاء آيات القرآن الكريم وكلماته وحروفه ، في العصر الحديث .

(٧)

ويليه العالم المقرىء الشيخ محمد أمين بن سعدالدين الذي كان حياً في الموصل سنة ١٢٤٠ هـ . وقد أخذ عنه القراءات :

الشيخ الحاج عثمان الحيائي بن سليمان باشا (ت ١٢٤٥ هـ) و داود باشا والي بغداد (ت بالمدينة المنورة سنة ١٢٦٧ هـ) والشيخ محمد أمين الحافظ بن الشيخ عبدالقادر الحافظ (كان حيا سنة ١٢٤٠ هـ) .

وله رسالة في قواعد التجويد ، وهي منظومة اسمها « بهجة الناظر » وعدد أبياتها (٧٢٥) بيتا .

وتوجد منها نسخة مخطوطة في مكتبة المدرسة الاسلامية بالموصل . مكتوبة سنة ١٢٤٠ هـ .

(٨)

وختام المسك في هذا العهد

الشيخ محمد معروف بن مصطفى بن أحمد النودهي البرزنجي الشهرزوري المتوفى سنة ١٢٥٤ هـ ـ ١٨٣٨ م .

ويظهر أنه من القراء المختصين بالاداء والتجويد وله في علم التجويد رسالتان :

الاولى هي : « القول السديد والنمط الجديد في رسم القرآن والتجويد » .

وتوجد منها نسخة مخطوطة في المكتبة المركزيــة بجامعة صلاح الدين (السليمانية) ، رقمها ٢/٢٧٥ ، في خمس صفحات .

والاخرى : اسمها : « فتح المجيد في قواعد التجويد » . وتوجد منها نسخة مخطوطة بمكتبة الاوقاف المركزية في السليمانية . رقمها : ت/مجاميع/ ٦٠٧٠٦٠٣ ، في ست ورقــات .

علوم القرآن الكريم في العهد العثماني الاخير من سنة ١٢٤٧ ـ ١٣٣٤هـ

هذا العهد هو المرحلة الاخيرة في رحلتنا العلمية الطويلة الشاملة ، من سنة ٦٥٦ هـ ، نسجل مآثر علماء هذه الامة العظيمة في ميدان علوم القرآن الكريم في العــراق .

(١)

برز في هذا العهد العلامة « أبو الثناء شهاب الدين محمود بــن السيد عبدالله أفندي الآلوسي . يعد أبو الثناء الآلوسي عنوان هذا العهد ، وحامل لواء التفسير فيه ، وقطبه الذي دار عليه .

ولد أبو الثناء الالوسي في أسرة تتسم بالعلــم والصلاح والتقــوى (سنة ١٢١٧ هـ / ١٨٠٢ م) ، في جانب الكــرخ ببغــداد ، وكان أبــوه « عبدالله » مدرسا في مدرسة جامع أبي حنيفة النعمان . ومدرسة الشهيد علــي .

وبدأ الآلوسي يحفظ القرآن الكريم منذ صغره . واخذ يحفظ المتون المشهورة في عصره ، وهو ابن خمس سنين .

ثم أخذ يتنقل بين مجالس علماء عصره ، يأخذ عنهم لكن اكثر اساتذته أثراً في ثقافته استاذه الشيخ علاء الدين الموصلي . قرأ عليه في مدرسة عاتكة

خاتون الكيلانية ، ببغداد . وقد قال عنه في غرائب الاغتراب : (ولم أزل عنده أستنشق شيحه ورنده ، الى أن تخرجت به ، وتأدبت بأدبه) .

وقرأ الحديث على الشيخ علي السويدي (المتوفى بدمشق سنة ١٢٣٧ هـ /١٨٢١ م) .

واخذ التصوف عن الشيخ ضياءالدين الشيخ خالد النقشبندي ، واخذ علم التفسير وجميع العلوم العقلية والنقلية ، (اجازةً) عن الشيخ يحيى العمادي .

وفي سنة ١٢٣٨ هـ/١٨٢٣ م ، اجازه استاذه علاءالدين الموصلي ، في المدرسة الخاتونية . وكان يوما مشهودا حضره علماء بغداد .

واشتغل ــ بعد اجازته العلمية ــ بالتدريس في مدارس مسجد القمرية، وجامع مرجان ، وجامع السيدة نفيسة . وكان يدرس في اليوم أربعة وعشرين درساً .

ولما أبتدأ بتأليف تفسيره الجليل : « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » سنة ١٢٥٢ هـ ، اصبحت دروسه ثلاثة عشر درساً ، يوميا . وانتهى منه سنة ١٢٦٧ هـ .

وقد طبع لاول مرة ببولاق بمصر سنة ١٣٠١ هـ ، وطبع بعد ذلك طبعات أخرى . منها طبعة دار الفكر ببيروت (سنة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨) . وعليها كان اعتمادي في هذه الدراسة .

❋ خصائص منهج (روح المعاني)

اذا أردنا أن نصف منهج تفسير ابي الثناء الالوسي : « روح المعاني » فان أحسن ما نصفه به أنه (المنهج التكاملي) .

وكان لكل مفسر قبله منهج خاص . فالزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، يهتم

بالبيان والمعاني والاساليب ، في القرآن الكريم • والرازي (ت ٦٠٦ هـ) يهتم بالقضايا المنطقية والكلامية والعلمية • ومجموعة من المفسرين الصوفيين كالقشيري ، يهتمون بالتفسير الاشاري والباطني • ومنهم من يركز على مسائل النحو وقضايا اللغة والقراءات ، كابي حيان الاندلسي (ت ٧٤٥ هـ)• ومنهم من يهتم بالتفسير المدعم بالحديث النبوي الشريف كالحافظ ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) ، وهكذا دواليك •

أما أبو الثناء الالوسي فقد « أخذ من كل منهج بطرف » يلائم وجهة نظره وينسجم مع شخصيته العلمية ، بحيث لا يتحيز لاحد ، ولا يأخذ من الآراء الا مايراه صحيحا (من وجهة نظره) •

ويمكن تلخيص منهجه بالنقاط الآتية :

أولا : يوضح معاني الآيات ودلالتها معتمدا على صحيح اللغة ومشهورها ، ويتوسع في قبول الفصيح ولا يرفضه حتى لو خالف الافصح• ويظهر هذا الاتجاه ليس في التفسير حسب ، بل في كتابه (كشف الطرة عن الغرة) • وهو في شرح « درة الغواص » للحريري (ت ٥١٦ هـ) ، ونقده •

ثانيا : أما في النحو فيتوسع في بعض المواضع توسعا ، يخرجه من باب التفسير والتوضيح والبيان لغوامض الآيات ، الى التوسع النحوي الذي يشعر القارىء بأن الحديث في النحو وليس في التفسير •

ففي حديثه عن الآية ٨١ من سورة آل عمران ، وهي قوله تعالى : (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة •••) ، ذكر آراء النحويين والمعربين للقرآن فاستغرق حديثه صفحتين (روح المعانى ١/٢١٠)•

ويبدى في اثناء هذا الحديث النحوي ثقافة واسعة في معرفة آراء النحويين ومذاهبهم النحوية ، لكنه لا يتعصب لاحد ، ولا يستمسك الا بالرأي الذي يراه صوابا • وتلك سمة العلماء •

ثالثا : أما من النواحي البلاغية فيتعرض للمجاز والكناية والاستعارة بنوعيها ، ويتحدث عن أساليب الاستفهام ، وغيرها .

ويستفيد ــ في هذا الميدان ــ ممن سبقه ، كالزمخشري وابي السعود : محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢ هـ) ، صاحب التفسير المسمى : « ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم » .

رابعا : ويبدو أثر التفسير الاشاري والصوفي واضحا في تفسير « روح المعاني » . وابو الثناء يظهر ميلا واضحا الى تفسير قسم من الآيات الكريمة تفسيرا اشاريا ولاسيما « البسملة » (بسم الله الرحمن الرحيم) . حتى يصبح لكل حرف معنى . وهذا من أثر التفسير الاشاري لها . وقد خصها المتصوف المعروف عبدالكريم الجيلي سبط الشيخ عبدالقادر الجيلي قدس الله سره ، بكتابه واسم كتابه : « الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم » . وهو مطبوع بالهند سنة ١٣٤٠ هـ .

ولا يكتفي أبو الثناء بميله الى الاتجاه الاشاري والصوفي بل يرد على من ينكر هذا الاتجاه ، فيقول : « لا ينبغي لمن له أدنى مسكة من عقل ، بل أدنى ذرة من ايمان أن ينكر اشتمال القرآن على بواطن يفيضها المبدأ الفياض على بواطن من شاء من عباده » (روح المعانى ١/٧) .

خامسا : ويمثل الاتجاه الحديثي في التفسير لبنة اساسية في تفسير روح المعاني . ويبدو أبو الثناء محيطا بعلم الحديث حين يفسر الآيات التي وردت فيها أحاديث عن النبي المختار صلى الله عليه وسلم أو آثار عن الصحابة والتابعين . لكنه لا يأخذها كما جاءت ، بل ينتقد الضعيف منها .

(ينظر : روح المعاني ٢/٨٠ ، ١٥٢ ، ٩/١٠٧ ــ ١٠٨) .

سادسا : وعندما يفسر آيات الاحكام يبين آراء الفقهاء في المسألة ،

واكثر مايشير الى رأي الاحناف ثم الشافعية ، وقليلا مايشير الى مذهب مالك . ويقدم رأي أبي حنيفة لانه المذهب الرسمي للدولة العثمانية .

سابعا : أما موقفه من القراءات فيمكن اجماله بثلاثة امور : الاول : انه لا يلتزم بقراءات محددة كالسبعة ، ولا العشرة . والآخر : انه يأخذ بأية قراءة وردت عن امام من ائمة القراء المعروفين ، كالحسن البصري ، والاعمش ، ويروى كثيرا من قراءات الصحابة كزيد بن ثابت وأبيّ بن كعب ، وعمر بن الخطاب ، وغيرهم . الثالث : انه يرد على كل من ينكر قراءة ثابتة ، كالزمخشري الذي يرفض بعض القراءات .

وقد ترك أبو الثناء الآلوسي آثارا أخرى في الادب والبلاغة وادب الرحلات . وتوفى سنة ١٢٧٠ هـ /١٨٥٤ م .

(٢)

ومن بعده يأتى الشيخ ابراهيم فصيح بن صبغةالله بن أسعد بن عبيدالله الحيدري الشافعي .

ولد ببغداد سنة ١٢٣٥ هـ ، وتوفى بها سنة ١٢٩٩ هـ (أو ١٣٠٠ هـ) .

وهو من عائلة عراقية كردية نبغ فيها جماعة من العلماء الراسخين في علم القرآن والفقه ، أشهرهم « صبغة الله » .

وقد ألف كتابا في التفسير عنوانه : (فصيح البيان في تفسير القرآن) . بقي الجزء الاول منه، مخطوطا فيمكتبة الاوقاف ببغداد (تحت رقم ٢٣٢٢) .

وفي مقدمة تفسيره تحدث عن اساتذته الذين أخذ عنهم العلوم العقلية والنقلية ولاسيما الذين علموه التفسير والقراءات . ثم أخذ يفسر آيات الكتاب الحكيم ، مبتدئا « بالبسملة » .

ويمكن تلخيص منهجه في التفسير بالنقاط الآتية :

أولا : يهتم بالتفسير اللغوي اهتماما واضحا ، ويبسط في ذلك القول . ففي تفسير (الرحمن الرحيم) يقول : (الاول أبلغ من الثاني لان فعيلا لمن كثر منه الفعل ، وفعلان لمن كثر منه التكرار ، على ما صرح به أئمة اللغة . وقول البيضاوي : « لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى » ، غير منتقض بحذر الذي هو أبلغ من حاذر ، لان ماذكره أغلب ، على أنه لم تقع المبالغة في حذر لنقص الحروف ، بل لالحاقه بالامور الجبِلّية ، كالفهم ، لان ذلك فيما اذا كان اللفظان المتلاقيان في الأشتقاق ، متحدي النوع في المعنى ، كالرحمن والرحيم ، فانهما بمعنى اسم الفاعل ، بخلاف حذر وحاذر ، فان الاول صفة مشبهة والثاني اسم فاعل ... الخ) .

ثانيا : يهتم بالقراءات ، ويقف منهما موقف القبول ولا يفضل قراءة على قراءة مادامت القراءتان صحيحتين . قال في تفسير « مالك يوم الدين » في سورة الفاتحة : (وقرىء ملك . والقراءتان متواترتان ، فقول البيضاوي « وهو المختار » ، غير حسن . قال ابو شامة (المقدسي) : اكثر المصنفون في الترجيح بين هاتين القراءتين ، وليس بمحمود بعد ثبوت القراءتين ،وصحة اتصاف الربّ بهما) .

ثالثا : يهتم بالنحو والبلاغة وتوجيه الآيات او قسم منها هذه الوجهة . وكثيرا ما يمزج بينهما . ففي تفسير قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين)، يقول : (الحمدُ لله جملة اخبارية لفظا ، انشائية معنى ، يقصد بها انشاء تعظيم الله تعالى . ويجوز أن تكون اخبارية معنى لان الاخبار بالحمد وصف بالجميل على ما قيل ، فهي في ألسنة العباد كالتسمية . وحقيقة الحمد اظهار صفات الكمال . والاكثر على أن المدح أعم منه . يقال : مدحتُ اللؤلؤة على صفاتها ، ولا يقال مدحتها . واللام للجنس او للاستغراق او للعهد . وفي « لله » للملك ، او للاستحقاق ، او الاختصاص . والمحققون على أنهما للاستغراق ، لأنّ الحكم على الحقيقة بدون الافراد قليل ...) .

(٣)

ويليه السيد عبدالحميد أحمد الحديثي . وقد ألف كتابا في التجويد عنوانه : « سبعة أبواب في علم التجويد » . وتحتفظ المكتبة المركزية بجامعة البصرة بنسخة خطية منه ، مكتوبة سنة ١٣٠١ هـ (تحت رقم ٢) ، في عشر ورقـات .

(٤)

وللسيد معزالدين محمد المهدي بـن السيد حسن الحسيني الحلـي النجفي (المتوفى سنة ١٣٠٠ هـ /١٨٨٣ م) ثلاثة كتب في التفسير ذكرهـا صاحب كتـاب (الذريعة) . وهي :

١ ـــ تفسير سورة الاخلاص . (أي : قل هو الله أحد ...) .

٢ ـــ تفسير سورة الفاتحة .

٣ ـــ تفسير سورة القدر (أي : سورة انّا انزلنا في ليلة القدر . وهـي السورة السابعة والتسعون) .

(٥)

وختم المسك في هذا البحث الفقيه العالم : ابراهيم بن محمد الغراوي النجفي (المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ /١٨٨٧ م) . وله : مجموعة في التجويد والشعر والحساب ذكرها صاحب « معجم المؤلفين »

المـراجـع والمصـادر

الالوسي ، محمود بن عبدالله ابو الثناء

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم . بيروت ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م .

الالوسي ، محمود شكري

المسك الاذفر في مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر. بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ م .

البغدادي ، اسماعيل باشا

ـ ايضاح المكنون عن اسامي الكتب والفنون . استانبول ١٩٤٧

ـ هدية العارفين . اسطنبول ١٩٥١ .

الجبوري ، عبدالله .

فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد . بغداد ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ م

الجزري ، ابـن .

غاية النهاية في طبقات القراء . القاهرة ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م .

الجنابي ، احمد نصيف

ملامح من تاريخ اللغة العربية . بيروت ١٩٨١ .

حاجي خليفة ، مصطفى بن عبدالله .

كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون . استانبول ١٣٦٠ هـ/١٩٤١ م.

الحنبلي ، عبدالحي بن العماد

شذرات الذهب في أخبار من ذهب . ط . القدسي ١٣٥١ هـ .

الحيدري ، ابراهيم فصيح

عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد . بغداد ١٩٦٥ م .

الخطيب ، عبدالمجيد
توضيح أصول قواعد الشفع في نشر علم القراءات السبع . الموصل ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

الداودي
طبقات المفسرين . القاهرة ١٣٩٢ هـ /١٩٧٢ م .

السخاوي ، شمس‌الدين محمد
الضوء اللامع لاهل القرن التاسع . ط . القدسي ١٣٥٣ هـ .

السلامي ، محمد بن رافع :
منتخب المختار . بغداد ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م .

الصفار ، ابتسام مرهون
معجم الدراسات القرآنية . الموصل ١٩٨٤ .

عبدالحميد ، محسن
الآلوسي مفسرا . بغداد ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م .

العسقلاني ، احمد بن علي
ـ الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة . ط . ثانية القاهرة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م .
ـ انباء الغمر بأبناء العمر . القاهرة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م .

الغزي ، نجم‌الدين محمد بن محمد
الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة . بيروت ١٩٧٩ م .

النقشبندي ، أسامة ناصر
مخطوطات الامانة العامة للمكتبة المركزية في جامعة السليمانية . السليمانية ١٩٨٠ م .

المبحث الثاني
علوم الحديث النبوي الشريف

د. قحطان عبد الرحمن الدوري

كلية الشريعة ـ جامعة بغداد

قدمنا فيما سبق لمحة يسيرة عن جهود المحدثين العراقيين الجليلة السخية ، منذ عصر صدر الاسلام وبعده لما تسلمت بغداد زعامة العالم حين كانت مركز الخلافة ووردها العلماء من كل حدب وصوب ، فأثمرت جهودهم على النحو الذي رأيناه ، وبلغت الغاية .

وقد وقفنا عند نهاية الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م حين كانت الحوادث المروعة والدواهي المفزعة التي كانت من أمرّ فترات التاريخ وأشدها تأثيرا في ايقاف عجلة الحضارة .

لكن لم تكن نهاية الخلافة العباسية وغزو المغول للعراق على الرغم من مرارته قد ترك العراق يبابا بلقعا ، فان الناظر في الكتب يرى ان جهود المحدثين ـ كسائر العلماء ـ لازالت ثرة لا تنضب ، وان مسيرتهم العلمية لم تتوقف ، وان كانت لم تبلغ ما بلغته قبل السقوط ، وسببه فيما يظهر : ان علم الحديث قد استقرت اسسه ودونت كتبه في القرون الاولى ، فلم يبق في عصر ما بعد السقوط الا الدوران في فلك المتقدمين .

وهنا نعرض تلك الجهود من احتلال بغداد ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م الى زمن الحرب العالمية الاولى ١٣٣٣ هـ /١٩١٤ م ، استكمالا للبحث المتقدم ، من غير بيان المراد من العناوين والمصطلحات ، اكتفاء بما بينته هناك وخشية التكرار الممل .

شهدت هذه الحقبة اهتماما وافرا من لدن من تبقى من محدثي العراق ومن تلاهم من الاعلام في مجال دراسة الحديث النبوي الشريف ، فوضعوا عددا من الكتب المهمة في الاحاديث المتواترة ، وفي الاحاديث الموضوعة ، والضعيفة . كما وجدت الاصول التي كتبها مؤلفون عراقيون في الحقب السابقة اهتماما بالغا من قبل العلماء العرب والمسلمين في هذه الحقبة ، حيث وضعوا حواشيهم ومختصراتهم على تلك الاصول اعترافا منهم بأهميتها في مجالات خدمة الحديث الشريف . فألف حامد بن علي بن ابراهيم العمادي المتوفى سنة ١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م كتابه « الصلوات الفاخرة في الاحاديث المتواترة » ووضع مرتضى الزبيدي الحسيني الواسطي المتوفى بمصر سنة ١٢٠٥ هـ /١٧٩٠ م كتابا في الموضوع نفسه سماه « لقط اللآلىء المتناثرة في الاحاديث المتواترة » وكتب محمود بن نسيب الشهير بابن حمزة الحنفي المتوفى بدمشق سنة ١٣٠٥ هـ /١٨٨٧ م كتاب « الاحاديث المتواترة » .

اما في مجال الموضوعات من الاحاديث ، فقد كتب زين الدين عبدالرحيم ابن الحسين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م كتابه « الباعث على الخلاص من حوادث القصاص » وقد وجد هذا الكتاب عناية من لدن مؤلفين في عهود لاحقة ، فلخصه جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م واستدرك عليه في كتابه الذي سماه « تحذير الخواص » ، وللسيوطي كتاب « اللآلىء المصنوعة في الاحاديث الموضوعة » الذي اختصر فيه كتاب عالم عراقي نابه آخر ، هو ابن الجوزي اختصارا يسره لابناء عصره ،

بقربه من تناولهم ، وله على نفس المؤلف العراقي ، ابن الجوزي « النكت البديعيات على الموضوعات » وهو تعقيبات عليه •

ومن كتب الاحاديث الضعيفة في هذه الحقبة ، ماكتبه مجدالدين ابـي طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ /١٤١٤ م تحت عنوان « الاحاديث الضعيفة » في مجلدات عدة • ولوليالدين ابـي زرعـة أحمد بن عبدالرحيم العراقي المتوفى سنة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م كتاب « ماضعف من أحاديث الصحيحين والجواب عنه » •

كتب الاربعـين

ولم تعدم هذه الحقبة ظهور عدد من الكتب التي جمع فيهـا اصحابهـا اربعين حديثا نبويا حذوا فيها حذو السابقين في وضع كتب الاربعين المشهورة ، وخرجوها ، وكان للاربعين حديثا التي جمعها الخليفة المستعصم بالله ، آخر خلفاء بني العباس ببغداد ، معنى خاصـا في نفوس العلمـاء العـرب المهتمين بالحديث ، فخرج ابن جامة عبدالمؤمن خلف الدمياطي المتوفى سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م هذه الاحاديث • ووضع علماء عراقيون مصنفات في هذا الضرب من الفنون الحديثية، منهم يوسف بن محمد العبادي الحنبلي المتوفى سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤ م في كتابه « الاربعون الصحيحة فيما دون أجر المنيحة » ووضع ابـو زرعة وليالدين أحمد بن عبدالرحيم العراقي المتوفى سنة ٨٢٦ هـ /١٤٢٢ م كتابه « الاربعون في الجهاد بدون الاسناد » وللمقداد السيورى الحلي المتوفى سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م كتابا في الاربعين حديثا، ووضع ابن الجزري شمسالدين محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م كتابا في هذا المجـال اختار احاديثه مما هو أصح وأفصح وأوجـز • ولابراهيم بـن الحسن الكوراني الشهرزوري المتوفى سنة ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م « اللوامـع اللآلى في الاربعين العوالـي » •

وللشيخ فخرالدين بن محمد علي ابـن طريح النجفـي المتوفى سـنة ١٠٨٥ هـ / ١٦٧٤ م كتابا في الموضوع نفسه • ولمرتضى الزبيدي المذكور آنفا كتاب « الاربعين المختلفة فيما ورد من الاحاديث في ذكر عرفة » •

ومن المصنفات التي وضعت في الاحاديث المسلسلة في هـذه الحقبة ، ما كتبه ابو زرعة وليالدين احمد بن عبدالرحيم العراقي المتوفى سنة ٨٢٦ هـ/ ١٤٢٢ م بعنوان « المسلسل بالاولية » ، ومحمد بن محمد الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م فيكتابه « عقد اللآلي فيالاحاديث المسلسلة بالعوالي » ولمرتضى انزبيدي الواسطي اكثر من كتاب في هذا المجال ، منها « التعليقة الجليلة على مسلسلات ابن عقيلـة » و «المرقاة العلية في شـرح الحديـث المسلسل بالاولية » و « الاسعاف بالحديث المسلسل بالاشراف » ، يعنـي حديث لا اله الا الله حصني •

ومن المحدثين العراقيين الذين صنفوا في فن « غريب الحديث » محمد بن محمد الموصلي الشافعي (كان حيا سنة ٧٧٠ هـ/١٣٦٨ م) فقد ألف كتابـاً في هذا الفن الدقيق سماه « لوامع الأنوار في نظم غريب الموطأ ومسـلم » • ومنهم يوسف بن محمد العبادي الحنبلي البغدادي المتوفـى سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م في كتابه « نظم الغريب » • ونال كتاب ابن الاثير الجزري « النهاية في غريب الحديث » عناية جلال‌الدين السيوطي فوضع له تذييلا ، كما ألف فيه مختصرا بعنوان « الدر النثير مختصر نهاية ابن الاثير » • ولفخرالديـن ابن محمد الطريحي النجفي المتوفى سنة ١٠٨٥ هـ /١٦٧٤ « غريب الحديث للخاصـة » •

وفي الامالي ، كتب يوسف بن محمد العبادي البغدادي الحنبلي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م كتابه « عقود اللآلي في الامالي » ووضع زين‌الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ هـ /١٤٠٣ م اماليه ، وهي تنوف عن اربعمائة مجلس • وقال عنه تلميذه ابن حجر : شـرع في امـلاء

الحديث من سنة ست وتسعين وسبعماية فأحيا الله به السنة بعد ان كانت داثرة ، فاملى اكثر من اربعمائة مجلس غالبها من حفظه متقنة مهذبة محررة كثيرة الفوائد الحديثية . ولولده ولي‌الدين ابي زرعة المتوفى سنة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م ما ينوف على ستمائة مجلس من الامالي .

واستحوذت تفاصيل علم الحديث ، من العوالي والنوازل والاطراف والاجزاء والسداسيات والسباعيات والثمانيات على اهتمام جمع من المحدثين العراقيين ، فوضعوا فيها رسائل وكتبا سارت في الآفاق ، منهم محمود بن ابي بكر بن العلاء البخاري الفرضي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ /١٣٠٠ م الذي قال عنه الذهبي انه : كتب العالي والنازل وجمع وخرج وعنى بهذا الشأن عناية تامة ، ومنهم محمد بن علي ابن الصابوني المتوفى سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨١م في كتابه « التحفة في اجزاء الحديث » ومجدالدين ابي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ/١٤١٤ م في كتابه « الدر الغالي في الاحاديث العوالي ».وجمع ابو زرعة ولي‌الدين العراقي المتوفى سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢ م الاوهام التي وقعت في كتاب الأطراف للمزي في كتابه المعنون « الاطراف بأوهام الاطراف » .

وجمع علي بن بلبان بن عبدالله الناصري المتوفى سنة ٦٨٤ هـ /١٢٨٥م ما وقع له سداسيا من حديث مالك بن أنس في خمسة اجزاء سماها « فوائد المقتبس » . وجمع علي بن انجب الخازن البغدادي الشهير بابن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤ هـ /١٢٧٥ م «الاحاديث الثمانية الغالية في الثمانية العالية» كما جمع يوسف بن محمد العبادي البغدادي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ /١٣٧٤ م الثمانيات من الاحاديث النبوية . اما زين‌الدين عبدالرحيم العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ هـ /١٤٠٣ م فقد جمع التساعيات والعشاريات ، وكل منهما أربعون حديثا .

الجمــع بين الكتب الحديثية والاحاديث

وبرز جماعة من فضلاء المحدثين من اهل العراق في مجالات الجمع بين الكتب الحديثية ، وبين الاحاديث ، منهم ابراهيم بــن اسماعيل البغــدادي المتوفى سنة ٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م في كتاب الفه على طريقة جامع الاصول لابن الاثير • وصنف الحسن بن يوسف الحلي المتوفى ســنة ٧٢٦ هـ /١٣٢٥ م كتاب « مصابيح الانوار » جمع فيه احاديث جملة مــن العلماء ورتبه علــى فنون وابواب ابتدأ فيه بما روي عن النبي ثم عن غيره من الائمة ، وله ايضا جامع الاخبار او مجامع الاخبار في الحقل نفسه •

وصنف علي بن محمد بن ابراهيم الخازن البغــدادي المتوفى ســنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م كتاب « مقبول المنقول » اضاف فيه الى جامع الاصول مسند الامام احمد وسنن ابن ماجة وسنن الدارقطني • كما وضع علي بــن محمد الموصلي الشافعي ابن الدريهم المتوفى سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م « نفع الجدوى في الجمع بين احاديث العدوى » • ولابي العلاء ادريس بن محمد الفاسي العراقي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م « الدرر اللوامع في الكلام على احاديث جمع الجوامع » تكلم فيه على احاديث « جمــع الجوامــع » للسيوطي بالصحة والحسن وغيرهما لكنه لم يكمل كتابه •

ومن العراقيين المتأخرين الذين عنوا بهذا المجال ، عبدالله شبر المتوفى سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م في كتابه « جامع الاحكام » وعبدالكريم بن عباس الازجي الشيخلي الصاعقة المولود سنة ١٢٨٥ هـ /١٨٦٧ م والمتوفى ســنة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ في كتابه « الجمع بين الاحاديث » •

وألف مجدالدين محمد بــن يعقوب الفيروزآبادي ، المذكور آنفــاً ، زوائد على جامع الاصول لابن الاثير سماها « تسهيل طريق الوصول الــى الاحاديث الزائدة على جامع الاصول » في اربع مجلدات ، صنفه للناصر ولد الاشرف صاحب اليمن • وللسيوطي ذيل على هذا الكتاب لم يكمله •

الشـــروح :

اهتم المحدثون العراقيون في هذا العصر في شـرح الحديـث النبوي الشريف باعتباره ركناً من اركان التشريع بعد القرآن الكريم ، فألفوا فيـه الكتب و الرسائل التي نمت على دقة فهمهم ، وعمق دراسـتهم لاصـول الحديث وفروعه ومدلولاته ، والكتب التي وصلتنا في هـذا المجـال كثيرة جدا ، ويمكننا ان نذكر منها :

شرح الاربعين النووية لنجم الدين سليمان بن عبدالقوي الطوخي الحنبلـي المتوفى سنة ٧١٠ هـ/١٣١٠ م . وشرح عمدة الاحكام لعلاء الدين علي بـن محمد بن ابراهيم الشافعي الخازن البغدادي المتوفى سنة ٧٤١ هـ/١٣٤٠ م . والكواكب الدراري في شرح الجامع الصحيح للبخاري لمحمد بن يوسـف الكرماني البغدادي الشافعي المتوفى سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٤ م. وشرح ابن رجب البغدادي الحنبلي المتوفى سـنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م على جامـع الترمذي وعلل الترمذي ، وقطعة من صحيح البخاري والاربعين النووية وجامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ، واختيار الاولى في شرح حديث اختصام الملأ الاعلى .

كما شرح غياث الدين محمد بن محمد الواسطي المتوفى سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤ م مصابيح السنة للبغوي . واكمل زين الدين عبدالرحيم العراقي شرح الترمذي لابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ/١٣٣٣ م اضافة الى شـرحه تقريب الاسانيد وترتيب المسانيد الذي اكمل شرحه بعده ولده ابو زرعـة احمد وسماه (طرح التثريب في شرح التقريب) وشرح ابو زرعة كذلـك سنن ابي داود وكتب منه سبع مجلدات . وله كذلك شرح الاربعين النووية الذي سماه (الجواهر البهية) .

وشرح صحيحي مسلم والبخاري يحيى بن محمد بن يوسف الكرماني البغدادي المتوفى سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩ م ووضع القاضي محب الدين احمد بن

نصرالله البغدادي المتوفى سنة ٨٤٤ هـ/١٤٤٠ م نكت على التنقيح شـرح الزركشي على البخاري ووضع احمد بن اسماعيل بن محمد الكوراني المتوفى سنة ٨٩٣ هـ /١٤٨٧ م كتاب (الكوثر الجاري على رياض البخاري) رد فيه كثيراً من المواضع على الكرماني وابن حجر وبين مشكل اللغات •

كما الف عبدالله بن سالم بن محمد البصري المحـدث المتوفى سـنة ١١٣٤ هـ /١٧٢١ م كتاب (الضياء الساري على صحيح البخاري) ويقع في ٣ مجلدات وشرح صحيح البخاري كذلك عبدالله بـن حسين بـن مرعـي السويدي البغدادي المتوفى سنة ١١٧٤ هـ/١٧٦٠ م وعبدالله بن محمد بن عبداللطيف الراوي البغدادي المتوفى بعد سنة ١١٩٢ هـ /١٧٧٨ م •

وشرح عبدالقادر بن عبدالله العبدلاني الشهرزوري المتوفـى سـنة ١١٧٨ هـ / ١٧٦٤ م الجامع الصحيح للترمذي •

ومن شروح كتب الحديث : النخبة في حل مشكلات صحيح الامـام البخاري لمحمد امين البغدادي المدرس المتوفى سـنة ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ م • والكوكب المنير شرح مناوي الصغير لعلي بن محمد سعيد السويدي المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢١ م وشرح اربعين حديثا من صحاح الاحاديث النبويـة للسيد محمد حامد الآلوسي وشرح اربعين حديثا مختارة من الصحاح الست في الاحكام والادب والاجتماع لعبدالوهاب النائب العبيدي المتوفى سـنة ١٣٤٥ هـ/١٩٢٦ م والنزهة البهية في شرح الاربعين النووية للشيخ قاسم بن احمد القيسي المتوفى سنة ١٣٧٥ هـ /١٩٥٥ م وللشيخ عبدالسلام الشـواف مدرس الحضرة القادرية المتوفى سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م شرح حديث جبريل •

ومن العراقيين الذين عنوا باختصار كتب الحديث ، محمد بـن ابراهيم الكوراني الشهرزوري المتوفى سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م في كتابه « منتخب كنز العمال في سنن الاقوال والافعال » ومحمد بن احمد العمـري الموصلي المتوفى سنة ١١٩٩ هـ/١٧٨٤ م في كتابه « المنتخب من كتب السنة » •

كتب التخريج

ونال « التخريج » وهو أحد فنون علم الحديث المهمة ، جانباً من عناية العلماء العراقيين في هذا العصر ، ووضعوا فيه غير قليل من التصانيف المهمة ، منها ما وضعه زين الدين عبدالرحيم العراقي في « تخريج احاديث كتاب احياء علوم الدين للغزالي » الذي سماه « المغني عن حمل الاسفار في تخريج ما في الاحياء من الاخبار » وقد ضمن جميع هذا الكتاب مرتضى الزبيدي في شرحه لكتاب احياء علوم الدين المسمى « اتحاف السادة المتقين في شرح احياء علوم الدين » كما وضع زين الدين العراقي كتباً اخرى في تخريج الاحاديث التي يشير اليها الترمذي ، ومنهاج الاصول للبيضاوي ، والاحاديث التي تكلم عليها بالوضع وهي من مسند الامام احمد ، والاحاديث المخرجة في الصحيحين التي تكلم فيها بضعف او انقطاع . ولولده ولي الدين احمد تخريج احاديث الكشاف . كما وضع ادريس بن محمد العراقي الفاسي كتابا سماه « موارد أهل السداد والوفا في تكميل مناهل الصفا » وخرج احاديث الشهاب القضاعي .

وألف محمد امين السويدي رسالة ضمت ٢٧١ حديثا ليس له أصل (موضوع) ذكرت في احياء علوم الدين للغزالي سماه « الاعتبار في حمل الاسفار » . ووضع مرتضى الزبيدي عدة كتب في جمع طرق بعض الاحاديث مثل « العروس المجلية في طريق حديث الاولية » و « العقد الثمين في طرق الالباس والتلقين » و « عقيلة الاتراب في سند الطريقة والاحزاب » .

مصطلح الحديث

وتناول المحدثون العراقيون ، فيما تناولوا من فنون علم الحديث ، مصطلح الحديث بالتأليف والتفصيل والتقعيد والشرح ، بما يعد اكمالا واستمرارا لتلك القلادة النفيسة من المؤلفات التي وضعها السلف من العلماء والمحدثين . فمن كتب في هذا المجال ، زين الدين عبدالرحيم العراقي في كتبه

« التقييد والايضاح فيما اطلق واغلق من كتاب ابن الصلاح » و « شــرح تقريب الارشاد » للنووي ، ونظم الدرر في علم الاثر الذي شرحه بشرحين مطول ومختصر ، ونظم الاقتراح لابن دقيق العيد وقد نظمــه في ٤٢٧ بيتاً ، والذي شرحه ابنه ابو زرعة احمد وسماه «شرح نظم الاقتراح» ولمجدالدين الفيروزآبادي ارجوزة في المصطلح ، كما ان عزالدين أبا البركات عبدالعزيز الحنبلي البكري البغدادي المتوفى سنة ٨٤٦ هـ/١٤٤٢ م وضع كتابا هــو « الفنون الجلية في معرفة حديث خير البرية » وكتب محمد بن بابا رسول البرزنجي المدني المتوفى سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩١ م شرحا على الفية مصطلح الحديث . ووضع محمد مرتضى الزبيدي كتابا في الموضوع نفسه ، وسماه « بلغة الاريب من مصطلح آثار الحبيب » .

وعنى جماعة من العراقيين من اهل الحديث في نظم وشرح « نخبة الفكر في مصطلح اهل الاثر » لابن حجر العسقلاني بوصفه احد المتون المعتمدة في علم مصطلح الحديث ، منهم محمد معروف النودهي البرزنجي المتوفى سنة ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨ م في « عقد الدرر نظم نخبة الفكر » ويقع في ٢١٠ أبيات، وابراهيم فصيح الحيدري البغدادي المتوفى سنة ١٢٩٩ هـ/١٨٨١ م في كتابه « اعلا الرتبة في شرح نظم النخبة » والسيد محمود شكري الآلوسي المتوفى سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م في « عقد الدرر شرح مختصر نخبة الدرر » .

ووضع الشيخ طه بن احمد السنوي المتوفى في حدود سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م رسالة في اصطلاحات الحديث ، كما كتب الشيخ عبدالكريم بن عباس الأزجي الشيخلي كتاباً كبيراً جامعا لفنون المصطلح سماه « أصول الحديث » وكتابا آخر في اختلاف الحديث .

وللشيخ قاسم بن أحمد القيسي المتوفى سنة ١٣٧٥ هـ /١٩٥٥ م رسالة في مصطلح الحديث .

بيان حال الرواة وضبط اسمائهم

حذا العلماء العراقيون في هذه الحقبة حذو أسلافهم في العناية بتدقيق سير الرواة وضبط اسمائهم وكناهم والقابهم وتوثيق رواياتهم واسانيدهم ، فوضعوا العديد من الكتب الحديثية الخاصة بهـذا الشـأن نذكر منهـم ابا المحاسن محمد بن علي الحسيني المتوفى سنة ٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م الـذي وضع كتابه « الاكمال بمن في مسند احمد من الرجال ممن ليس في تهذيب الكمال » وكتابه « التذكرة في رجال العشرة » اقتصر فيه التهذيب وحذفه منه من ليس في الستة واضاف اليهم من في المسند والموطأ ومسند الشافعي ومسند ابي حنيفة للحارثي . وتعليقه على ميزان الاعتدال للذهبي الذي يبين فيه كثيراً من الاوهام واستدرك عليه عدة اسماء . قال ابن حجر : وقفت على قدر يسير منه قد احترقت اطرافه لما دخلت دمشق سنة ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م. ومنهم وليالدين أبو زرعة العراقي الذي وضع عدة كتب في هذا المجال هي « تحفة التحصيل فيذكر رواة المراسيل » و « البيان والتوضيح لمن خرج له في الصحيحوقد مس بضرب من التجريح» و «الذيل على الكاشف» للذهبيواضاف اليه رجال مسند احمد . ومنهم محمد بن محمـد الجزري المتوفى سـنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م الذي الف كتاب « القصد الاحمد في رجال مسند احمد » وكتاباً آخر بعنوان « تكملة ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والاسانيد » . كما وضع ادريس بن محمد العراقي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م كتاب « فتح البصير في التعريف بالرجال المخرج لهم في الجامع الكبير » للسيوطي ، ووضع مرتضى الزبيدي كتاب (الفية السند ومناقب اصحاب الحديث) ومن الكتب التي وضعت لبيان حال المدلسين من الرواة (اخبار المدلسين) لولي الدين العراقي . ومن كتب الاسانيد او المتون الذي وضعت في هذه الحقبة نذكر ما ألفه وليالدين ابو زرعة العراقي المتوفى سنـة ٨٢٦ هـ /١٤٢٢ م وهو « المستفاد من مبهمات المتن والاسناد » الذي رتبه على الابواب الفقهية

ليسهل الكشف منه على من اراد ذلك ، واورد فيه جميع ما ذكره الخطيب وابن بشكوال والنووي مع زيادة عليهم وهو احسن ما صنف في هـــذا الموضوع . وكتابه الاخر « المهمات في الاســماء المبهمة الواقعــة في متون الاحاديث والاسانيد » .

مواضيع حديثية متنوعة

اضافة الى ما ذكرناه من الجوانب المختلفة التي تناولها اعلام رجــال الحديث في العراق في هذه الفترة فان هنالك العديد من التآليف وضعت في مواضيع حديثية اخرى بحيث لم يبق جانب من جوانب علــوم الحديث الا ووضعت فيه العديد من التآليف ومن الكتب الحديثية المتنوعة ما وضــعه عبدالرحمن بن عبدالمحسن الواسطي الشافعي المتوفى سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م وهو كتاب « اللؤلؤة في الحديث » و(المقرب في محبة العــرب) لزين الدين العراقي . وما وضعه عبدالعزيز بن علي البكري البغــدادي المتوفى ســنة ٨٤٦ هـ/١٤٤٢ م وهو كتاب (الفنون الجلية في معرفة حديث خير البرية) . و « القمر المنير في احاديث البشير النذير » كما وضــع ابراهيم بن الحسن الكوراني الشهرزوري المتوفى سنة ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م كتاب مسالك الابرار الى احاديث النبي المختار . وعثمان بن يوسف الموصلي الخطيب المتوفى سنة ١١٤٦ هـ/١٧٣٣ م وضع كتاب الصلاة على النبي المختار الملتقط من الاحاديث والآثار . والكتب التي ألفها محمد بن احمد بن علي العمري الموصلي المفتي المتوفى سنة ١١٩٩ هـ / ١٧٨٤ م في هذا المجال : « ازهار المؤمنين من كلام سيد المرسلين » و « الجوهرة العمريــة في الصــلاة والسلام على الحضــرة المصطفوية» و «سعادة الدارين في الصلاة والسلام على سيد الكونين» . والف يوسف بن عبد الجليل الحنفي الموصلي الكردي المتوفى ســنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م كتاب (الاستشفا بأحاديث المصطفى) . والف خالد بــن احمــد

النقشبندي المتوفى سنة ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م كتاب (جلاء الاكدار والسيف البتار بالصلاة على النبي المختار) .

وقد وضع محمد معروف بن مصطفى النودهي البرزنجي المتوفى سنة ١٢٥٤ هـ /١٨٣٨ م عدة مؤلفات في هذا الجانب هي : « اوثـق العرى في الصلاة والسلام على خير الورى» و «تنوير الضمير في الصلوات المشتملة على اسماء البشير النذير» و «تنوير العقول في احاديث مولد الرسول (ص) و «تنوير القلوب في مديح حبيب علام الغيوب » و « الجوهر الاسنى في الصلاة المشتملة على اسماء الله الحسنى » و « عقد الجوهر في الصلاة والسلام على الشفيع المشفع في يوم المحشر» و «كشف الاسف في الصلاة والسلام على سيد اهل الشرف » و « الفتح الالهي في الصلوات المشتملة على المناهي » .

المشـيخة وثبوت الرجـال

وقد صنفت فيها العديد من التآليف في هذه الفترة منها :

مشيخة عبدالعزيز بن عبدالقادر الربعي ت سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢م ، خرجها له ابو الفداء اسماعيل بن ابراهيم الشارعي في ثلاثة اجزاء وحدث بها.

ومشيخة احمـد بن عدالدائم المقدسي البغـدادي ت سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م تخريج الحافظ ابي العباس بن الظاهري ، وخرج ابن الظاهري ايضا للشيخ نجم الدين عبداللطيف بن عبدالمنعم بن علي الحنبلي الحراني البغدادي ت سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م مشيخة كبيرة وموافقات وابدالا" في اربعة اجزاء، ومصافحات في جزأين والمعجم باسماء الشـيوخ الذين اجازوا له في سـبعة اجزاء . وخرّج له الشريف عزالدين احمد بن محمد الحسيني مشيخة لطيفة وثمانيات .

ومشيخة ابن الساعي علي بن انجب ت سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م بالسماع والاجازة في عشر مجلدات •

وخرّج علي بن بلبان الناصري المشرف البغدادي ت سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م مشيخة للشيخ شمس الدين وللتاج بن الحيولي وللفخر بن البخاري، ولنفسه الموافقات ، وخرج ايضا لدانيـال بـن منكلى بن صرفا التركماني مشيخة ، وحدث بها قرأها عليه الفراري •

وخرّج المحدث ابو عبدالله محمد بن سعد الدين يحيى بن سعد للشيخ علي بن محمد بن ممدود البندنيجي البغدادي مشيخة بالسماع والاجـازة وحدث بها •

وسوّد محمود بن ابي بكر بن ابي العلاء البخاري الفرضي ت ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م لنفسه معجما ، قال ابن رافع : استفدت منه كثيرا •

وخرّج عبدالمؤمن بن خلف الدمياطي ابن الجامة البغدادي ت سـنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م تخاريج عديدة منها معجم شيوخه عن الف شيخ وثلاثمائة• قال المزّي : ملرأيت في الحديث احفظ منه •

ومشيخة شعبان بن ابي بكر بن عمر الاربلي ت سنة ٧١١هـ /١٣١١م ، خرج له ابن الظاهري مشيخة حدث بها بدمشق •

وخرّج عبدالمؤمن بن عبدالحق بن عبدالله البغدادي الحنبلي ت سنة ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م لنفسه مشيخة بالسماع والاجازة فيها نحو مائتي شـيخ وثمانين شيخاً ، اسمها منتهى اهل الرسوخ في ذكر من اروي عنه من الشيوخ•

ومشيخة محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن ابراهيـم الجزري توفى بواسط سنة ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م ، خرجها له البرزالي من عشرة من المشايخ •

ومشيخة الحديث لابي المحاسن الدمشقي محمد بن علي ت سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٣ م .

ومشيخة تقي الدين ابن رافع السلامي ت سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢ م خرج للشيخ محمد بن ابراهيم ، وذيلها الحافظ زين الدين عبدالرحيم ابن الحسين العراقي ت سنة ٨٠٦ هـ

وثبت عبدالله فخري الدين زاده الموصلي ت سنة ١١٨٨هـ / ١٧٧٤ م .

وثبت الشيخ محمد امين السويدي ت سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م .

وثبت الشيخ يحيى المروزي العمادي الكردي ت سنة ١٢٥٢ هـ/١٨٣٦م.

★ ★ ★

المصادر والمراجع

ابو زرعة ، وليالدين أحمد
طرح التثريب في شرح التقريب ، والمتن لعبدالرحيم العراقي ، حلب، ١٣٥٣ هـ/١٩٢٤م .

الاثري ، محمد بهجة
اعلام العراق ، القاهرة ١٣٤٥ هـ /١٩٢٦ م .

الاعظمي ، وليد الخطاط
مدرسة الامام ابي حنيفة . بغداد ١٩٨٥ .

الآلوسي ، محمود شكري
المسك الأذفر في تراجم علماء بغداد في القرن الثاني عشر والثالث عشر . ج ١ ، بغداد ١٩٣٠ .

الآلوسي ، علي علاءالدين بن نعمان
الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر، تحقيق جمالالدين الآلوسي ، وعبدالله الجبوري . بغداد ١٩٦٧.

البغدادي ، اسماعيل باشا
ـ ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون . استانبول ١٩٤٥ .
ـ هدية العارفين في اسماء المؤلفين وآثار المصنفين . استانبول ١٩٥١ .

البيطار ، عبدالرزاق
حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر . تحقيق محمد بهجة البيطار . دمشق ١٩٦١ ـ ١٩٦٣ .

الجبوري ، عبدالله .
فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد . بغداد ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ .

حاجي خليفة ، مصطفى بن عبدالله
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . استانبول ١٩٤١ .

لحلي ، الحسن بن علي
الرجال . تحقيق وتقديم محمد صادق آل بحر العلوم . النجف ١٩٧٢ .

لحلي ، الحسن بن يوسف
الرجال . تحقيق وتعليق محمد صادق آل بحر العلوم . النجف ١٩٦١ .

لحنبلي ، عبدالحي بن العماد
شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، بيروت ، طبعة مصورة .

لخطيب ، محمد عجاج
أصول الحديث ، علومه ومصطلحه . بيروت ط ٢ ، ١٩٧١ .

الخونساري ، محمد باقر
روضات الجنات في احوال العلماء والسادات ط ٢ ، طهران طبعة حجرية ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧ م .

الدروبي ، ابراهيم
البغداديون أخبارهم ومجالسهم ، بغداد ١٩٥٨ .

الديوه‌جي ، سعيد
تاريخ الموصل . ج ١ ، بغداد ١٩٨٢ .

رؤوف ، عماد عبدالسلام
الآثار الخطية في المكتبة القادرية في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، بغداد ١٩٧٤ — ١٩٨٠ .

السامرائي ، يونس ابراهيم
تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري . بغداد ١٤٠٢ هـ .

السباعي ، مصطفى بن حسني
السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ، القاهرة .

السخاوي ، شمس‌الدين محمد بن عبدالرحمن
الضوء اللامع لاهل القرن التاسع . بيروت طبعة مصورة .

السلامي ، محمد بن رافع
ـ تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار . صححه عباس العزاوي بغداد ١٩٣٨ .
ـ الوفيات . تحقيق صالح مهدي عباس . بيروت ١٤٠٢ هـ .

الشوكاني ، محمد بن علي
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . القاهرة ١٣٤٨ هـ/١٩٢٩ م

الطوسي ، ابو جعفر محمد بن الحسن
الفهرست . النجف ط ٢ ، ١٩٦٠ .

الطهراني ، آقا بزرك
الذريعة الى تصانيف الشيعة . طهران

العراقي ، عبدالرحيم بن الحسين
شرح التبصرة والتذكرة . فاس ١٣٥٤ هـ /١٩٣٥ م .

العسقلاني ، احمد بن علي
الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة . حيدر آباد الدكن ١٩٧٢ ـــ ١٩٧٦ .

العمري ، محمد أمين بن خيرالله
منهل الاولياء ومشرب الاصفياء . تحقيق سعيد الديوهجي . الموصل ١٩٦٧ ـــ ١٩٦٨ .

الغزي ، نجم الدين محمد بن محمد
الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة . تحقيق جبرائيل سليمان جبور . بيروت ط ٢ ، ١٩٧٩ .

الغلامي ، حسين بن محمد
أصحاب بدر أو المجاهدون الاولون . تحقيق محمد رؤوف الغلامي ، بغداد ١٩٦٦ .

الكتاني ، محمد بن جعفر
الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة ، دمشق الطبعة الثالثة ، ١٩٦٤ .

المحبي ، محمد أمين بن فضل‌الله
خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر . القاهرة ١٢٨٤ هـ .

المدرس ، عبدالكريم محمد
علماؤنا في خدمة العلم والدين بغداد ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ .

المرادي ، محمد خليل بن علي
سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . بولاق ١٣٠١ هـ/١٨٨٣ م .

معروف ، ناجي
ـــ تاريخ علماء المستنصرية . بغداد ١٩٥٩
ـــ مدارس واسط . بغداد ١٩٦٦ .

الواعظ ، مصطفى نورالدين
الروض الازهر في تراجم آل السيد جعفر ، الموصل ١٩٤٨ .

البحث الثالث

الفقه واصوله

٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م – ١٣٣٣ هـ/١٩١٤ م

د. محيي هلال السرحان

كلية الشريعة – جامعة بغداد

مقدمـــة

يذهب بعض المهتمين بتتبع تاريخ الفقه وأصوله وتطورهمـا على مر العصور ، الى اعتبار الحقبة الزمنية الواقعة بين احتلال المغول بغداد سـنة ٦٥٦هـ المصادفة ١٢٥٨م واحتلال الانكليز لها سنة ١٣٣٣ هـ المصادفة ١٩١٤م حقبة « مظلمة » ، متأثرين ببعض المؤرخين وبعض مؤرخي الأدب ، يعنون بذلك ما أصاب البلاد العربية الاسلامية عامة ، والعراق خاصة ، من فتور وتراخ فتأخرت نتيجة لاحتلال الغزاة لها ، ولنشـوب الاضطرابات فيهـا وحصول الانقسامات بين اقطارهـا ، فكانت ضعيفة في بنيتها العسكرية ، متأخرة في حياتها الاجتماعية والثقافية ، نتيجة لذلك ، وبالغ بعضهم في ذلك فجعل الجهل يسيطر عليها ؛ فهي « مظلمة » لعدم وجود العلوم فيها ، وأطلق ذلك الحكم ليشمل جميع جوانب الحياة الفكرية ، ومنها الفقه وأصوله ..!

ولئن صدق ذلك على أوضاع بعض العلوم ، فان البحث في تاريخ الفقه

وأصوله لهذه الحقبة الزمنية الطويلة بصـــورة تفصيلية ، ينفي ذلك ، ولا يؤيـــده :

فان الباحث في حقيقة هذين العلمين ، مستعرضاً تطورهما في ظلال الدولة العربية الاســلامية ، وتاريخها الطويــل ، مدققــا في مسائلهما التفصيلية ، وجزئياتهما ، يتجلى له أن الفقه يعني الحياة بعرضها وطولها في ظل تلك الدولة التي قامت على أسس تشريعات ذلك الفقه ، وحكمت بها قرونا طويلة ، فالفقه هو استنباط أحكــام شرعية لكل صغيرة وكبيرة تستجد في تلك الحياة في حادثاتها الكثيرة ، وواقعاتها المتنوعة ، مأخوذة من الأدلة الشرعية .

ولما كانت الحادثات كثيرة غير منحصرة ، بل هي دائمة التجدد ، فالاحكام الفقهية كثيرة غير منحصرة ، وغير متوقفة عن النمو ، بل هي دائمة التجدد أيضاً ، لتجدد تلك الحادثات ، وهي في نمو مطرد وتوسع دائم ، إذ لم تبق الحياة على وتيرة واحدة ، كما كانت عليه ، زمن أصحاب المذاهب وتلاميذهم، بل تطورت تطوراً كبيراً ، سواء أكان ذلك التطور سلبا أم إيجابــا ، فمهمة الفقيه إعطاء الحكم الشرعي لهذه التطورات التفصيلية ، مستمدا من الأدلة الشرعية ، وهذا يعني مزيدا من سن التشريعات الفقهية في ضوء القواعــد الأصولية من تلك الأدلة ، ولهذا كثرت كتب الفتاوى التي تناولت مســائل لم يتعرض لها أصحاب المذاهب ولا تلاميذهم ولا تلاميذ تلاميذهم ، بل لم يتعرض لها أحد قبل أصحابها قط ، وبقيت العملية مستمرة على مدى الدهور حتى العصر الاخير ، وهذا يعكس الخصوبة الفكرية لهذه الحقبة ، على عكس ماهو متوقع ، بل لم يزدها سوء الحالة الاجتماعية واضطراب الحالة السياسية إلاّ نمواً وحركة ، لايجاد الاحكام الشرعية لما استجد من تلك الحوادث .

هذا الى جانب قيام الأمة العربية الاسلامية بمهمتها الانسانية في مشارق الأرض ومغاربها وعلى الأخص في العراق بحمل مشعل الثقافة والحضــارة

والعلوم الانسانية بأمانة واخلاص وأوصلتها الى الأجيال اللاحقة ولاسيما التشريعات الفقهية والقواعد الأصولية ، لكون الغزاة الذيـن تناوبوا على حكم تلك الأمة خصوصاً من تناوب منهم على حكم العراق ، من المغول ، والتركمان ، والفرس ، والقبائل العثمانية ، لم يكونوا في أصولهم أهل علم وحضارة ، يكتسحون الأمة العربية الاســلامية ، ويصهرونهــا بحضارتهم وعلمهم ؛ بل كانوا قبائل « همجية » ليس لها نصيب مــن العلم والمعرفة ، يخشى على الحضارة والعمران في البلاد العربية الاسلامية ولاسيما في العراق، من طغيان تلك « الهمجية » ، فتندرس معالم تلك الحضارة التي كانت حصيلة قرون عديدة ، وتنمحى ثمار العلم والمعرفة ، فتصبح أثراً بعد عين •

لكننا نجد أن الحضارة العربيــة الاسلامية صهرتهم فأثرت فيهــم ، فاقتبسوا منها ماوجدوه فيها مــن روعة التنظيمات ، وبارع التشكيلات ، وعميق المعارف والثقافات ، وعريق العمران والحضارات ، ودقيق التشريعات، حتى دخلوا في عقيدتها طائعين مختارين مقتبسين احكامها الفقهية ، وقواعدها الأصوليــة •

فان لم يكن للأمة العربية الاسلامية الا حمل الرسالة الثقافية والحضارية، وذخائر العلوم والفنون ، وحفظها ، ثم نقلها بأمانة الى الأجيال اللاحقة ، وهي تقاوم تحديات الكفر والجهالة ، والهمجية لكفاها ذلك فخراً ، فكيف الحال، ونحن نجد في العراق وحده وفي هذه الحقبة على الأخص ، العدد الهائل من العلماء والادباء والفقهــاء والمحدثين والمفسرين ، واللغويين ، والمؤرخين ، والجغرافيين ما يتمرد على الحصر ، وفي كتب التراجم والتاريخ العام الدليل على ذلــك •

فلا يصح اطلاق لفظة « مظلمة » على هذه الحقبة ، ولاسيما في حقل تاريخ الفقه وأصوله ، الا اذا اعتبرنا أنها « مظلمة » لا نملك من المصابيح ماينير لنا الطريق لدراستها ؛ إذ لــم تتوفر المصــادر والوثائق التفصيلية ،

لتكشف لنا ما فيها من ذخائر، فما يزال كثير من مؤلفات الفقهاء فيها مخطوطاً، أو مجهولا ، او ضائعاً ، ولقد اقترح استاذنا الدكتور حسين علي محفوظ في احدى الندوات ان تسمى هذه الحقبة بالحقبة « المظلومة » لا « المظلمة ».

فاذا توضح ذلك فإلى أي مدى أسهم الفقهاء ، والاصوليون من العراقيين في توسيع حركة التشريع ، وازدهار الدراسات الفقهية والأصولية في هذه الحقبة الزمنية الطويلة ؟

العراق موئل الفقهاء والمحدثين حتى بعد النكبة

ظل العراق موئل العلماء والادباء والمؤرخين ، والفقهاء والمحدثين ومرجع طلاب العلم والمعرفة على الرغم من حدوث النكبة في بغداد على أيدي التتار ، ففي الوقت الذي حدثت فيه النكبة وما بعدها ، وعلى الرغم من شدة الوقعة وهولها وفظاعتها ، نجد الرحلة مستمرة الى بغداد طلباً للتفقه ، وطلبا للرواية ، واستزادة من العلم والأدب في مدارسها ، وعلى أيدي شيوخها ، ومحدثيها ومؤرخيها في أوج النكبة وطغيان موجتها ؛ كالذي فعله أحمد بن عبدالدائم بن نعمة مسند الشام زين الدين ابو العباس المقدسي الحنبلي (المتوفى ٦٦٨ هـ) في رحلته الى الموصل وبغداد (العبر للذهبي : ٥/٢٨٨) ، والنجيب عبداللطيف بن عبدالمنعم بن الصيقل ، أبو الفرج الحراني الحنبلي مسند الديار المصرية (المتوفى ٦٧٢ هـ) إذ رحل الى بغداد (العبر : ٥/٢٩٨) والشيخ شمس الدين ابن العماد المقدسي الحنبلي قاضي القضاة أبو بكر بن ابراهيم (المتوفى ٦٧٦ هـ) الذي رحل الى بغداد وسكنها وظل يدرس فيها الى أن تحول الى مصر في أخريات أيامه (العبر : ٥/ ٣١١) وابن الصيرفي المفتي المعمر جمال الدين أبو زكريا يحيى بن أبي منصور بن أبي الفتح بن رافع الحراني الحنبلي ، ويعرف بابن الحبيشي (المتوفى ٦٧٨ هـ) (العبر : ٥/ ٣٢٢) وابن خلكان قاضي

القضاة شمس الدين ابو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر الإربلي الشافعي (المتوفى ٦٨١ هـ) الـذي تفقـه بالموصـل ، (العبر : ٥/٣٣٤) ، ومحمد بن عبدالمؤمن بن أبي الفتح الصوري شمس‌الدين أبو عبدالله الصالحي (المتوفى ٦٩٠ هـ) (العبر : ٥ / ٣٧٠) ، وابن العديم ، الصاحب جمال الدين ابو غانم محمد بن الصاحب كمال‌الدين عمر بن أحمد العقيلي الحلبي الفرضي الكاتب (المتوفى ٦٩٤ هـ) (العبر : ٥ / ٣٨٤) .

وغيرهم ، بل نحن نشوّه الصورة اذا رحنا نعدد أصـحاب الرحلة في طلب التفقه وفي طلب الرواية ، فان اعدادهم كبيرة جدا ، وقد ظلت مدارس العراق القائمة تدفع بوجبات من طلبتها الى الحياة العملية في العراق وفي البلدان العربية .

مسيرة الحركـة الفقهيـة ومعاهدهـا

لئن كانت المذاهب الفقهية قد توضحت معالمها واستقرت قواعدها في‌العصر الذهبي ، فصار لكل مذهب قواعده الاصولية التي لا يحيد عنها ، نجـد الحركة الفقهية في العراق ماضية في طريقها ، مؤدية لدورها التشريعي الملائم لكل حادثة مستجدة ، بايجاد الاحكام الشـرعية لها ، استنباطاً من الأدلة الشرعية التي هي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والاجماع والقياس أو الاجتهاد وسائر المصادر التشريعية الاخرى في ضوء الضوابط والقواعد الاصولية والفقهية التي وضعها أئمة المذاهب وفصلها تلاميذهم ومن سار على منهجهم ممن أتوا بعدهم .

ولئن أفتى بعض الفقهاء بسد باب الاجتهاد ، لتجرؤ من ليس من أهله بالاقدام عليه ، فالفقه لم يتوقف في مسيرته ، وانما بقى يساير الحياة المتجددة بحادثاتها ، يتفاعل معها ، ويؤثر فيها ، واستمرت مدارسه تؤدى مهمتهـا التشريعيـة فلم تعطل المدارس عمومـا وان اضطربت الحيـاة السياسـية

والاجتماعية في البلاد[1] : فكانت خدماتها كبرى وفوائدها عظمى في تخرج وجبات كبيرة من الفقهاء والمحدثين والعلماء .

هذا الى جانب المساجد الكثيرة والربط والخانقاهات التي وقفت عليها الوقوف الكثيرة .

ولاشك ان هذه المدارس والمؤسسات كانت مادتها الاساسية الفقه وأصوله مما ساعد على استمرار توهج المسيرة الثقافية وتواصل نمو الدراسات الفقهية والاصولية وازدهارها في العراق طيلة هذه الحقبة الزمنية الممتدة على طول ستة قرون ...

فعلى الرغم من الاضطرابات السياسية والاجتماعية لم تتعطل المؤسسات العلمية عن مهمتها هذه ، اذ بقيت ادارات المدارس مثلا مع الاحتلال المغولي (من سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م الى ٧٣٨ هـ / ١٣٣٨ م) مودعة كما يقول العلامة عباس العزاوي « الى علماء العراق ، وغالب أيامها مودعة الى قاضي القضاة او صدر الوقوف ينظر فيها وفي المعاهد الخيرية والدينية ... ولم يستول على اوقافها غيرهم فيتولّى ادارتها وتعهد اليه صدارة الوقوف إلاّ مدة يسيرة ، ومن هذا ايضا لم يهمل شأنها ولا أودعت الى من هو غريب عن الملة الاسلامية او أجنبي عنها ... ولم يؤثر في سيرها ضياع الكتب وبعض المكتبات واحراقها او نقلها الى مراغة ، فقد بقيت فيها بقية تسد الحاجة ، كما لم يؤثر في سيرها كون الحكومة اجنبية ولا انتقال مركز تلك الحكومة من بغداد الى أماكن اخرى ، فقد كانت تلك المدارس تقوم بواجبها دون حاجة الى مناصرة من حكومة ، اذ تعتمد تلك المدارس على أوقاف المسلمين ، فلم يتعرض لها الغزاة بل بعد ان دخلوا في الدين الاسلامي ناصروها وأيدوا مركزها ، ومع هجرة بعض الفقهاء أيام الواقعة لم يفقد

---

(١) انظر عن هذه المدارس الفصل الخاص بـ « التربية والتعليم » .

العراق مزاياه بذهابهم ، وانما تمكن في مدة يسيرة من استعادة مجده العلمي والثقافي ، ولم يقف عند مؤسساته القديمة أو بقاياها ، وانما أسس معاهد جديدة ... » (العراق بين احتلالين ١/٤٤٤ ـــ ٤٤٥) .

عمل الفقهاء والاصوليين في هذا العصر

يتلخص عمل الفقهاء والاصوليين في هذا العصر في نقطتين أساسيتين :

الاولى : صيانة التشريع الاسلامي من الاضمحلال :

فقد قام الفقهاء والاصوليون في هذا العصر بصيانة التشريع الاسلامي من الاضمحلال والضياع ، في عهد واجهوا فيه تحديات صعبة ، إذ توالى على الحكم في العراق غزاة متجبرون ، طغاة متعسفون ، بعيدون عن الاسلام وأهله ، ولاسيما في حكم المغول ومن على شاكلتهم ، اذ كانوا أول أمرهم قبائل همجية كما قلنا ، لا يعرفون من الحضارة والتشريع والتمدن الا شيئاً بدائياً ، ولا همّ لهم الا بتثبيت حكمهم وتقويته ، فاذا ما اهتموا بعلم أو فن فانما يكون ذلك لحاجتهم الى مايقوي بأسهم ونشر سطوتهم ؛ كاهتمامهم بالامور العسكرية وبعض الامور التطبيقية والموسيقية وغير ذلك .

فعلى الرغم من تغلب هؤلاء المتغلبين وغيرهم ، كانت الاحكام في العراق عموماً تسير في الظاهر وبصورة رسمية على وفق ما يقتضيه الفقه الاسلامي من العمل بموجب ماينص عليه القرآن وتوضحه السنة وتفصله كتب المذاهب الفقهية المختلفة ، طيلة هذه المدة ، ولم ينقل أحد من المؤرخين تعطيل تلك الاحكام أو الاستبدال بها ، أو تحريفها ، فكان ذلك أمرا يؤثر عن أهل العراق وفقهائه ومدرسيه في هذه الحقبة العصيبة فالفت الكتب الفقهية الكثيرة التي حفظت لنا التشريعات المأثورة عن الفقهاء السابقين ونقلتها بأمانة الى الاجيال اللاحقة .

الثانية : مواصلة انماء الفقه واثرائه :

فقد واصل الفقهاء انماء الفقه واثرائه وتوسيع أحكامه باستنباط الاحكام الشرعية للحوادث المستجدة ... وذلك أمر طبيعي نتيجة للتطور الحاصل في الحياة ، وفي جزئياتها التفصيلية يوميا ، فليست الحياة قالباً ثابتاً يدخله الانسان ويخرج منه كما دخل في كل العهود ، بل كل تصـرف يقوم بـه الانسان ، فرديا كان أو جماعيا ، في السر كان او في العلن ، مفيداً كان او مضراً ، صغيرا كان أو كبيرا ، لابد له من حكم في الشرع ، وعلى ذلك لابد من استنباط الاحكام الشرعية لهذه التصرفات ، بمواصلة الاجتهاد الفقهي ، الذي بدأ به أئمة الفقه في العصور الذهبية ، فكان حصيلة هذا الاجتهاد تأليف كتب ضخمة في الفروع الفقهية الجديدة يضاف الى ماسبق تأليفه في العصور السابقة ، فقد ألفت في هذا العصـر كتب اخرى تعنى باستنباط الاحكام للواقعات تسمى عندهم بكتب الفتاوى ، أو كتب الواقعات وهي كثيرة جدا ، قل أن يخلو مُفْتٍ من المفتين منها . لكن الاجتهاد هنا ليس مطلقاً ، بل كان مقيدا بقيود كل مذهب وقواعده وأصوله ، وإن لم يعدم بعض الفقهاء آلة الاجتهاد المطلق ، لكنهم قيدوا أنفسهم بتلك الاصـول المذهبية تأدبا مع أئمتهم ، وقد يخالف أحدهم هؤلاء الائمة في بعض الاحكام الفرعيـــة .

وكانت طريقتهم في استنباط الاحكام لهذه الحوادث الجديدة تتخـذ اشكالاً وصورا عديدة منها :

الصـورة الاولـى :

وهي التي سار عليها الفقهاء في العصور كلها ، وذلك بالرجوع الى المصادر الاصلية الاولى للتشريع ، وهي القرآن الكريم ، والسنة النبويـة المطهرة ، ثم الرجوع الى المصادر الثانوية الاخرى للتشريع ، كالاجماع ، والقياس أو الاجتهاد ، والمصادر التشريعية الاخرى .

وهم في القياس أو الاجتهاد يتلمسون العلل التي تكون مناطاً للحكم، فيلحقون الحادثة الجديدة بالحادثة المنصوص عليها ، لا تحادهما في العلة ، وهو أمر جرى عليه عمل الفقهاء في العصور كلها .

الصـــورة الثانيـــة :

تخريج الحادثة الجديدة ــ اذا لم يرد لها حكم في المصادر الاصلية والفرعية للتشريع ــ على وفق ما يقتضيه المذهب وأصوله ، فيجتهدون في استنباط حكم شرعي لها ، بتلمس القواعد التي التزم بها ائمة ذلك المذهب والضوابط التي وضعوها فيلحقون مسألة غير منصوص على حكمها بمســألة مشابهة وردت في كتب أصحاب تلك المذاهب .

وهو باب عظيـــم من أبواب التشريع الفقهي ســاهم كثيرا في اثراء التشريعات الفقهية ، فخلف لنا ثروة فقهية ضخمة .

الصورة الثالثة :

الترجيح بين الروايات المتعارضة ، فقد يرد عن امام المذهب رأيان او تنسب اليه روايتان متعارضتان في مسألة واحدة فيقوم الفقهاء بالترجيح بين تلك الروايات « ليبينوا أقواها أو يميزوا أصحها ، او أقربها للســنة ، او أوفقها قياسا أو أرفقها بالناس » .

وهو باب عظيم في تمييز الاحكام ونقدها وبيان صحيحها وتسديده ، وتوثيقه ، وسقيمها ، ودحضه وإبعاده .

الصـــورة الرابعـــة :

التقييد للأوجه المطلقة ، فقد يرد في كلام الفقهاء القدماء حكم شرعي مطلق في مسألة ما الا أن مقتضيات الحياة تطلبت ايجاد صور جديدة لتلك

المسألة ، مما يجعل الفقهاء يميلون الى تقييد تلك الاوجه المطلقة ، ليشملوا الصور الجديدة لتلك المسألة .

وهو أمر سار عليه الفقهاء في العصور كلها أيضا .

الصورة الخامسة :

التفريع على المسائل ، بوضع الافتراضات والتصورات الاحتمالية ، التي قد يكون بعضها عمليا ، وقد يكون مجرد افتراض لا وقوع له ، وهو أمر كان متبعا في العصر السابق وقد ساهم في انماء التشريعات الفقهية واثرائها على مر العصور .

الصورة السادسة :

تعليل الاحكام، وايضاح مستندها الشرعي بالاستدلال على تلك الاحكام بالأدلة المأخوذة من مصادرها ، وهو باب عظيم آخر من ابواب التوثيق للاحكام ، ويتجلى في عمل الشراح خاصة .

الصورة السابعة :

تنقيح الكتب الفقهية وتحقيق مسائلها ، كالذي فعله الشيخ زين الدين العراقي ، عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن (المتوفى ٨٠٦هـ / ١٤٥٣ م) في استدراكه على مهمات الاسنوي وسماه تتمات المهمات .

الصورة الثامنة :

تلخيص الكتب المطولة وعمل المتون المختصرة في الفقه واصوله لتسهيل المادة العلمية على الطلبة ففي الفقه نجد ، مثل كتاب (ادراك الغاية في في اختصار الهداية) لابن عبدالحق الحنبلي (المتوفى ٧٣٩ هـ/١٣٣٨ م) والهداية هذه في فقه الحنابلة تأليف نجم الهدى ابي الخطاب محفوظ بن احمد بن الحسن الكلواذي ، وهي غير الهداية المعروفة في الفقه الحنفي .

وكتاب (البلغة) مختصر كتاب الكافي في مذهب الامام أحمد تأليف عمادالدين ابي العباس احمد بن ابراهيم بن عبدالرحمن بن مسعود الواسطي الحزامي (المتوفى ٧١١ هـ /١٣١٠ م) .

وكتاب (الخلاصة) مختصر المغني لقاضي الاقاليم عزالدين ابي البركات عبدالعزيز بن علاءالدين ابي الحسن علي بن العز بن عبدالعزيز بن عبدالمحمود البغدادي مولدا ثم المقدسي الحنبلي (المتوفى ٨٤٦ هـ / ١٤٤٣ م) .

وكتاب (الوجيز) في الفقه لسراج‌الدين ابي عبدالله الحسين بن يوسف ابن محمد بن السري البغدادي الحنفي (المتوفى ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م)

وفي الاصول نجد كتبا منها :

كتاب (الزهر الناضر في روضة الناظر) لابن عبدالحق الذي مر ذكره اختصر به الروضة في اصول الفقه للشيخ موفق‌الدين بن قدامة .

وكتاب (اختصار الطوفي) في الاصول لقاضي الاقاليم عزالدين ابي البركات عبدالعزيز بن علي البغدادي الذي مر ذكره الآن .

وكتاب (المقدمة) في أصول الفقه لجلال‌الدين عبدالجبار بن عبدالخالق ابن عكبر العكبري (المتوفى ٦٨١ هـ) . وغير ذلك .

الصورة التاسعة :

نظم الاراجيز الفقهية والاصولية تيسيرا على الطلبة في استظهار المادة العلمية ، كشأن النظم العلمي في العلوم المختلفة .

فنجد في الفقه : ارجوزة ابن السباك تاج‌الدين علي بن سنجر البغدادي (المتوفى ٧٥٠ هـ/١٣٤٨م) .

والكافية ـ منظومة في‌الفرائض عدد ابياتها ٢٤٧ بيتاً ألفها محيى‌الدين

صالح بن عبدالله بن جعفر الاسدي الكوفي الحنفي النحوي المعروف بابن الصباغ (المتوفى ٧٢٧ هـ) .

ونظم الكنز في الفقه ، ونظم السراجية في الفرائض ، كلاهما لفخرالدين ابي طالب احمد بن علي الهمداني المعروف بابن الفصيح البغدادي (المتوفى ٧٥٥ هـ /١٣٥٣ م) .

ونظم كتاب الحاوي لزين‌الدين ابي الحسن علي بن الحسين بن القاسم ابن منصور بن علي الموصلي الشافعي المعروف بابن شيخ العوينة (المتوفى ٧٥٥ هـ /١٣٥٣ م) .

ونظم مختصر ابن رزين في الفقه لجمال‌الدين ابي المظفر يوسف بن محمد بن مسعود بن محمد بن علي بن ابراهيم العبادي ثم العقيلي السرمري الحنبلي (المتوفى ٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م) .

ونجد في اصول الفقه : نظم كتاب (المنار) في اصول الفقه لفخرالدين ابي طالب احمد بن علي البغدادي المعروف بابن الفصيح الذي مر ذكره الآن .

ونظم منهاج الاصول لزين‌الدين عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن العراقي (المتوفى ٨٠٦ هـ /١٤٥٣ م) .

الصورة العاشرة :

وضع الشروح المطولة على المتون الفقهية والاصولية وهو باب عظيم من ابواب نماء الفقه واصوله وتوثيق مسائله والاستدلال لها .

نجد في الفقه كتبا كثيرة منها :

شرح المحرر في الفقه لابن عبدالحق (الذي مر ذكره) وهو كتاب ضخم يقع في ستة مجلدات ضخمة .

وكتاب (الشرح الحافل على المختصر) للشيخ شمس الدين الكرماني الشافعي محمد بن يوسف بن علي (المتوفى ٧٨٦ هـ/١٣٨٤ م) •

وشرح (الغاية القصوى في فقه الشافعية مختصر الوسيط للغزالي) تأليف غياث الدين ابي المكارم محمد بن محمد بن عبدالله الواسطي ثم البغدادي الشافعي المعروف بابن العاقولي (المتوفى ٧٩٧ هـ/١٣٩٤ م) •

وشرح (مختصر الشرائع المسمى التنقيح الرائع في شرح مختصر الشرائع) للشيخ ابي عبدالله المقداد بن عبدالله السيوري الحلي الاسدي الشيعي (المتوفى ٨٢٦ هـ/١٤٢٣ م) •

وكتاب (فتح الملك العزيز بشرح الوجيز) في خمسة مجلدات ضخمة تأليف علاء الدين ابي الحسن علي بن محمد بن البهاء البغدادي الحنبلي (المتوفى ٩٠٠ هـ /١٤٩٤ م) •

وكتاب (شرح القدوري) في الفقه للشيخ محمد الاحسائي بن أحمد نزيل بغداد (المتوفى ١٠٨٣ هـ /١٦٧٢ م) •

وكتاب (الكافي) شرح الخرقي لنور الدين عبدالرحمن بن عمر العبدلياني الحنبلي (المتوفى ٦٨٤ هـ) وكذلك كتابه الآخر المسمى الواضح في شرح الخرقي •

أما في اصول الفقه : فنجد كتبا كثيرة ايضا منها :

كتاب (بديع النظام الجامع بين كتابي البزدوي والاحكام) للبديع ابن الساعاتي (المتوفى ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م) •

وكتاب (شرح مختصر ابن الحاجب) تأليف شمس الدين ابي عبدالله محمد بن عبدالله الحسيني الواسطي (المتوفى ٧٦٥ هـ/١٣٦٤ م) في ثلاثة مجلدات ضخمة •

وشرح منهاج الوصول الى علم الاصول للبيضاوي ، تأليف ابن العاقولي غياث الدين (المتوفى ٧٩٧ هـ/١٣٩٤ م) .

وشرح المنهاج ايضا للسكاكيني محمد بن عبدالله بن عبدالقادر الشيخ نجم الدين الواسطي (المتوفى ٨٣٨ هـ /١٤٣٤ م) .

والشرحان المطولان الذي وضعهما ابو هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي المطلبي البغدادي الحنفي (المتوفى ٧٤٦ هـ) في الاصول الاول سماه (المنقول في شرح تهذيب الوصول الى علم الاصول) والثاني كتاب (غاية السول في شرح مبادىء الاصول) .

الصورة الحادية عشرة :

عمل الموسوعات الفقهية والاصولية ، والمطولات ، بجمع المادة مفصلة معللة من مراجعها في المذهب الواحد وربما تعرضوا للمذاهب الاخرى .

وهو عمل عظيم حفظ لنا التراث الفقهي والاصولي الذي خلفه السابقون ونقل ذلك التراث بأمانة الى الاجيال اللاحقة مما كان له اثر كبير في التمهيد للتشريعات الحديثة .

من هذه المطولات في الفقه نجد كتاب (الكامل في فروع الشافعية) لمحمد بن عبدالله شمس الدين ابن ابي السنان الموصلي الشافعي (المتوفى في الموصل ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م) .

وكتاب (الحاوي في فروع الفقه الحنبلي) لنور الدين عبدالرحمن بن عمر العبدلياني (المتوفى ٦٨٤ هـ) وكذلك كتاب (الشافي في المذهب) له ايضا .

وكتاب (ارشاد الطالب الى معرفة المذاهب) لتاج الدين علي بن انجب البغدادي المعروف بابن الساعي (المتوفى ٦٧٤ هـ) .

وكتاب (مجمع البحرين وملتقى النهرين) لابن الساعاتي الذي مر ذكره .

وكتاب (المنتهى) و (التحرير) و (التبصرة) و (منهاج الكرامة) في الفقه الجعفري للحسن بن الشيخ يوسف بن علي المعروف بابن المطهر الحلي (المتوفى ٧٢٦ هـ/١٣٢٦ م) .

وكتاب (مجمع البحرين وجواهر الحبرين) لابن الكرماني (المتوفى ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م) وشرح ابيه المشهور بشرح الكرماني على صحيح البخاري ، وهما وان كانا في الحديث يحتويان على ذخيرة واسعة من المسائل الفقهية (وهو مطبوع) .

وفي الاصول نجد كتبا كثيرة منها كتاب (الحاوي) لشرف الدين داود ابن عبدالله بن كوشيار الحنبلي (المتوفى سنة ٦٩٩ هـ)

وكتاب (تحقيق الامل في علمي الاصول والجدل) لابن عبدالحق (المتوفى ٧٣٩ هـ /١٣٣٨ م) .

الصورة الثانية عشرة :

زيادة الاهتمام بالقواعد الفقهية وتتبعها ، واستخراجها من كلام الاقدمين ، وتنظيرها ، وتبويبها ، فقد كان الفقهاء الاقدمون قد تسالموا على بعض الضوابط والمعاني التي تجتمع عندها احكام كثيرة تمثل روح التشريع ومقاصده ، مستخرجة من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة وكلام الفقهاء المتضلعين سميت بالقواعد الفقهية ، استقرأها الفقهاء من تلك المصادر استقراء ، والالمام بها يكون عند الفقيه ملكة تساعده على معرفة الاحكام الشرعية للمسائل المتناظرة ، وقد ظلت متناثرة في بطون الكتب الى أن ظهرت الحاجة الى ضم الشبيه الى الشبيه والنظير الى النظير فكان (علم الاشباه والنظائر) الذي الف فيه كثيرون في هذا العصر .

وكتب القواعد الفقهية في هذه الحقبة كثيرة نال العراق بتأليفها قسطا كبيرا منها :

كتاب القواعد الكبرى في فروع الحنابلة لنجم‌الدين سليمان بن عبدالقوي الطوفي الحنبلي (المتوفى ٧١٦ هـ/١٣١٦ م) والقواعد الصغرى له ايضا • وكتاب الرياض النواضر في الاشباه والنظائر له ايضا •

وكتاب حل الفوائد في حل مشكلات القواعد في الفقه لابي هاشم محمد بن محمد بن احمد الهاشمي المطلبي البغدادي (المتوفى ٧٤٦ هـ) •

وكتاب قواعد ابن رجب وهو الشيخ زين‌الدين عبدالرحمن بن رجب ابن عبدالرحمن بن أحمد البغدادي الحنبلي (المتوفى ٧٩٥ هـ) •

وكتاب (القواعد الكلية والضوابط الفقهية) لابن عبدالهادي جمال‌الدين يوسف بن الحسن •

وكتاب (القواعد الفقهية) للشيخ جعفر الاسترابادي الشيعي •

وكتاب (القواعد) للمطهر الحلي التي شرحها ابنه الشيخ فخرالدين ابو طالب محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (المتوفى ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م) وسمى الشرح (ايضاح الفوائد في حل مشكلات القواعد) •

الصورة الثالثة عشرة :

عمل الألغاز والاحاجي الفقهية والاسئلة العويصة نثراً ونظماً ، من ذلك ما برع فيه ابن الدريهم الموصلي تاج‌الدين علي بن محمد بن عبدالعزيز الثعلبي (المتوفى ٧٦٣ هـ /١٣٦٢ م) في نظم الاحاجي والالغاز وحل المترجم والاوقاف من منظومته في المعمّى التي شرحها هو في كتابه الذي سماه (مفتاح الكنوز في حل الرموز) وكتابه الآخر (غاية الاعجاز في الاحاجي والالغاز) وله كتاب آخر بعنوان (اقناع الحذاق في انواع الاوفاق) ذكرها ابن حجر في الدرر الكامنة (٣/١٨٣ الترجمة ٢٨٧١) •

الصـــورة الرابعة عشرة :

التأليف في جزئيات مخصوصة لتوسع الابواب الفقهية ولميل الناس الى التخصص واشباع المسألة بحثا فانفردت تلك البحوث بكتب مستقلة ، فنجد في هذا العصر من يتخصص بحثه في نقطة دقيقــة ، أو مســألة مخصوصة ، كالذي فعله الزين العراقي عبدالرحيم بن الحسين (المتوفى ٨٠٦هـ/١٤٥٣م) في كتبه ورسائله منها (الاستعاذة بالواحد من اقامة جمعتين في مكان واحد) وكتاب (تحريم الربا) وغير ذلك (انظر الضوء اللامع ٤/١٧٣) •

وكالذي فعله يحيى بن علي بن نصوح المعروف بنوعي قاضي بغـــداد (المتوفى ١٠٠٣ هـ/١٥٩٤ م) في رسائله كما في خلاصة الاثر (٤/٤٧٥) •

وكالذي فعله غانم بن محمد البغدادي (المتوفى ١٠٣٠ هـ/١٦٢٠ م) في كتابيه : (ملجأ القضاة في ترجيح البينات) و (مسائل الضمانات) •

وكالذي فعله مفتي العراق العلامة ابو الثناء شهاب‌الدين السيد محمود ابن عبدالله بن محمود بن درويش الآلوسي البغدادي (المتوفى ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م) في رسائله الكثيرة منها (سفرة الزاد في سفرة الجهاد) •

الصـــورة الخامسة عشرة :

العناية بمسائل الخلاف بين الفقهاء ، وقد حظيت هذه الصورة باهتمام كبير من الفقهاء على مر العصور نجد في هـــذا العصـــر ماجمعه جلال‌الدين عبدالجبار بن عبدالخالق بن محمد بن عكبر العكبري البغدادي (المتوفـــى ٦٨١ هـ) في كتابه : (مسائل الخلاف) •

وجمال‌الدين الحسين بن بدر بن اياز (المتوفـــى ٦٨١ هـ) في كتابـــه (الاسعاف في الخلاف)

الصـــورة السادسة عشرة :

ابتكار طرق جديدة في التأليف وترتيـب المـادة الفقهيـة والاصولية واسـلوب عرضـها :

فمن الفقهاء المتميزين في الفقه والاصول معا في هذا العصـر الشـيخ الامام مظفرالدين احمد بن نورالدين علي بن تغلب بن ابي الضياء البعلبكي الاصل المعروف بابن الساعاتي (المتوفى ٦٩٤ هـ/١٢٩٥ م) مدرس الفقـه الحنفي في المدرسة المستنصرية الذي سكن بغداد ونشأ بها ، وابوه هو الذي عمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية ببغداد .. ففي الفقه وضـع مظفرالدين كتابه (مجمع البحرين وملتقى النهرين) الذي جمع فيه مختصر القدوري والمنظومة مع زوائد ورتبه فأحسن وابـدع ، وشرحه في مجلدين كبيرين ، وقد أسسه على قواعد لم يسبق اليها فكان مـن معتبرات كتـب الحنفية ، ونال الاهتمام من المؤلفين الذين جاءوا من بعده ، فساروا علـى منواله ، فقد شرحه الرشيدي امام جامع السلطان بايزيـد بالاستانة سـنة ٩٤٤ هـ ، واختصر شرحه العلامة بدرالدين العيني (المتوفى ٨٥٥ هـ) وزاد فيه مذهب الامام أحمد .

أما في أصول الفقه فقد كانت له طريقة خاصة في التأليف فيه تميزت عن غيرها ، ونسبت اليه وجاء من بعده فسار عليها .

فمن المعروف أن تآليف العلماء في أصول الفقه سارت في طريقتين قبل ابن الساعاتي . فأولى هاتين الطريقتين هي طريقة الشافعية ومن تابعهم مـن المتكلمين التي كانت ذات اتجاه نظري خالص مهمتها تقريـر قاعدة بقطـع النظر عن كونها تخالف مذهبا او توافقه ، ومن أهم من سار على هذه الطريقة ثلاثـة أعـلام هـم :

ابو الحسين محمد بن علي البصري المعتزلي (المتوفـى ٤١٣ هـ) في كتابه المعتمد في اصول الفقه (طبع في دمشق ١٩٦٥ م) .

وامام الحرمين الجويني (المتوفى ٤٨٧ هـ) في كتابه البرهان (طبع في القاهـرة ١٩٨١) •

والامام أبو حامد الغزالي (المتوفى ٥٠٥ هـ) في كتابـه المستصـفى (طبع في بولاق ١٣٢٢ هـ) •

وقد لخص هذه الكتب الثلاثة الامام فخرالدين الـرازي (المتوفـى ٦٠٦ هـ) في كتابه المحصول (طبع في السعودية) •

وقد جمع هذه الكتب الثلاثة وزاد عليهـا أبو الحسين علي المعـروف بالآمدي (المتوفى ٦٣١ هـ) في كتابه الاحكام في أصول الاحكام (طبع في مطبعة المعارف بالقاهرة ١٩١٤ م) •

ثم توالت عليها الاختصارات والشروح

وثاني هاتين الطريقتين طريقة الحنفية التي تقوم على تقرير القواعـد الاصولية على مقتضى ما نقل عن الائمة من الفروع الفقهية •

ومن اهم الذين ساروا على هذا المنهج :

ابو بكر احمد بـن علي المعـروف بالجصّاص (المتوفـى ٣٧٠ هـ) فـي كتابـه (الاصـول) •

وأبو زيد عبدالله بن عمر الدبوسي (المتوفـى ٤٣٠ هـ) في كتابـه تأسيس النظر (طبع بالمطبعة الادبية بالقاهرة بدون تاريخ) •

وفخر الاسلام علي بن محمد البزدوي (المتوفى ٤٨٢ هـ) في كتابـه اصول البزدوي (طبع مستقلا طبعـات متعددة منها طبعـة نور محمـد ـــ كراتشي ـــ طبعة حجرية وبهامشها تخريج احاديثه لابن قطلوبغا) وأصـول البزدوي شرحه عبدالعزيز بن احمد البخاري (المتوفى ٧٣٠ هـ) بكتابـه المسمى كشف الاسرار (طبع بالاستانة ١٣٠٧ هـ) •

فلما جاء مظفرالدين ابن الساعاتي استطاع أن يمــزج هاتين الطريقتين بكتابه القيم (بديع النظام الجامع بين كتابي البزدوي والاحكام) سار عليها جمع غفير ممن أتى بعده من المؤلفين في هذاالباب : منهم صــدر الشــريعة عبيدالله بن مسعود الحنفي (المتوفى ٧٤٧ هـ) في كتابه التنقيــح وشــرحه التوضيح (طبع التنقيح والتوضيح بمطبعة محمد علي صــبيح بالقاهــرة ١٣٦٧هـ) ، والشيخ سعدالدين مسعود بن عمر التفتازاني (المتوفى ٩٧٢هـ) بكتابه شرح التوضيح (طبع مع التنقيح والتوضيح) .

وتاج‌الدين عبدالوهاب السبكي الشافعي (المتوفى ٧٧١ هـ) في كتابه جمع الجوامع (طبع مع شرحه لجلال‌الدين المحلى بمطبعة عيســى الحلبــي بالقاهــرة) .

وابن الهمام الحنفي السكندري (المتوفى ٨٦١ هـ) في كتابه التحرير (طبع التحرير مستقلا بمطبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٥١ هـ) .

والشيخ محمد بن محمد المعروف بابن امير الحاج (المتوفى ٨٧٩ هـ) في شرحه على التحرير المسمى التقرير والتحبير (طبع ببولاق ١٣١٦ هـ) .

ومحب‌الله بن عبدالشكور (المتوفى ١١١٩ هـ) بكتابه مسلّم الثبوت (طبع على هامش المستصفى للغزالي ببولاق ١٣٢٢ هـ) .

وغيرهم وهم كثيرون ساروا على خطته ونهجه مما يدل على عظم تأثيره بمن جاء من بعــده .

المصـــادر

ابن رجب ، زين‌الدين ابي الفرج عبدالرحمن

الذيل على طبقات الحنابلة ، ١٩٥٢ .

الاتابكي ، ابن تغري بردي

ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، (تحقيق احمد يوسف نجاتـي) ، مصر ، ١٩٥٦ .

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مصر ١٩٥٦ .

الآلوسي ، محمود شكري

مساجد بغداد واثارها ، بغداد ، ١٩٢٥ م .

بدران ، بدران ابو العينين

تاريخ الفقه الاسلامي ونظرية الملكية والعقود ، بيروت ، ١٩٦٨ .

حاجي خليفة ، مصطفى

كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، استانبول ، ١٣٦٠ هـ .

الحجوي ، سيدي محمد بن الحسن

الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي .

الحسيني ، ابي بكر بن هداية‌الله

طبقات الشافعية ، (تحقيق عادل نويهض) ، بيروت ، ١٩٧١ .

الحسيني ، محمد بن علي بن الحسـن

الذيل على ذيل العبر .

الحنبلي ، ابي الفلاح عبدالحي بن العماد

شذرات الذهب من اخبار من ذهب ، بيروت .

الدمشقي ، ابن كثير
البداية والنهاية ، مصر ١٩٣٢ .

الذهبي ، شمس‌الدين محمد بن أحمد
ـ سيرة اعلام النبلاء ، (تحقيق بشار عواد معروف و محي هلال السرحان) ، بيروت ، ١٩٨١ .
ـ ذيل العبر ، (تحقيق محمد رشاد عبدالمطلب) ، الكويت ، ١٩٦٩
ـ العبر في خبر من غبر ، (تحقيق فؤاد سيد) الكويت ، ١٩٦١ .
ـ تذكرة الحفاظ ، حيدر أباد ، ١٩٥٦ .

السخاوي ، شمس‌الدين محمد
ـ الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، بيروت .
ـ الذيل على رفع الاصر او بغية العلماء والرواة ، (تحقيق جودة هلال ومحمد محمود صبيح) ، مصر .

السبكي ، تاج‌الدين عبدالوهاب
طبقات الشافعية الكبرى ، (تحقيق الطناحي والحلو) ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

السويدي ، عبدالرحمن
تاريخ حوادث بغداد والبصرة ، (تحقيق عماد عبدالسلام) ، بغداد ، ١٩٧٨ .

السيوطي ، جلال‌الدين عبدالرحمن
طبقات الحفاظ ، (تحقيق علي محمد عمر) ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

الشوكاني ، محمد بن علي
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، مصر .

الصفدي ، صلاح‌الدين خليل بن ايبك
الوافي بالوفيات ، (تحقيق هلموت ريتر) ، فيسبادن ، ١٩٦٢ .

الصيرفي ، علي بن داود بن ابراهيم
أنباء الهصر بأنباء العصر ، (تحقيق حسن حبشي) . القاهرة ، ١٩٧٠ .

طاش كبرى زاده ، احمد بن مصطفى
مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
طلس ، محمـد أسعد
تاريخ العرب ، بيروت ، ١٩٧٩ .
العسقلاني ، شهابالدين أبي الفضل
ــ أنباء الغمر بأبناء العمر ، حيدر أباد ، ١٩٦٧ .
ــ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، (تحقيق محمد سيد جاد الحق) ، القاهـرة ، ١٩٦٦ .
الغزي ، بدرالدين
الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ، بيروت ، ١٩٧٩ .
فرحون ، ابراهيم بن علي
الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ، (تحقيق محمـد الاحمدي) القاهـرة ، ١٩٧٢ .
القرشي ، محيالدين عبدالقادر
الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، حيدر اباد .
قطلوبغا ، زينالدين قاسـم
تاج التراجم في طبقات الحنفية ، بغداد ، ١٩٦٢ .
الكتبي ، أبـن شـاكر
فوات الوفيات ، (تحقيق احسان عباس) ، بيروت ١٩٧٤ .
كحالة ، عمر رضـا
معجم المؤلفين ، دمشق ، ١٩٥٧ .
اللكنوي ، أبن الحسنات محمد بن عبدالحي
الفوائد البهية في تراجم الحنفية ، مصر .
لونكريك ، هيمسلي
اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، بغداد ، ١٩٦٨ .
المحبي ، محمد امين بن فضلالله
خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، مصر .

المحبي ؛ محمد امين بن فضل الله
خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، مصر .
المرادي ؛ ابن محمد مراد الحسيني
سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، مصر .
معـروف ، ناجـي
تاريخ علماء المستنصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
نـورس ؛ علاء موسى كاظم
ـ العراق في العهد العثماني دراسة في العلاقـات السياسـية ١٧٠٠ ـ ١٨٠٠ ، بغداد ، ١٩٧٩ .
ـ حكم المماليك في العراق ، بغداد ، ١٩٧٥ .

* * *

الفصل الثاني

العلوم اللغوية والأدبية والصرفة

المبحث الأول

طبيعة الحركة الفكرية

د . طارق نافع الحمداني
كلية التربية - جامعة بغداد

الفكر في العراق بين الغزاة والشعب

وصل الفكر في العراق الى ذروته على ايام العباسيين حيث ساهم المفكرون في مختلف مجالات الفكر والمعرفة وكان لهم قصب السبق في هذه المجالات . الا ان اخطر ما تعرض له هذا الفكر هو انه عانى في اجواء الحكم الاجنبي بعد احتلال بغداد ٦٥٦هـ ١٢٥٨م ولمدة تزيد على سبعة قرون ، ومعلوم ان الحركات الفكرية انما تنشأ وتنمو وتقوى في ظل الحكم الوطني الثابت الاسس الراسخ الدعائم ، لا في ظل الحكومـات الاجنبية المغوليـة والتركمانيـة والفارسية والعثمانية، التي كانت اصلا من الاقوام البدائية غير المتحضرة ، فكيف استطاع

الفكر في العراق ان يصمد ويعيش في مثل هذه الاجواء ؟ ولتوضيح هذا الامر يجدر بنا ان ندرس الظروف التي احاطت بالفكر خلال هذه القرون الطويلة وما هي المقومات التي استند عليها في بقائه واستمراره .

بعد سقوط بغداد تعرضت الكثير من المؤسسات الفكرية مثل المدارس والمساجد وخزائن الكتب الى الخراب والتدمير ، كما استشهد عدد كبير من رجالاتها ، ذلك لان اهل بغداد ــ الذين كانوا يمتلكهم شعور الدفاع عن حاضرتهم ــ قد وقفوا بوجه المغول الغزاة . الا ان الخسائر والاضرار المادية والبشرية التي لحقت بالعراق وعلمائه رغم جسامتها لم تؤد الى توقف الحركة الفكرية تماما ، انها استمرت وتواصل العطاء الحضاري للعراق وهو في اصعب ظروفه التاريخية .

ولعل المتتبع لطبيعة الحركة الفكرية في العراق بعد الغزو المغولي يستطيع ان يلمس جوانب هذه الحركة وابعادها . اذ من المعروف ان عددا من رجالات العلم قد نجوا من واقعة بغداد وعادوا الى متابعة نشاطاتهم المعهودة بعد فترة قصيرة ، فكانوا بمثابة حلقة الوصل بين الحركة الفكرية في العصر المغولي وبين تلك التي شهدوها في اواخر العصر العباسي . والاهم من ذلك ان المغول كانوا من الاقوام المتخلفة التي لم يكن لها حضارة عريقة كتلك التي عرفها العراقيون في اعصرهم الزاهرة أبان الدولة العباسية لذلك لم يتدخلوا في الشؤون العلمية والادبية للعراق ، وتركوا اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة والبحث والدراسة والتأليف . فأستطاع الفكر في العراق بسبب ذلك ان يحتفظ بكثير من مقوماته الاساسية ، طيلة العهد المغولي ، ولكن هل استمر الفكر بالرواء ذاته ، والابداع نفسه ، والتجديد الذي كان معروفا قبل الغزو المغولي ، وما هو شأنه بعد ذلك .

الحقيقة ان الفكر في العراق اخذ ينهار عقب الغزو المغولي لبغداد كما ان الفترات التالية لم تكن سهلة بالنسبة للحركة الفكرية ككل . فالحكم الجلائري (٧٣٩ ــ ٨١٣ هـ/١٣٣٩ ــ ١٤١٣ م) اهمل النواحي الفكرية ، ولم

يعمل الحاكمون الجدد على تنشيط ما كان معروفا في مجالات المعرفة ذلك لان هؤلاء الحكام انفسهم لم يكن لهم حظ وافر من المعرفة ، بل انهم اخذوا ثقافتهم من العراق ، ولم يضيفوا اليه شيئا • اما العراقيون فقد اعتمدوا على تراث اسلافهم ، يرددونه على نطاق اضيق مما كان عليه في العهود السابقة ، بسبب تعرض مدارسهم ومؤسساتهم الفكرية الى الاهمال والاندثار لا الى الرعاية والازدهار •

وحدث في الوقت نفسه ان وقع الغزو التيموري على العراق (٧٩٥ هـ / ١٣٩٣م) ، فكان له نتائج سلبية بعيدة المدى في اوضاعه الفكرية • فقد تسبب هذا الغزو في ازهاق ارواح كثيرة من الشعب العراقي ، ومن بينهم العلماء والمفكرين وصاحبه اجبار اصحاب الخبرات العلمية والحرفية على الهجرة الى بلاد ما وراء النهر ، وقيام اعداد كبيرة اخرى منهم بالتوجه الى بلاد الشام ومصر ، بحيث نجد ان كتب التراجم للقرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين) مليئة باسماء المفكرين العراقيين الذين برزوا في مجالات الفكر المختلفة بعد استقرارهم هناك •

ولم يشهد العراق بعد هذه الكوارث والنكبات التي حلت به الا فترات طويلة من عدم الاستقرار السياسي ، وذلك بحكم خضوعه لحكومات اجنبية متسلطة لم تعن بشؤون العراق ولا بنهضته الفكرية ، ولم تكن قادرة على دفعه نحو التطوير والتجديد • وكان جل عنايتها منصبا على ابراز حواضرها السياسية مثل تبريز وشيراز ، واهمال مدن العراق وحواضره من الناحية الفكرية ، وعدم التفكير فيها الا عندما تتعرض لخطر الافلات من ايديها لسبب او لآخر ، ويصدق هذا القول بالنسبة لحكومات القره قوينلو (٨١٣-٨٧٢هـ/ ١٤١٠ - ١٤٦٧ م) والآق قوينلو (٨٧٢ - ٩٠٥ هـ / ١٤٦٧ - ١٥٠٨ م) ، والفرس الصفويين (٩٠٥ - ٩٤١هـ/١٥٠٨ - ١٥٣٤ م) • اما الفكر العراقي فقد تعرض بفعل تلك الظروف للركود ، ومما يعكس ذلك ما ذكره المؤرخ

العراقي عبدالله بن فتح‌الله البغدادي المعروف بالغياثي الذي كان شاهد عيان لاحداث تلك الفترات حيث قال عنها (ان كثرة الفتن وتواتر المحن بارض العراق لم يضبط احد تواريخها لانعدام اهل العلم ومن ينظر فيه) .

لم يطرأ تغير على طبيعة الحركة الفكرية في العراق ايام خضوعه للحكم العثماني في الفترة الاولى مابين (٩٤١ــ١١٦٤هـ/١٥٣٤ــ١٧٥٠م) ، ذلك لان العثمانيين انفسهم قد تأثروا بحضارة هذه البلاد وبما كان شائعا فيها من تراث حضاري وثقافي ، ويظهر هذا في ابقائهم على المراكز العلمية الموجودة فيها، سواء في المدارس او المساجد ، والاهم من ذلك كله لغتها العربية .

فبقيت العربية لغة التعليم فيما بقي في العراق من المعاهد القديمة ، وكانت الثقافة العربية تسير سيرا واهنا ، وكاد التجديد ان يكون معدوما في مجال الفكر والمعرفة . بيد ان ظهور بعض الاسر المحلية الحاكمة التي تحمل نزعة عربيةوطنية، مثل آل افراسياب في البصرة (١٠٠٥ــ١٠٧٩هـ/١٥٩٦ــ١٦٦٨م) قد اثر تأثيرا كبيرا في تشجيع الحركة الفكرية واهلها في العراق ، ذلك لان آل افراسياب قد شجعوا رجال العلم والادب ، فقصدهم الشعراء والادباء والعلماء ، وكتبوا كثيرا من مؤلفاتهم باللغة العربية ، فاعطوا صورة بارزة عن تقدم الحركة الفكرية في العراق خلال تلك الفترة .

وشهد الفكر والثقافة في عهد المماليك (١١٦٤ــ١٢٤٧هـ/١٧٥٠ــ١٨٣١م) تقدما ملموسا ذلك لان المماليك عنوا بالناحية الثقافية في العراق من اجل كسب ثقة العراقيين ، ولحاجتهم الى موقف فكري يستندون اليه وبالتالي تقوية مركزهم بوجه الدولة العثمانية ، التي كانت ترنو للقضاء عليهم واعادة سلطتها المباشرة على العراق . ولعل ابرز مثال على اهتمام المماليك ورعايتهم للثقافة والفكر ماقام به داود باشا (١٢٣٣ــ١٢٤٧هـ/١٨١٧ــ١٨٣١م) من تشجيع الشعراء والفقهاء والعلماء والادباء،فانتشرت نتيجة لذلك الثقافة العلمية والادبية .

وقد فرضت هذه الحالة نفسها على الحركة الفكرية في بغداد وفي المدن العراقية الاخرى ، اذ لم يعد امر دعم هذه الحركة مقصورا على الحكام المماليك ، بل شاركتهم في ذلك بيوتات علمية وادبية كثيرة من امثال آل السويدي وآل الحيدري وآل الالوسي وغيرهم ، وقامت بدور فعال في تشجيع الحركة الفكرية من خلال نشر التعليم وجمع الكتب وانشاء المكتبات ووقف الارزاق على المدرسين وعلى المدارس ، وعقد المجالس الادبية وتأليف العديد من المؤلفات العلمية والادبية ، مما شكل البذرة الطيبة في تكوين النهضة الفكرية التي بدأت معالمها تظهر الى حيز الوجود في العراق في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

ولكن من الملاحظ ان الفكر في العراق في الغالب ظل خلال هذه الفترة مستندا على النهج التقليدي القديم في دراسة اثار الاولين وتدقيقها ، بخاصة في علوم الدين . ولم يحصل فيه تجدد يدعو الى الالتفات ، لانه لم يتعرض لحد الان الى اي تأثيرات ثقافية جديدة . اما نصيب العلوم البحتة من العناية فلم يكن مكافئا لنصيب العلوم الدينية والادبية باية حال .

وشهدت الفترة التي تلت انتهاء عهد المماليك ظهور عدد كبير من اعاظم الفقهاء والشعراء والادباء والمفسرين مثل ابي الثناء الالوسي ومحمود شكري الالوسي وغيرهم الذين قامت على يدهم نهضة ثقافية عربية بحتة ، بعيدة عن التأثير العثماني .

وفي الوقت نفسه ، بدأ العثمانيون بانشاء المدارس الحديثة في العراق منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، غير ان هذه المدارس كانت عسكرية بالدرجة الاولى ، وكان يجري التدريس فيها باللغة التركية فقط .

لذلك لم تنتفع منها اللغة العربية شيئا يذكر ، فكان العثمانيون في واد والعراقيون في واد .

وكانت السياسة التي رسمها الاتراك العثمانيون لتعليم ابناء العراق ، في عهـد حكم الاتحاديين تستهدف هدم اللغة العربية وتراثها ، لاعتقادهم بان الاجيال القادمة سوف تنسى اللغة العربية وتستعيض عنها باللغة التركية ، في الكلام والكتابة والتفكير ◆ الا ان هذه السياسة لم تمر دون ان تواجه مقاومة عنيفة من قبل العرب عامة والعراقيين خاصة ، مما حمل الاتراك على التراجع عن هذه السياسة في اواخر ايامهم بالعراق ◆

ولولا مدارسنا العلمية القديمة وخزائن كتبها الثمينة لما استطاع الفكر العراقي ان ينهض الى الحد الذي يمكنه من الوقوف امام الاتراك ◆ فقـد استطاعت هذه المدارس، رغمان مناهجها وطرق التدريس فيها كانت قديمة ولا تتناسب مع طبيعة الحركة الفكرية السائدة في العالم انذاك ، ان تعطي للطلبة مبادىء القراءة والكتابة ، وعلوم اللغة العربية والفقه والتاريخ وبقية العلوم الاخرى ◆

غير ان معظم المؤلفات الفكرية التي جاءتنا من القرن التاسع عشـر ، تناولت مثل هذه العلوم ، وهي مؤلفات فقدت عنصر الجـودة والاصالـة والتجديد ◆ اذ اقتصرت على دراسة تراث القدامى ، وانصبت العناية فيهـا على الشروح وشرح الشروح والتعليق على المؤلفات القديمة والتعليق على التعليق ◆ فعلى سبيل المثال نذكر كتاب روح المعاني في تفسير القرآن والسبع الثاني ◆ وهو كتاب ذاع صيته في القرن التاسع عشر للغوي المحدث ابي الثناء شهاب الدين محمود الالوسي ، وهو مأخوذ عن تفسير الامام فخر الدين الرازي مع حذف واضافة لتفاسير الاخرين ، ويمكن ان يقال الامر نفسـه بالنسبة لكثير من المؤلفات الفقهية الاخرى في هذا القرن ◆

وهكذا تظهر لنا طبيعة الحركة الفكرية في العراق ، وكيف ان الفكـر في العراق قد عانى من ازمات عديدة منذ الغزو المغولي حتى الغزو البريطاني ، بسبب تعرضه لوطأة الحكومات الاجنبية وضغطها ، مما جعله في موضـع

متخلف عن نظيره في البلاد الاخرى ، ولم يأخذ دوره الحقيقي نحو الابداع والسمو . ويعود السبب في ذلك لان الحكومات الاجنبية نفسها كانت اقل اهتماما به من جهة ، ولانها لم تتذوق طعم الانتاجات الفكرية المؤلفة باللغة العربية من جهة اخرى . ولكن رغم ذلك كله فقد قدر للفكر في العراق ان يشق طريقه نحو الامام في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

مراكز الحركة الفكرية

لا يكاد يختلف اثنان بان مراكز الحركة الفكرية الرئيسية في العراق مثل بغداد والموصل والحلة والنجف وكربلاء والبصرة واربيل قد اصابها الاهمال ، ولم تسترجع سابق شهرتها على ايام الدولة العربية زمن العباسيين، منذ سقوط بغداد على يد المغول عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ وحتى زوال الحكم العثماني من العراق عام ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م . لكن ذلك لا يعني تماما انقراض هذه المراكز ، وانما ظلت تلعب دورها الثقافي لاستمرار وجود المدارس ودور العلم المختلفة في هذه المدن . الا انه لا يمكن باية حال من الاحوال مقارنة حالة المراكز العلمية زمن الدولة العربية ، بحالتها زمن عهود السيطرة الاجنبية ، ذلك لتضامن عوامل عدة في وصول تلك المراكز الى حالتها المتدهورة تلك . فمنها ما كان يتعلق بانشغال الحكام الاجانب بامور الملك ، فابعدتهم الحياة السياسية ومشاغلها عن توجيه اي اهتمام للعلم ، بخاصة وانهم لم يكونوا ميالين اصلا الى العلم والمعرفة الا ندرة منهم ، وحتى اولئك فانهم لم يعرفوا اللغة العربية ولم يتذوقوا طعم المؤلفات المكتوبة بها . ومنها ما يتعلق بتعرض العراق الى كثير من الويلات والكوارث الطبيعية كالفيضانات والمجاعات والاوبئة ــ كتلك التي حدثت زمن داود باشا عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م التي كانت تفتك بالناس فتكا ذريعا حتى تأتي على قسم كبير منهم،فاثر ذلك ابلغ الاثر على المراكز الفكرية واهلها.وعلى

هذا الاساس فان هذه المراكز كانت تختلف قوة وضعفا من حيث نشاطاتها ، وفقا لطبيعة الظروف التي مرت بها ، مما يستوجب دراستها كل على انفراد •

بقيت بغداد ، رغم الاضرار الفادحة التي تعرضت لها بسبب الغزو المغولي، من اهم مراكز الفكر في العراق ، وذلك لانها اشتهرت بكثرة معاهد العلم ودور الكتب وحلقات التدريس فيها • وكان من ابرز المعاهد التي واصلت دورها في نشر الثقافة العربية في بغداد هي المدرسة المستنصرية والمدرسة النظامية • اذ استمرت هاتان المدرستان تدرسان على نهجها السابق في هذا العهد ، ولكن يلاحظ ان مستواهما لم يكن مستقرا ، وكان يتعرض للهبوط احيانا بسبب عدم كفاءة مدرسيهما وساهمت المساجد والزوايا والربط والمكتبات بدور مماثل في تعليم مبادىء اللغة والدين اعتمادا على ما كان يلقيه الملقنون لا المفكرون •

الا ان هذه المراكز ، التي كانت بمثابة الصلة بين الماضي والحاضر ، قد اصابها المزيد من الدمار على يد الاقوام الغازية الاخرى مثل الجلائريين والقره قوينلو والآق قوينلو • ولعل من اشد ما تعرضت له المراكز الفكرية في بغداد هو امتداد يد التخريب اليها على يد تيمورلنك الذي كما ذكر الغياثي قد (خرب المدارس والعمارات والى الان « اي القرن التاسع الهجري — الخامس عشر الميلادي » لم تعمر بغداد من ذلك الخراب) •

لم تشهد المراكز الفكرية في بغداد في العهد العثماني الاول نشاطا باكثر مما كانت عليه في العهود السابقة ، ذلك لان المصادر المعاصرة لا تزودنا بشيء من ذلك • ويبدو ان العثمانيين قد تركوا المؤسسات العلمية كالمدارس على حالها تمارس تقاليدها العلمية والتعليمية ، دون ان يعملوا شيئا لتجديدها وتطويرها • وليس ادل على ذلك من وصف نيبور للمدرسة المستنصرية التي زارها عام ١١٧٩ — ١١٨٠ هـ / ١٧٦٥ — ١٧٦٦ م حيث قال (ان بناية المستنصرية التي كانت مثار اعجاب الكتاب والمؤرخين

العـرب ، ولكـن هـذه البنايـة لـم تعـد تستعمل مسكنـا للعلمـاء ومركـزا للتعليـم وقـد اصبـح مطبخ الطـلاب والعلمـاء الذين كانـوا يسكنون ويقيمون في الجناح التابع لهذه المدرسة دارا للكمرك ، كما ان القسم الباقي في هذا المعهد وهو القسم الاكبر صار خانا ينزل فيه اصحاب القوافل).

بهذه الصورة حول العثمانيون المدرسة المستنصرية من دار للعلم الى دار للكمرك ، والى خان ينزل فيه اصحاب القوافل . وظـل حال المراكـز الفكرية هكذا حتى في القرن التالي ، ذلك لان الرحالة الاوربيين الذين زاروها قد عكسوا الصورة المذكورة نفسها .

صار في بغـداد في الثالث عشر الهجـري (القـرن التاسـع عشـر الميلادي) نوعـان من المراكـز العلميـة يسـيران في خطـين متوازيين ولا يلتقيـان عنـد نقطـة واحـدة . اولهمـا المراكـز التعليميـة التي انشأها العثمانيون لتعليم بعض العراقيين والمتمثلة بالمدارس الحديثة ، وثانيهما المراكز العلمية القديمة التي كان حظ بغداد منها في عصورها الزاهرة من اعظم الحظوظ ، فحافظ العراقيون عليها بقدر ما يستطيعون من المحافظة . وقد تخرج من هذه المراكز اكثر رجال الحركة الفكرية في العراق ، وكانـوا نتيجة رائعة للقرن التاسع عشر في هذه البلاد ، ومقدمة اكثر روعة للقـرن العشرين ، اذ كان لهم الفضل في ايقاظ الجماهير الى مساوىء الحكم التركي .

اما في الموصل فمنذ عصر المغول حتى مطلع القرن الثامن عشـر ظلت المراكز الفكرية محصورة في اطار ما يدرس في المساجد من علوم القرآن والحديث ، والكتب التقليدية التي اثقلت بالحواشي والشروح . الا انـه منذ مطلع القرن الثامن عشر تململت الموصل وشهدت بوادر حركة ثقافية وذلك بفضل ظهور الاسرة الجليلية فيها ، التي يعد ظهورها بداية لعهد الرعاية الرسمية للمراكز الفكرية ونشاطاتها .

شارك الجليليون ، رجالا ونساء في انشاء المدارس والمؤسسات الثقافية الاخرى ، بحيث ارتبطت اسماؤهم باسماء المدارس التي انشأوها ، فالمدرسة الامينية التي انشئت عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م عرفت نسبة الى محمد امين باشا الجليلي ومثلها (المدرسة العثمانية) التي سميت نسبة الى عثمان بك ابن سليمان باشا الجليلي. اما مناهج الدراسة في هذه المدارس فكانت تقوم على اساس ما عرف بالعلوم النقلية والعقلية ، وتشمل الاولى علوم الدين واللغة ، في حين تشمل الاخرى علوم المنطق والحكمة والفلك والحساب والطب ..

كان من نتائج رعاية الجليليين للمراكز الفكرية في الموصل ان برز عدد من المفكرين في مختلف مجالات المعرفة ، ادبية كانت ام علمية، بحيث بدأنا نسمع عن بروز بعض المتخصصين في الطب مثل محمد العبدلي (ت ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م) ، واخرين في الفلك مثل عبدالله الفخري (ت ١١٩٩ هـ/ ١٧٨٤ م) ، وغيرهم في الحساب مثل امين العمري . وقد لفت هذا الامر انظار الرحالة والقناصل الاوربيين ، حتى ان القنصل الفرنسي ابدى اعجابه بمكانة الموصل الثقافية عام ١٢٩٦ هـ / ١٨٧٩ م بقوله (وتؤلف « الموصل » مركزا ثقافيا بالغ الحيوية وهي من هذه الجهة فوق دمشق وبغداد وحلب ، وبوسع القاهرة فقط ان تزعم مضاهاتها) .

واحتفظت الحلة بمكانتها المهمة في الحياة الفكرية في العراق طوال عهود السيطرة الاجنبية. اذ يفهم من المصادر المعاصرة ان حلقات التدريس قد وجدت لها مستقرا في مدينة الحلة بعد سقوط بغداد على يد المغول ، ويدل على ذلك هجرة بعض كبار علماء العصر اليها ، ناهيك عن طلبة العلم الاخرين الذين قصدوها للدراسة والتحصيل . ففتحت هذه المدينة ابوابها للدارسين ، وتخرج منها مئات من العلماء والشعراء والادباء لم يكن صفي الدين الحلي باكبر منهم شأناً ، واستمرت النهضة الثقافية عظيمة في الحلة حتى انتقلت منها الى كربلاء والنجف .

واشتهرت النجف ايضا بمراكزها الفكرية العربية ــ الاسلامية التي بدأت فيها منذ منصف القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) واستمرت في هذا السبيل طوال الفترات التالية ، حتى على ايام المغول .

ويبدو ان المراكز الفكرية في النجف وكذلك الحال في كربلاء ، بقيت تحتفظ بطابعها الخاص ، الذي تميز بنمو الدراسات الدينية والادبية ، حيث بلغت الحركة الفكرية مالم تبلغه في وقت من الاوقات من النمو والانتشار ، في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وهناك مراكز فكرية اخرى في عدد من المدن العراقية الاخرى مثل البصرة وواسط واربيل ، الا ان كثيرا من هذه المراكز قد اندثرت وذلك بفعل عوامل التخريب والتدمير التي تعرضت لها على يد الغزاة المغول والاقوام التي اعقبتهم بحيث نسيت او كادت تنسى مالها من تراث عريق في العصور الاسلامية المزدهرة . الا ان قسما منها بدأ يسترجع شيئا من مكانته في اواخر القرن التاسع عشر بفضل تشجيع بعض الاسر المحلية لها .

المصـــادر

آل ياسين ، د . محمد مفيد ، الحركة الفكرية في العراق في القــرن السابــع الهجري (بغداد ، ١٩٧٩) .

الاثري ، محمد بهجة ، محمود شكري الالوسي واراؤه اللغوية (القاهرة، ١٩٥١) .

البصير ، محمد مهدي ، نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر (بغداد ، ١٩٤٦) .

جدعان ، د. فهمي ، اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث (بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩) .

حسين ، جاسم مهاوي ، تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام واثاره السياسية ١٣٨٥ــ ١٤٠٥ ، رسالة ماجستير غير منشورة (بغداد ، ١٩٧٦) .

رؤوف ، عماد عبدالسلام، الموصل فيالعهد العثماني فترة الحكم المحلي ١٧٢٦ــ ١٨٢٤ (النجف الاشرف ، ١٩٧٥) .

الصباغ ، د . ليلى ، نحو تقويم جديد للحياة الفكرية في البلاد العربية في المرحلة الاولىمنالحكم العثماني ، مجلة اوراق ، العدد الثالث (مدريد ، ١٩٨٠) .

العاني ، د . نوريعبد الحميد ، الثقافة العربية ومراكز العلم في العــراق في العهد الجلائري ، بحث غير منشور .

عبدالحميد ، محسن ، الالوسي مفسرا (بغداد ، ١٩٦٨)

العزاوي ، عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين ، الجزء الخامس (بغداد ، ١٩٥٣)

عزالدين ، يوسف ، ابراهيم صالح شكر وبواكـير النثر الحـديث في العـراق (القاهرة ،١٩٧٥) .

عزالدين ، يوسف ، بواكير الحياة الفكرية في العراق وبدايات الوعي ، مجلـة المجمع العلمي العراقي ، الجزء ١ــ٢ ، المجلد ٣٢ (كانون الثاني ، ١٩٨١) .

عزالدين ، يوسف : الشعر العراقي اهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر (بغداد ، ١٩٥٧) .

الغياثي عبدالله بن فتحالله البغدادي ، التاريخ الغياثي ٦٥٦ــ٨٩١ هـ/١٢٥٨ــ ١٤٨٦ م (بغداد ، ١٩٧٥) .

فوصيل ، بيير دي ، الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤ ــ ١٩١٤ ، ترجمة الدكتور اكرم فاضل (بغداد ، ١٩٦٨) .

نيبور رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين (بغداد ، ١٩٦٥) .

الوائلي ، ابراهيم ، الشعر السياسي في العراق في القرن التاسع عشر (بغداد، ١٩٧٨) .

البحث الثاني

علوم اللغة العربية

د. علي احمد الزبيدي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

نشأت اكثر العلوم اللسانية وغير اللسانية في العراق في اوائل واواسط القرن الثاني للهجرة وظهر في النحو واللغة منذ بداية وضعهما مذهب البصريين ومذهب الكوفيين فالبغداديين الذي كان عيالاً على الثاني . حتى اذا جاء القرن الرابع فالخامس تقدمت علوم النحو واللغة حثيثا نحو النضج والكمال وتضافرت المذاهب والمدارس النحوية واللغوية في تكوين مذهب رئيس جامع رفع علوم النحو واللغة الى الاوج فتكاملت مناهجها وانتظمت طرقها ونمت فروعها بفضل الاجيال المتعاقبة من علماء البصرة وبغداد والموصل وغيرها . ولا حاجة هنا لذكر المزيد بعد ان عرفت الكثير في الفصول السابقة من هذا الكتاب .

ولم تتوقف الحركة النحوية واللغوية بعد سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ الا انها ضاقت وضعفت وانعكست فيها آفات التخلف الناجمة عن الاحتلال المغولي . غير أن بعض السمات والظواهر السلبية في الدراسات والمباحث اللغوية والنحوية ظهرت قبل سقوط الخلافة او منذ اوائل المئة

السادسة كما يرى الاستاذ طه الراوي وغيره من الباحثين نذكر منها اتجـاه معظـم النحويـين واللغـويين الى الايجـاز والتلخيص ووضـع المتـون المقتضبة الغامضة والمنظومات التعليمية والاكثار من شرحها واتباعها بالحواشي والهوامش والتقارير والتعليقـات والعجز عن اضافة جديد يستحق الذكر والاعادة والتكرار والايغال في عرض المسائل النحوية واللغويـة الفرعيـة وتكديس ما قيل فيها من آراء واحكام وشواهد تشغل الدارس عن الاصول وتضييعه بين الفروع •

وكان من ابرز النتائج الناجمة عن الاحتلال المغولي فقدان علماء العراق ميزة الريادة والمشيخة او السيادة العلمية او وفاة عدد من شيوخهم قبيل الاحتلال واستشهاد كثير من العلماء في اثناء حملات المغول الوحشية على المدن العراقية الكبيرة وامعانهم في الاستباحة والقتل والاسر والتخريب واضطر عدد كبير آخر الى الهجرة الى الشام ومصر والحجاز وغيرها حاملين ما يستطيعون من كتبهم طلبا للنجاة والاستقرار والهدوء الملائم للدرس والبحث • ومع أن النشاط قد عاد بعد الاحتلال بسنوات وظهرت بعض الشخصيات العلميـة واستأنفت المستنصرية وبعض المدارس الاخرى عملية التدريس والبحث الا ان العزلة التي فرضها المغول على العراق واستمرار الاحتلال والضغط كان قد اضعف حيوية الحياة العلمية وضيق مجالات تحركها ، في حين ان ما نجم عن الغزو المغولي من نتائج وظروف سياسية واجتماعية واقتصادية ونفسية ، ولعوامل اخرى يطول شرحها رأينا النشاط في اللغة والنحو والصرف والبلاغة وغيرها يزداد حركة وحيوية واتساعا في الشام ومصـر الخاضعتين لحكـم المماليك • فانقلب الحال وصار علماؤها ومَنْ هاجر من علماء العراق وغيره هم الشيوخ والاساتيذ كابن الحاجب وابن مالك وابنه بدرالدين المعروف بابن الناظم وابن النحاس وابي حيّان وابن هشام والسيوطي • وعجز علماء العراق في النحو وعلوم اللغة عن منافستهم طيلة القرون الثلاثة الممتدة بين

الاحتلال المغولي سنة ٦٥٦ هـ والاحتلال العثماني للعراق والشام في اوائل واواسط القرن العاشر . لقد تبدل الوضع كما قلنا وغدا علماء العراق تلامذة لمن ذكرنا من علماء الشام ومصر يشرحون مؤلفاتهم ومنظوماتهم في النحو واللغة ويكتبون لها الحواشي والهوامش والتقارير . كان من ينبغ من العراقيين يدرك سريعا ان مجالات الحياة الكريمة المنتجة ضيقة جدا في ظل الارهاب والاحتلال فيعمد الى الهجرة ويحظى بالشهرة كما فعل صفي الدين الحلي الشاعر الاديب من القرن الثامن وعبدالقادر البغدادي صاحب خزانة الادب الشهيرة في القرن العاشر للهجرة وعلماء اخرون اقل شهرة ذكرهم اصحاب التراجم ومؤرخو الحياة الادبية والثقافية في مصر والشام في العصرين المملوكي والعثماني .

ولم تسمع منذ القرن الثامن بعالم من بغداد او الموصل او واسط والحلة وغيرها يقارن بابن هشام وابي حيان والسيوطي ، فاذا وجد فإن مؤلفاته لن يكتب لها الذيوع والانتشار وشهرته لن تتجاوز العراق ، وندر جدا ظهور شخصية نحوية او لغوية او ادبية تضاهي شخصيات العصر العباسي الاخير كالصاغاني صاحب (العباب) ، والزنجاني صاحب التصريف المشهور بـ (العزّي) ، وابن ابي الحديد ، وابن الاثير وغيرهم ، ناهيك عن الاسلاف العباقرة من علماء العراق المبدعين كابي الفتح بن جنّي واستاذه ابي علي والتبريزي والزمخشري وغيرهم من الذين مر ذكرهم في الفصول والاجزاء السابقة . فمن الطبيعي ان تؤدي هذه الاسباب والاوضاع والتطورات الى خمول ذكر علماء اللغة والنحو والادب في العراق خلال عصري الاحتلالين المغولي والعثماني ، والى ضياع اغلب مؤلفاتهم واثارهم وشحة اخبارهم وغموضها . حتى ان اصحاب التراجم المتأخرين لم يذكروا عنهم وعن مصنفاتهم الا النزر اليسير ، بل ان المختصين والمعنيين بتراجم النحاة واللغويين

والادباء وطبقاتهم عجزوا عن تقديم تراجم عراقية كثيرة اما تراجم القلة من علماء العراق التي حرروها فجاءت ضحلة شديدة الاقتضاب ٠

وخير شاهد على ذلك كتاب بغية الوعاة للسيوطي فهو يخص تراجم اللغويين والنحويين والادباء من العراقيين المتأخرين بسطور او أسطر ينقل اكثر موادها عن الدرر الكامنة لابن حجر مع ان مواد الدرر نفسها شديدة الاختصار ٠ وينطبق هذا على ابن العماد في شذرات الذهب وعلى اغلب اصحاب التراجم المتأخرين ان لم نقل كلهم كالسخاوي والمجبي والخفاجي وابن معصوم واشباههم ٠

وكانت اولى النتائج الخطيرة لهذه الحال ان المصادر المتوفرة لدينا لا تسعفنا في كتابة تاريخ مفصل للنحو واللغة وعلومها بل للحركة الفكرية والثقافية في العصور المتاخرة ٠ فبقيت تواريخها شبه مجهولة واصبحت دراستها من اكثر المباحث صعوبة وعسرا ٠ حتى ان تواريخ الادب الحديثة التي صنفها زيدان والرافعي والزيات والمقدسي والبستاني وعمر فروخ وغيرهم قلما تنفع الباحث أو تمده بما يفي بالغرض ٠٠ بل ان اضخم كتاب في تاريخ الادب والثقافة وهو تاريخ الادب لبروكلمان لا يذكر من علماء النحو واللغة من العراقيين في القرن السابع والثامن نجد ابن اياز الذي خصه باسطر ولا نجد بغيتنا حتى في الدراسات الخاصة بتاريخ علوم العربية نفسها فشوقي ضيف يتوقف في كتابه (المدارس النحوية) عند الرضي الاسترابادي ٠

ولا يلام ضيف على ذلك فهو يؤرخ المدارس النحوية وابن اياز وغيره وحتى الاسترابادي لم يضيفوا شيئا الى تراثها المعروف ٠ ولم يقدم ضيف مادة كافية عن الحركة النحوية واللغوية في العراق في العصرين المغولي والعثماني في كتابه الاخير (عصر الدول والامارات) ٠ فبعد ان تطرق الى بعض اللغويين والنحاة كابن الزنجاني آخر الذين ذكرهم ٠ ثم جره السياق الى العصور

المتأخرة فقال : ومن نحاة القرن السابع ايضا جمال الدين الحسين بن بدر بن اياز البغدادي ت ٦٨١ هـ ، وكان يتولى مشيخة النحو في المستنصرية ، وله كتاب القواعد في النحو ، ولا توجد منه سوى مخطوطة بدار الكتب المصرية كتبت سنة ٦٧٨ هـ • وله ايضا المحصول من شرح الفصول لابن معطي ، وشرح التصريف لابن مالك ، ومسائل الخلاف في النحو • ومن النحاة المهمين بدرالدين الاربلي المتوفى سنة ٧٥٥ هـ وله حواش على كتاب التسهيل لابن مالك ، وشرح الكافية لابن الحاجب وآخر على كتابه الشافية » ويقفز شوقي ضيف من القرن الثامن الى القرن الثاني عشر للهجرة فيذكر الشيخ عبدالله السويدي وكتابه اتحاف الحبيب على مغني اللبيب ثم يقول : ويكثر الشارحون للالفية ولقطر الندى لابن هشام وغيرهما من متون النحو كما يكثر من يصنفون الحواشي ، ونكتفي بذكر مثال هو ابراهيم الحيدري المار ذكره •• فله حاشية على كتاب سيبويه واخرى على شرح ألفية ابن مالك للسيوطي ، وحاشية على شرح الشافية لابن الحاجب للجاربردي ، وتقرير على حاشية عبدالحكيم الهندي على حاشية عبدالغفور اللاري على شرح الجامي لكافية ابن الحاجب ، وشرح على كتاب الاقتراح للسيوطي • (انظر ص ٢٩٨ من كتاب عصر الدول والامارات لشوقي ضيف) وكان قد اشار قبل ذلك الى ابن الساعي المؤرخ وشرحه لفصيح ثعلب والزنجاني المتوفى قبل العصر المغولي ٦٥٦ هـ ليعبر بعدهما القرن الثامن والتاسع والعاشر ليذكر البغدادي م ١٠٩٣ هـ وشرحه لكافية ابن الحاجب الذي حوله الى موسوعة لغوية وادبية وسماه «خزانة الادب ولب لباب لسان العرب» ويؤكد ان ما كان يكتب في اللغة والنحو بأي بلدة من البلدان كان ينقل الى بغداد وغيرها من الحواضر ، فالعالم العربي واحد ، وكل ما ينتجه بلد في علم من العلوم تتناقله البلدان العربية الاخرى •

ولعل خير من صور غموض تاريخ النحو وعلوم اللغة في العراق في العصر المغولي الدكتور ناجي معروف رحمه الله ، ففي الفصل الاول من الباب السابع من كتابه تاريخ علماء المستنصرية يقول : لقد اقرأ العربية بالمستنصرية وتولى مشيخة النحو والادب فيها العلماء الآتي ذكرهم ، وهم فيما نعتقد أقل بكثير مما كان يجب ان نعثر عليه فيها من ادباء ونحويين ولغويين نظرا لاهمية العربية عند القوم واعتبارها اساسا للتفسير والحديث والفقه وبقية العلوم . على ان كثيرا من المدرسين كانوا يشاركون في علوم مختلفة وكان الواحد منهم يبرز في اكثر من علم .. أ هـ » وقد ذكر بعد ذلك سبعة من شيوخ العربية خص كلا منهم بفقرة هبطت الى سطرين عن ابن القواس الموصلي . والعلماء السبعة هم : يعقوب بن يوسف الانصاري النحوي المولود سنة ٦٤١ هـ قبيل سقوط الخلافة . وقد نقل الاستاذ ناجي الاسطر الاربعة عنه من بغية الوعاة للسيوطي الذي قال : كذا ذكره ابن رافع ، قرأ على البدر بن مالك التسهيل لابيه (يعني بدرالدين بن الناظم) وعلي ابن اياز والفخر ابن مقلة الاربلي النحوي ودرس بالمستنصرية ولم يذكر سنة وفاته ومن شعره :

يــامن يميزنـــي لا تــزدري خُلقــي
بل اسأل النـاس عن خلقــي وعن خُلقي
امـا تـرى الـدر وسط البحـر مسكنه
وقــد كســاه جلابيبـا مــن العلـــق

وواضح ان هذا الشعر ضعيف مهلهل النسج مبذول المعنى فالدر في قعر البحر لا في وسطه كما يقول فضلا عن الضرورة الشعرية في صرف (جلابيب) يلجأ اليها عالم بالنحو واللغة وان كانت جائزة في الشعر .

وثاني العلماء السبعة ابن القواس عزالدين الموصلي (٦٢٨ ــ ٦٩٦ هـ) وهو معيذ ولكنه ذكر مع شيوخ المستنصرية وقد قرأ النحو على ابن أياز وشرح

(الدرة الالفية) لابن معطي وكتاب الانموذج في النحو (لعله كتاب الزمخشري) والثالث هبةالله الذهلي الشهرباني ت ٦٨٢هـ وكان عالماً بالرياضيات ويقرض الشعر ويتعاطى النحو واللغة وقد رتب مدرسا للنحو سنة ٦٨٢ هـ وفي السنة نفسها سقطت عليه داره في ليلة مطيرة فهلك هو وزوجه واولاده . ولم تذكر له مصنفات او شرح . والرابع ابن الصيقل الجزري صاحب المقامات الزينية المعروف ت ٧٠١ هـ . ولم يذكر له الاستاذ ناجي مصنفا في النحو واللغة وايد ذلك د . عباس الصالحي الذي حقق المقامات وعد الملاحظات اللغوية والنحوية الواردة في متن المقامات دليلا على علمه باللغة والنحو . وهو دليل ضعيف لان الملاحظات المذكورة من النوع الذي يعرفه طلاب النحو واللغة لا شيوخها . واقوى من هذا الدليل اشارة الدكتور الصالحي الى كثرة من قرأ المقامات علي الجزري من علماء اللغة والنحو والادب في المستنصرية نفسها .

وخامسهم ابن اياز وقد مر ذكره . والسادس ذو الفقار القرشي (٦٣٣ ــ ٦٨٥ هـ) وهو نحوي درس بالمستنصرية ولم تذكر له مصنفات وقد ذكره السيوطي في البغية .

وسابع شيوخ النحو واللغة بالمستنصرية ابن الفصيح الكوفي وهو فخرالدين احمد بن علي الحنفي النحوي الكوفي البغدادي ويبدو انه ابرز شخصيات اواخر المئة السابعة واوائل الثامنة واشهرها بدليل ورود ترجمته في اهم مصادر العصر كمنتخب المختار ، والدرر الكامنة والجواهر المضية والمنهل الصافي وتاج التراجم والنجوم الزاهرة وبغية الوعاة .. الخ وقد ساق الدكتور ناجي معروف معلومات جيدة عنه انصبت على نشاطه في الحديث والفقه ايضا . وقد ولد بالكوفة سنة ٦٨٠ هـ كما ذكر الصفدي ونشأ بها وسافر الى دمشق سنة ٧٤١ هـ وتوفي بها سنة ٧٥٥ هـ . وكان له صيت ذائع في العراق والشام وانتهت اليه رئاسة الحنفية ووصف ايضا بانه شيخ النحاة في بغداد . وواضح ان ما ذكره الاستاذ ناجي معروف يلقي الاضواء على الحركة النحوية

واللغوية في بغداد مدة غير قصيرة انتهت بتعطيل المستنصرية اوائل القرن التاسع . ويسهم الاستاذ عباس العزاوي رحمه الله اسهاما فعالا في تصوير هذا النشاط في النحو وعلوم اللغة في كتابه (تاريخ الادب في العراق)فقد جمع تراجم علماء عديدين وذكر مصنفاتهم وبهذا يغني الباحث عن مراجعة كتب التراجم لتتبع المسيرة النحوية واللغوية وغيرها بين سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ واخر العهد العثماني . ولكن العزاوي يفتقر الى المنهج العلمي في اعماله . ففيما يخص العصر المغولي الذي دام نحو ثلاثة قرون ذكر ثمانية وعشرين (عالما باللغة) حسب تعبيره ، وتسعة وعشرين عالما بالنحو والصرف على حد قوله ايضا . وخمسة عشر وصفهم بانهم علماء بالبلاغة وقسم كبير من هؤلاء ليس لهم مؤلفات لاقتصارهم على التدريس . وقد حشر مع علماء العصر المغولي الزنجاني صاحب التصريف وابن ابي الحديد ، والموفق بن الفوطي (وهو غير ابن الفوطي المؤرخ) والصرصري الشاعر الضرير ، وشعلة الموصلي وكلهم توفوا او قتلوا سنة ٦٥٦ هـ او بعدها ببضع سنين . فهم اذن من علماء العصر العباسي الاخير لا المغولي . فاذا اضفنا اليهم الذين لم تذكر لهم مصنفات في اللغة والنحو كابن يوسف الموصلي (٥٩٨ ــ ٦٧١ هـ) وامثاله ، والذين غلب عليهم الشعر او الحديث او البلاغة ولكنه يضعهم مع اللغويين مرة ، ومع النحاة تارة ، ومع البلاغيين كرة اخرى ويكرر الترجمة لهم . وسبب ذلك زيادة على الرغبة في تضخيم الكتاب تصور العزاوي وجود الاختصاص الدقيق في حين يؤكد الباحثون ان علماء العربية يجمعون بين علومها اللسانية وقلما اختص عالم بأحدها وكثير منهم يبرز ايضا في علوم اخرى كالحديث والفقه والتفسير وغيرها . وجملة القول ان مجموعة العزاوي تتضاءل عند التدقيق .

وقد كان اكثر علماء عصر الاحتلال انتاجا مخضرمو الدولتين كما هي الحال في الادب ، ومن اشهرهم ابن الساعي المؤرخ المعروف (٥٩٣ ــ ٦٧٤ هـ) فله شرح الفصيح لثعلب وثلاثة شروح لمقامات الحريري صغير ومتوسط

وكبير في عشرين مجلدا . وهذا النشاط في الشروح يجعلنا نتحفظ في تحديد مدى علمه باللغة فالشروح ليست من قبيل المباحث اللغوية الاصيلة وانما هي مظهر من مظاهر التحصيل اللغوي والادبي والثقافي الواسع ، فشرح ديوان او كتاب مختارات او مقامات لا يقرن بكتاب الايضاح للفارسي والخصائص لابن جني وامثالهما . والذين ذكرهم العزاوي من علماء اللغة كانوا من طراز ابن الساعي بل اقل نشاطا منه ، فابن الظهير الاربلي ت/ ٦٧٧ هـ تصدر لاقراء العربية واشتهر بالشعر ولم يؤلف في اللغة . وظهير الدين الكازروني م / ٦٩٧ هـ ليس له سوى منظومة تعليمية لرسالة (أسماء الاسد) للصاغاني فما هو شانه باللغة وعلومها ؟ والرشيد السلامي م / ٧٠٧ هـ كان فقيها ولم يعرف له تأليف في اللغة . ومع ذلك فهو (يعد من علماء اللغة) عند العزاوي . وجلال الدين الكازروني كان فقيها ايضا ولم يؤلف شيئا في اللغة او النحو . اما نجم الدين الطوفي فقد هجر العراق واقام في القاهرة وتوفي في فلسطين وله بعض النشاط اللغوي بدلالة شرحه لمقامات الحريري في مجلدات كما صنف كتابا مفقودا اسمه « تحفة اهل الادب في معرفة لسان العرب » ورسالة في اللغة اسمها « الرياض النواضر في الاشباه والنظائر » وصفي الدين محمود الارموي ربما كان اعلم من سالفي الذكر باللغة لانه صنف تهذيب « المحكم » لابن سيده وقد ضاع . والباقون الذين ذكرهم العزاوي رحمه الله على هذه الشاكلة مثل تقي الدين الداقوقي م / ٧٢٣ هـ وتقي الدين الزريراني ت / ٧٢٩ هـ وسراج الدين الدجيلي ت / ٧٣٢ هـ ، والجعبري ت / ٧٣٢ هـ وهو مهاجر مات في مدينة الخليل بفلسطين . ونحن لا نلوم العزاوي على اعتبارهم علماء باللغة فهم من اهل اللغة والمهتمين بها حقا ولكن مستواهم وقلة تآليفهم وتصانيفهم وضآلة قيمتها العلمية وعجزها عن الابداع والاضافة، واقتصار كثير منهم على التدريس لا التأليف كل هذا يدل دلالة قاطعة على

تخلف الدراسات اللغوية والنحوية في العصر المغولي عما كانت عليه في العصر العباسي الاخير تخلفا لا يحتاج الى دليل .

والذين يستحقون الاهتمام من علماء اللغة في العصر الجلائري : ابن الاكفاني السنجاري ت /٧٤٩ هـ وله (ارشاد القاصدالي أسنى المقاصد) يبحث فيه نشأة اللغة وتاريخها وقد طبع في الهند ومصر وهو فيه عيال على العلماء السابقين ينقل عن مصنفاتهم ويذكر اكثرها كالمجمل لابن فارس وديوان الادب للفارابي ، والجامع للازهري ، والعباب للصاغاني وغيرها .

والمذكورون هم ابرز المشتغلين باللغة والشروح في العصر المغولي ويصح ان نضم اليهم الفيروزابادي الذي اقام ببغداد عشر سنوات من ٧٤٥ ــ ٧٥٥ هـ وهي مرحلة تكوينه العلمي وكان قد جمع اغلب مواد قاموسه ووضع بعض مصنفاته في بغداد .

وقد اشرنا الى ابرز النحاة ، ويمكن ان نضيف هنا ما صنفوه فابن القواس الموصلي ت/٦٩١هـ شرح الانموذج للزمخشري ودرة الغواص للحريري والفية ابن معطي . وركن الدين الاسترابادي ت/ ٧١٥ هـ شرح الشافية وشرح الكافية لابن الحاجب . وبدرالدين الاربلي ت / ٧٥٥ هـ شرحهما ايضا وكتب حاشية على التسهيل لابن مالك . ويحيى الكوفي وضع (مفتاح الالباب لعلم الاعراب) وزين الدين الموصلي المعروف بابن شيخ العوينة ت/ ٧٥٥ هـ له شرح التسهيل . وكل هؤلاء من العهدين الايلخاني والجلائري اي من علماء القرنين السابع والثامن . ولم يظهر في العهد التركماني (٨١٤ ــ ٩٤١ هـ) من يستحق الذكر من العلماء الا الفيروز ابادي صاحب القاموس وكان قد ترك بغداد قبل هذا العهد الاخير بنصف قرن .

ويمكننا ان نؤكد هنا ان حركة الدرس والتأليف انحدرت الى الضعف والضيق فهي كانت اعلى بمستوى من اوائل العصر

واواسطه بفضل مخضرمي الدولتين العباسية والمغولية ومن تلمذ لهم ثم اطرد الوهن فيها بعد ذلك وبخاصة في آخر العهد الجلائري وطيلة عهدي التركمان وان نحاة ولغويي العصر لم يضيفوا جديدا او ينفردوا باجتهادات ومباحث ذات قيمة ولهذا قلما نجد ذكرا لاحدهم في دراسات كبار النحاة المتأخرين من الشاميين والمصريين والاندلسيين كأبي حيان وابن هشام والسيوطي وابن مالك وابنه بدرالدين المعروف بابن الناظم وغيرهم وقد لاحظنا ان جلّ نشاطهم قد انصب على التدريس في مدارس بغداد والموصل وواسط واربل ، ولعل هذا من اسباب الحدّ من الاجتهاد والاضافة لتقيدهم بالخطط والاغراض التعليمية وتصانيفهم على قلتها القليلة اقتصرت على شرح مصنفات ابن الحاجب كالكافية والشافية وابن مالك كالالفية والتسهيل والتصريف وغيرها ولم يظهروا اهتماما يستحق الذكر بمؤلفات مشاهير رجال اللغة والنحو في العصر العباسي الاخير ، ونظرة الى مؤلفاتهم تؤكد ذلك فقلما عنى احدهم بشرح مصنفات الزمخشري واين الدهان وابن الانباري فضلا عن مشاهير العلماء الرواد كابن جني واستاذه الفارسي وابن الشجري وغيرهم • ثم ان نشاطهم المحدود قد انحصر في العراق الذي عزله المغول تقريبا عن البلاد العربية فكان هذا من اسباب تطلع العراقيين الى علماء مصر والشام والمبادرة الى شرح مصنفاتهم او وضع الحواشي لها فتتاح لهذه الاعمال فرص الانتشار والرواج بعد ان اجتذب شيوخ الشام ومصر انظار علماء اللسان العربي في المشرق والمغرب •

عصر الاحتلال العثماني

٩٤١ ـ ١٣٣٥هـ / ١٥٣٤ ـ ١٩١٧م

ويقسمه المؤرخون الى ثلاثة اعصر ، الاول او العثماني القديم (٩٤١ ـ ١١٦٢ هـ) والثاني او عصر المماليك وينتهي سنة (١٨٣١) والعصر العثماني الاخير او الثالث المنتهي بالاحتلال البريطاني لبغداد سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٧ م •

ولا اهمية لهذا التقسيم السياسي في تاريخ العراق الثقافي والادبي والعلمي لان طابع التخلف والعجز عن الاضافة والتغيير والتجديد كان عاما شاملا طيلة هذا العصر الطويل وازدياد النشاط في الحركة العلمية بما فيها حركة الدرس والتصنيف في علوم اللغة في العصر الثاني و لاسيما في آخره ايام داود باشا او بعد ذلك لم يحدث تحولا او تطورا خطيرا في الميادين العلمية والثقافية ولا سيما في الدراسات اللغوية والنحوية المختلفة ، وقد اشرنا الى ذلك في فصل الادب وفيما ذكرناه عن العصر المغولي في هذا الفصل • وقد لاحظنا ان الحياة الثقافية قد هبطت الى ادنى المستويات خلال عهد التركمان منذ بداية القرن التاسع ثم ازدادت هبوطا وتأخرا وجمودا في القرن العاشر لتوالي النكبات والكوارث وكانت اشدها وطأة الغزو الايراني الصفوي في اوائله وما انزله بالعراق واهله من ويلات الحرب والدمار والعصبيات والفتن المذهبية العمياء

ولم تتحسن الاحوال الثقافية والعلمية بعد تدخل العثمانيين ونجاحهم في دحر الصفويين واحتلال بغداد سنة ٩٤١ هـ بقيادة سليمان القانوني ، فقد استمر النزاع الصفوي ــ العثماني وتوالت المعارك ، ونجح الصفويون في احتلال بغداد ثانية في مطلع القرن الحادي عشر ثم تمكن السلطان مراد الرابع من القضاء عليهم واستعادة بغداد والعراق للعثمانيين سنة ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨م ومن الطبيعي ان تزداد الحياة العلمية ضيقا وجدبا في غمرة تلك الاحداث الدامية ، وان يخيم عليها غموض كثيف ، ثم ان المتنازعين على العراق فرس واتراك لا تهمهم العربية وادابها وعلومها • وزاد الطين بلة استجابة الفرس والعثمانيين لنزعاتهم القومية فنشر الفرس لغتهم خلال حكمهم القصير واستفحل سلطان التركية بعد تغلب العثمانيين فكانوا يشجعون من يكتب او يؤلف بلغتهم ، واسهمت هذه العوامل المختلفة في تقلص سلطان العربية ، فقلّ طلابها وعلماؤها وتضاءل نتاجهم في علومها اللسانية من نحو

وصرف وفقه لغة واشتقاق .. الخ وضاع القليل الذي جادت به عقولهم المنهوكة ونفوسهم الكليمة فلم يصل الينا منه الا القليل ، وكاد ينعدم الاهتمام بجمع تراجم العلماء العراقيين وتدوين اخبارهم واسماء مؤلفاتهم ، وصار جلّ اعتمادنا على ما التقطه اصحاب التراجم من علماء الشام ومصر كالغزي والمحبي والخفاجي وابن معصوم وابن العماد وغيرهم . والغالب على ما دونوه شدة الايجاز وقلة الفائدة والحق ان الغموض وشحة الاخبار وقلة المصادر عقبة كأداء في تاريخ الثقافة والعلوم العربية منذ سقوط بغداد والخلافة سنة ٦٥٦ هـ ، ثم ازدادت المشكلة تعقيدا في العصر المغولي فلما كلكل عهد الاحتلال العثماني تراكمت الظلمات الحالكة وتعذر على المؤرخ جمع المواد الكافية ، اما الباحث في اللغة والنحو وعلوم العربية الاخرى فعذابه اشد لان الاهتمام بتاريخها وطبقات رجالها وتراجمهم توقف او كاد . وكأن ما صنفه السيوطي في القرن العاشر ايذان باختتام التصنيف في هذا الباب .

وشكى المؤرخون والباحثون المعاصرون كثيرا من هذه المصاعب والمشاكل العملية والعلمية وفي مقدمتهم الاستاذ عباس العزاوي وتراجم علماء العصر العثماني الاول خير شاهد على شكواه ، فعدد الذين ضمهم كتابه منهم لا يزيد عن عشرة رجال بعضهم لا يستحق الذكر كالشيخ علي السنباني المتوفى في مطلع القرن الحادي عشر ، فليس له سوى شرح قصيدة تقليدية جافة نظمها والده في مدح امير المشعشعين سنة ٩٦٣ هـ . ومثله محمد بن عبدالملك البغدادي ت / ١٠١٦ هـ ، ولولا هجرته واقامته في دمشق منذ سنة ٩٧٧ هـ لما عرفنا عنه شيئا . فكأن علماء بغداد والعراق في اللغة قد ضرب عليهم بنطاق فخمل ذكرهم ولم نعثر حتى على اسمائهم كما يقول العزاوي وقد ابدى العزاوي بشأن هذين المذكورين ملاحظة دقيقة صحيحة سبق ان رددناها هنا فبعد ان اكد ان البغدادي لم تظهر له

آثار قال : فما هي قيمة شخصية لم تضف شيئا الى التراث اللغوي ؟ ماذا اضاف الى دخائر الماضي ؟ وماذا ابقى للاجيال القادمة ؟

وافضل من السنباني والبغدادي علي بن احمد الهيتي وكان حيا سنة ١٠٢٥ هـ ، وهو من علماء اللغة البارزين في عصره ، وقد صنف مختصرا للقاموس المحيط يشبه مختصر الزنجاني لمعجم الصحاح للجوهري . ومثله محمد بن احمد الاحسائي المتوفى ببغداد سنة ١٠٨٣ هـ ، وله حاشية على شرح السيوطي للألفية وكتاب آخر اسمه التعريفات ، وكان اديبا ايضا ، وله شعر قليل ، وكان يدرس بمدرسة عرفت باسمه في بغداد (مدرسة الاحسائي) وسميت بعد ذلك بالتكية الخالدية لان الشيخ خالد النقشبندي رأس الطريقة الصوفية المعروفة باسمه قد اقام فيها . وممن اشتغل باللغة حيدر بن علي المعروف بشمس الدين ، وهو من شمال العراق موطن اربل . وقد وضع معجما لالفاظ القرآن الكريم شرحها بالعربية والتركية أكمله سنة ١٠٦٢ هـ ، وتوجد منه نسخة في خزانة الدكتور اسعد طلس . ومنهم محمود الموصلي م / ١٠٨٢ هـ وله تصانيف باللغات الثلاث لم تصل الينا . وقد غلب عليه الفقه فارتقى الى منصب الافتاء في الموصل ويصعب تحديد منزلته في علوم اللغة على الرغم من قول مترجميه بأنه عالم بالعربية لضياع مصنفاته . ولا نستطيع ايضا ان نعد من علمائها فخرالدين الطريحي م / ١٠٨٥ هـ الذي وصفه العزاوي بانه لغوي اديب لان الطريحي كان فقيها محدثا وكتابه (مجمع البحرين) وهو عنوان لكتب كثيرة في علوم مختلفة يعنى باللغة من حيث صلاتها بالحديث ومصطلحاته وبأصول الفقه .

ومن الذين انصب اهتمامهم على اللغتين الفارسية والتركية اضافة الى العربية حسين آل نظمي البغدادي م / ١١٣٠ هـ الموصوف بأنه من نوابغ اللغات العربية والتركية والجغتائية والمغولية والفارسية . ويبدو ان علمه بالعربية كان غزيرا فقد تلمذ له فيها الشيخ عبدالله السويدي أشهر

علماء عصر المماليك التالي واخذ السويدي عن نظمي ايضا علوم التفسير ومصطلح الحديث والبلاغة وقد وصل من مؤلفات نظمي (لغات تاريخ وصاف) وليس فيه سوى تفسير اللفظ الفارسي المأخوذ من العربية ، وتوجد منه نسخ في تركيا وايران ولم يعثر على مؤلفاته الاخرى •

ويمكن ان نضيف الى هؤلاء نعمة الله الجزائري وله (فروق اللغات) يعنى فيه بالمشترك والمترادف •

أما اشهر علماء العصر العثماني الاول فهو بلا ريب عبدالقادر البغدادي فهو احسن المتأخرين معرفة باللغة العربية كما قال المحبي في خلاصة الاثر وغيره • وهو اكبر علمائها وادبائها في العراق والبلاد العربية ولكنه غادر بلده واقام في مصر وكتب مؤلفاته الكثيرة هناك • وقد ترجم له كثيرون كما كتبت عنه اغلب مؤرخي الادب واللغة من المحدثين والمعاصرين • ومن مؤلفاته :

١ ــ خزانة الادب ولب لباب العرب ، وطبعت بعدة طبعات •

٢ ــ شرح شواهد الشافية •

٣ ــ شرح شواهد المغني منه نسخة في اياصوفيا برقم ٤٤٨٩ •

٤ ــ شرح بانت سعاد

٥ ــ شرح شواهد مقصورة ابن دريد

٦ ــ رسالة في معنى التلميذ وقد حققها وطبعها عبدالسلام هارون في كتابه نوادر المخطوطات •

٧ ــ تعريب تحفة الشاهدي للعالم التركي ابراهيم دده المولوي م ٩٥٧/ هـ وشرحه بالعربية ومنه نسخة في مكتبة العزاوي ونسختان في الخزانة التيمورية •

٨ ـ لغات الشاهنامة تناول فيه غريب الالفاظ الفارسية وشرحها بالعربية وقد طبعت في لننغراد بروسيا عام ١٨٩٥ م على نسخة بخط المؤلف كتبها في ادرنه بتركيا سنة ١٠٨٢ هـ .

ومصنفات ورسائل اخرى يطول ذكرها .

* * *

واهم ما يميز العصر العثماني الاول قلة المشتغلين بالنحو وعلوم اللغة وندرة العلماء المتبحرين والموهوبين واصحاب الانتاج الجيد الغزير . والعجز عن اضافة اي جديد الى التراث اللغوي .. ومزاحمة اللغتين الفارسية والتركية للعربية واجتذابهما طاقات عدد من علماء اللغة ولا سيما التركية لانها لغة المحتل المسيطر . واستمرار اتجاه النشاط النحوي الى شرح مصنفات نحاة الشام ومصر كما أشرنا سابقا واستمرار هجرة اللامعين الى مصر والشام لان ظروف العراق السيئة لا يحتملها طموحهم وخير مثال على هؤلاء عبدالقادرالبغدادي صاحب خزانة الادب .

ولم تكن هذه الظاهرة ضيقة او فردية بل كانت موجة عامة بدليل كثرة العلماء المهاجرين من العراقيين الذين ذكرتهم المصادر المتأخرة .

ومن خصائص هذا العصر ايضا شدة تأثر اللغتين التركية والفارسية بالعربية وهو تأثر قديم ولكنه اتسع واشتد في هذا العصر وبخاصة تأثر التركية بالعربية لحداثة الأخيرة وفقرها اللغوي وفراغها الادبي ولطول امد الاحتلال التركي وغير ذلك . ومن دلائل هذا التأثر والتأثير ظهور المعاجم المشتركة والدراسات المقارنة وازدياد عدد اللغويين الذين يؤلفون بلغتين او ثلاث . وبينما كان تأثير العربية ايجابيا في اللغتين الفارسية والتركية اذ زاد من ذخائرهما اللغوية والنحوية كان تأثيرهما في العربية سلبيا اذ كثرت مفرداتهما في اللغة الدارجة وانعكس ذلك في لغة الكتابة والتأليف فكثرت الصياغات الركيكة

والتعابير الضعيفة الملتوية وتهلهلت الاساليب الشعرية والنثرية • وخيرمايصور هذه الظواهر اللغوية والادبية السلبية اسلوب كبار شعراء العصر في اللغات الثلاث الذين تحدثنا عنهم في فصل الادب كفضولي وابنه فضلي وغيرهما •

ومن خصائص هذا العصر أيضا ان الاهتمام بعلوم العربية كان أظهر واقوى واوسع في النجف والحلة والبصرة والموصل وشمال العراق الذي كان ينجب نخبة من العلماء بالنحو والعربية وعلوم البلاغة من بين اخواننا الاكراد انفسهم • وعلة ذلك اتخاذ الاجانب من بغداد مركزا لسلطتهم الاعجمية وتجمع اعوانهم وانصارهم فيها وتوالى الكوارث والنكبات على ابنائها •

وفي اخريات العصر العثماني الاول تحركت الحياة اللغوية والعلمية العربية بعض التحرك في البصرة والاحواز لقيام امارة آل افراسياب شبه المستقلة في البصرة ونواحيها واستقلال دويلة المشعشعين بالاحواز العربية وأطرافها • وكان امراؤها يكرمون من ينبغ فيهما من علماء العربية وادبائها وشعرائها لاسباب ودوافع قومية وسياسية ودينية •• وقد مر بنا في فصل الادب رعايتهم لعبد علي الحويزي اشهر شعراء العصر وادبائه وعلمائه من قبل الامارة الافراسيابية • ويمكن ان نضيف الى خصائص هذا العصر غلبة النهج المدرسي السلفي على الدراسات ، فالدرس النحوي واللغوي كاد ينحصر في المدارس والربط وحلقات بعض المساجد • ولم تكن المدارس كبيرة حسنة التنظيم حافلة بكبار العلماء ومشاهير الشيوخ والمدرسين وجموع الطلبة كما كانت الحال في النظامية والمستنصرية من قبل • ولاريب في ان النهج المدرسي التقليدي وما فرضته ضرورات التدريس والتلقين كان من اسباب رتابة التأليف النحوي واللغوي وما سادفيه من ضيق واختصار وتعكز على مصنفات المتأخرين وكثرة استعمال المنظومات التعليمية السابقة ونظم اخرى أقل فائدة واشد غموضا ، ثم اشباعها شروحا وحواشي وهوامش وتقارير وتعاليق •

وفي عصر المماليك العثمانيين او العصر العثماني الثاني كما يسمى ايضا

دب" بعض النشاط والحيوية في الدراسات العلمية واللغوية المختلفة لخروج مماليك العراق على السلطنة العثمانية في اسطنبول وانفرادهم بحكم العراق وتصرفهم بخيراته التي مازالت وافرة على الرغم مما انثال عليه من كوارث الحرب والدمار والخراب والفيضان والوباء .. الخ وثمة عامل آخر هو رغبة الحكام في الافادة من نفوذ العلماء ومكانتهم الاثيرة عند اهل البلاد وشدة تأثيرهم في النفوس والعقول . وكان داود باشا آخر المماليك محبا للعلم حتى قيل انه بدأ حياته طالباً في جامع الشيخ عبدالقادر . والمراجع المخطوطة والمطبوعة تصور ذلك النشاط العلمي والثقافي المتواضع في عهد داود باشا وتذكر كثيرا من المشتغلين بالعلوم اللسانية العربية وعلوم العربية . يكفي ان نشير هنا الى ان شيوخ ابي الثناء الالوسي بلغوا ستة عشر شيخا ، وان الذين تابعوا عبدالعزيز الشاوي فيما يذكر عثمان بن سند بلغ عددهم نحو مئتين . ويؤيد هذا ايضا كثرة الذين ترجم لهم الغلامي في (شمامة العنبر) والعمري في (الروض النضر) ، ومحمود شكري الالوسي في (المسك الاذفر) وغيرهم . لهذه الاسباب وغيرها ازداد المشتغلون بعلوم اللغة وعلوم الدين المتصلة بها كالتفسير واصول الفقه وخير مثال على ذلك تفسير ابي الثناء المعروف (روح المعاني) ففيه مادة لغوية غزيرة ، كما استمر نظم الاراجيز التعليمية وشرح المدائح النبوية والقصائد والاشعار الصوفية . وقد ذكر العزاوي قسما من العلماء واكد تعذر معرفتهم جميعا حين قال : « ليس لنا ان نبيّن رجال اللغة في هذه الحقبة ومن المؤكد انه فاتنا الكثير .. الخ » والشيخ عبدالله السويدي ابرز من ترجم لهم وقد توفي سنة ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م وكان عالما واديبا جليل القدر اشتهر له شرحه للامية الشنفرى المسمّى (رشف الضرب في شرح لامية العرب) وهو شرح يدل على علم غزير باللغة واحاطة بفرائدها وغرائبها فضلا عما يدل عليه ويوحي به من توكيد واضح للوجود العربي اللغوي الثقافي في عصر استفحلت فيه لغات الاعاجم من فرس وعثمانيين وغيرهم . وللعناوين

العربية للكتب فضلا عن مضامينها دلالات وايحاءات يحسن الانتباه إليها .
ومخطوطات رشف الضرب للسويدي متوفرة ،منه نسخة بخط المؤلف في خزانة الاستاذ ناجي القشطيني رحمه‌الله ، واخرى عند العزاوي وثالثة في خزانة المتحف العراقي . وللسويدي ايضا : اتحاف الحبيب على شرح مغني اللبيب ، وفيه ينقد شرّاح المغنى كالدماميني (ت ٨٢٧ هـ) ، والشمني (ت ٨١٠هـ) وابن الملاّ من نحاة حلب (ت ١١٠٣هـ) والماتن احد متاخري النحاة وغيرهم .

والسويدي اكبر اعلام العصر العثماني الوسيط في العراق يدل انتاجه‌الوافر على غزارة العلم وتعدّد المواهب‌فهو لغوي واديب وشاعر وفقيه وكاتب‌رحلات كما يبدو من‌رحلته الشهيرة (النفحة المسكية في الرحلة المكية) وله رسائل فكاهية وشعر كثير لم يدون في ديوانه ، وبعض المقامات ، ورحلته تؤكد قوة الصلات العلمية والقومية بين علماء البلادالعربية ، وتصور بعض جوانب النشاط الثقافي والعلمي والاجتماعي .

ومن كبار علماء العصر محمد بن خيرالله العمري (ت ١٢٠٣هـ / ١٧٨٨م) وله رسالة في مشكلات القرآن الكريم اللغوية ، وكتاب : منهج السالك في شرح ألفية ابن مالك . والعمري كعبدالله السويدي شاعر واديب ونحوي ولغوي ومؤرخ ، ويصوّر تناجه الخصب نهضة الثقافة في العراق منذ اواخر القرن الثامن عشر ، كما يؤكد رسوخ اللغة العربية والثقافية القومية في عصر التتريك . وقد طبع الاستاذ سعيد الديوه‌جي كتاب العمري (منهل الاولياء). والطريف أنّ العمري كتب باسلوبه (قصة عنترة) وزيّنها بشعر كثير من نظمه ، وتلك موهبة جديدة تشير الى اهتمامه وعنايته بالادب القصصي الشعبي ونقصد بالشعبي الادب المتوجه‌الى عامة الناس المكتوب بالعربية الفصيحة السهلة لا العامية الدارجة . وللعمري ايضا مدائح نبوية على حروف المعجم وهي طريقة شاعت في العصور المتأخرة وكانت ضالعة باغلال الصنعة البديعية

المتكلفة . وقد نظم (بديعية) سُميت البديعية العمرية وشرحها شرحاً جيداً بقلمه .

ومن كبار اللغويين التقليديين علاءالدين الموصلي المتوفى ١٢٦٩هـ / ١٨٥٢ م في المدينة المنورة وهو شيخ ابي الثناء وقد امتدحه واشاد بعلمه في رحلته (غرائب الاغتراب ونزهة الالباب) وفي كتابه (الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الاشهب) وقد تباهى الالوسي بالقراءة على الموصلي والظفر باجازته العلمية وشهادة علم من طراز الالوسي تكفي للدلالة على منزلة علاءالدين العلمية العالية . وقد صنّف فيما صنف رسالة على القاموس المحيط تدل على علم غزير باللغة والنحو ، وله رسالة اخرى في شرح بيتين من الشعر، اهتم بشرحها آخرون .

ومن المهتمين بالنحو واللغة والشروح محمد امين المدرس وله شرح شواهد قطر الندى ، والشيخ خالد النقشبندي المتوفى ١٢٤٢هـ ، وقد مرّ ذكره ، وشرح مقامات الحريري لم يكمله اضافة الى مؤلفاته الصوفية العديدة التي ذكرها البغدادي في هدية العارفين ، ومن كبار النحاة واللغويين في زمانه الشيخ عبدالله البتيوشي المتوفى ١٢١١ هـ وهو كردي من قرية بشدر تركها واستوطن الاحساء ، وكان يتردد على البصرة وبغداد ، وله منظومة في مثلثات الاسماء والافعال وكتب لها شرحا يدل على تمكنه في النحو والصرف واللغة ، ومنظومة اخرى سمّاها « الموائد المبسوطة في الفوائد الملقوطة » منها نسخة في خزانة باش اعيان في البصرة ، ومنظومات اخرى ذكرها الاستاذ محمد الخال في كتاب عن البتيوشي طُبع ببغداد سنة ١٩٥٨ .

ومن الشرّاح واللغويين محمد امين السويدي المتوفى سنة ١٢٤٤ هـ/١٨٢٨ م وله المواهب الالهيّة في شرح القصيدة البوصيرية ، ورسائل قصيرة في شرح بعض الالفاظ والعبارات ، ورسالة في شرح عبارة (ورد الابل) في القاموس المحيط حققها ونشرها الاستاذ عزالدين علم الدين

في مجلة المجمع العلمي بدمشق • وممن له شرح لشواهد قطـر الندى لابن هشام السيد صادق الفحام ت ١٢٠٥ هـ ، والحـاج سليمان الشاوي وهو من الادباء والشعراء والرؤساء المشهورين ، ومن آثاره في اللغـة : سـكب الادب على لامية العرب ، وقد توفي الشاوي سنة ١٢٠٩ هـ/١٧٩٤ م ورثـاه العشاري الشاعر المشهور وعثمان بن سند واخرون • ومنهم ابو المحامـد احمد السويدي وقد تصدّر للتدريس والافتاء وتوفي سنة ١٢٠٠ هـ / ١٧٩٥ م وله شرح (بانت سعاد) ، ويمكن اضافة اسماء اخرين من الذين درسوا ولم يتركوا أثرا او يصنفوا رسالة او كتابا •

وكان حكم المماليك في بغداد متزامنا مع حكم الجليليين للموصل وكـان اهم ما يميز الحكم الاخير نشاط الثقافة العربية في الموصل وقد ذكرنا بعض شخصياتها قبل قليل • وفي هذا الصدد يقول الدكتور عماد عبدالسلام في كتابه (الموصل في العهد العثماني) : اما في حقل التآليف اللغوية فقد شهدت الموصل عددا من المؤلفين المتخصصين حاول اغلبهم صبّ معرفتهم الواسعة في اطار من النظم لتيسير الحفظ والدراسة • وكان من ابرز الموصليين في هذا النوع ــ اي النظم في النحو ــ الشيخ خليل البصير (ت ١١٧٦ هـ/١٧٦٢ م) فقد نظم ارجوزة في احوال حروف الجر (وقـد حققهـا ونشـرها عمـاد عبدالسلام في مجلة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٧٤ م) زاد عدد ابياتهـا على الثلثمائة بيت واستعمل فيها اسلوبا جديدا من الاستشهاد ويقصـد الدكتور عماد اختصار خليل البصير على الاستشهاد بآيات القرآن الكريم فقط وهذه الطريقة ليست جديدة فقد اتبعها نفر من العلمـاء السابقـين • ويذكر الدكتور عماد ايضا ان صالح السعدي كاتب الانشـاء في ديـوان يحيى الجليلي وضع منظومة في النحو منها نسخـة في مدرسـة الرضوانـي بالموصل وارجوزة في الصرف قام بشرحها • وكتب حواشـي على شـرح السيوطي لالفية ابن مالك ورسالة في اسم الجنس كتب عنها د • عبدالله

الجبوري مقالا في مجلة الاقلام العراقية (ج ١٠ سنة ١٩٦٨) والف امين العمري وقد اشرنا اليه شرحا اخر للالفية ووضع الشيخ مصطفى الضرير كتابا في النحو .

وشهد العصر العثماني الاخير (١٢٤٧ ــ ١٣٣٥ هـ/١٨٣١ــ١٩١٧م) ظهور عدد من العلماء في اللغة والنحو وغيرها ولعل ابرزهم الشيخ ابو الثناء الالوسي الذي كان لمؤلفاته وآرائه اللغوية والنحوية تاثير لا ينكر في تجديد النشاط في اللغة والنحو وتقويته . وقد سار على هداه اغلب ابنائه واحفاده وكان لبعضهم القدح المعلى في اللغة والنحو والصرف ولا سيما العلامة محمود شكري الالوسي ، ولا أدل على حيوية الحركة اللغوية والادبية والنحوية في هذا العهد من دراسات وملاحظات الدكتور مصطفى جواد رحمه الله الذي يصفه بانه عصر نهضة العلوم اللغوية في العراق . قال في كتابه (المباحث اللغوية في العراق) : تبدأ النهضة اللغوية الحديثة منذ ولاية الوالي المملوك داود باشا لبغداد سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٦ م . وكانت العربية مرغوبا فيها قبل ذلك في بلاد الجزيرة كالموصل التي هي اليوم من العراق . وقد اشتهرت فيها اسرة العمريين وافراد اخرون كالاديب احمد بن بكر المعروف بكاتب العربية المتوفى سنة ١٢٠٧ هـ وحسن بن عبدالباقي المتوفى سنة ١١٥٧ هـ وابراهيم بن سراج المتوفى سنة ١١٦٤ هـ وحسن بن محمد الغلامي المتوفى ١٢١٥ هـ وسليمان بن امين الياسين المتوفى ١٢١٤ هـ ومحمد العبيدي المتوفى سنة ١٢٠١ هـ والسيد علي السيد درويش المتوفى سنة ١١٩٨ هـ ، والحاج علي المعروف بالراجي المتوفى ١١٩٠ هـ والس. عبدالله الفخري المتوفى ١١٨٨ والفخري هو القائل :

وانـي من العـرب الكـرام ذوي العـلا
وفينـا الهـدى والمجـدُ والعلمُ والشعـرُ

وهذا البيت الذي له نظائر واشباه كثيرة يؤكد ظهور الحس القومـي العربي منذ اواخر القرن الثامن عشر للميلاد وقد مضى هذا الحس الجديد يقوى وينتشر في النتاج الادبي والفكري خلال القرن التاسع عشـر الذي يوصف بانه قرن ظهور الحركات القومية في اوربا ، ولا ننسى ان الاشتغال بعلوم العربية من لغة ونحو وصرف واشتقاق وبآدابها انما هو صـورة من صور توكيد الحس القومي ومظهر من مظاهر التشبث المتواصل بمقومات الوجود العربي متمثلا في التراث اللغوي والادبي والثقافي والديني • واتجاه عدد من رجال اللغة وفي طليعتهم ابو الثناء الى الاهتمام ببعض الموضوعات اللغوية التي فرضتها ظروف العصر الحديث ويؤكد هذا الاهتمام البوادر الاولـى للنهضـة اللغويـة الحديثـة في العـراق كمـا لاحـظ الدكتور مصطفى جـواد•

ويعتبر ابو الثناء الالوسي (١٢١٧ ــ ١٢٧٠ هـ / ١٨٠٢ــ١٨٥٤ م) اعظم شخصية علمية انجبها العراق في العصر العثماني فغزارة علمه وكثـرة مؤلفاته ، وسيرته المتميزة ، وعلاقاته بادباء عصره وعلمائه ورحلاته المدونـة جعلته اشهر علماء العراق في القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد)، وخير مايكشف عن جهوده في اللغة وعلومها تفسيره (روح المعاني) فشروحه اللغوية واستطراداته النحوية تدل على علم واسع بالنحو والصرف والاشتقاق والمعاني وعلى براعة في الاختيار والتلخيص ، ولكننـا لا نجـد في روح المعاني رأيا او اجتهادا جديدا خالصا لابي الثناء • وله اضافة الى ذلـك مصنفات في النحو والصرف والشروح منها :

١ ــ حاشية شرح قطر الندى كتبها في مقتبل عمره ولم يتمها ثم اتمّها ابنه نعمان خيرالدين وطبعت في القدس سنة ١٣٢٠ هـ •

٢ ــ كشف الطرة عن الغرّة وسماه ايضا غاية الاخلاص بتهذيب درة الغواص وهو مختصر درة الغواص للحريري وشرحها • وقد طبع بدمشق سنة

١٣٠١ هـ ولهذا الشرح اهمية خاصة في تاريخ العربية في العراق لانه اول بحث لغوي خاص بالمفردات ايام النهضة الحديثة كما يقول الدكتور مصطفى جواد في (المباحث اللغوية) وفيه زيادات على شرح الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ تدل على سعة علم السيد الالوسي بالعربية وطول باعه في النقد اللغوي وفي بحث المسائل الصرفية والنحوية واللغوية ، والصلة بالنهضة اللغوية الحديثة تنعقد من حيث اهتمام الالوسي بما شاع في عصره من مصطلحات جديدة ، وقد اورد الدكتور جواد مثلا لذلك رأي الالوسي في مصطلح الدستور .

٣ ـ الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الاشهب لعبدالباقي العمري في الشيخ عبدالقادر الگيلاني ومطلعها :

جَلَّ ستر به الضريحُ تجلّلْ
اذ حوى الفخر مجملاً ومفصل

وقد طبع بمطبعة الفلاح بمصر سنة ١٣١٣ هـ ويرى استاذنا الجليل الاثري انه قد كان وهو هو (يعني الالوسي) في غنى عن التعرض لمثل هذه الامور .

٤ ـ الفيض الوارد على روض مرثية المولى خالد وهو شرح لقصيدة محمد جواد السيابوشي في رثاء شيخ الطريقة النقشبندية في عصره ، وطبعت بمصر على الحجر سنة ١٢٧٠ هـ .

ولا تخلو مصنفات ورسائل ابي الثناء الاخرى من ملاحظات دقيقة وفوائد نحوية ولغوية وصرفية لو جمعت الى ما تناثر في تفسيره الكبير لتمثل لنا ابو الثناء في صورة كبار علمائها في العهد العثماني واول روادها في العصر الحديث لما في آرائه اللغوية من عناصر الحداثة والتجديد . والحق أنّ شطرا كبيرا من نتاجه كان انعكاسا لسيرته الحافلة بالاحداث المهمة ، وخير ما يصور

هذه السيرة اخباره المجموعة في كتاب (حديقة الـورود) وما دوّنـه بنفسه في رسائله وفي رحلته (غرائب الاغتراب) وكان له تلامذة كثـيرون اشتهر عدد منهم وامتدّ ببعضهم العمر حتى اواخر القرن التاسع عشر •

وقد اشتغل بالعلوم العربية كثيرون ذكرهم العزاوي وغيره ، وخفيت عنا اسماء اخرى فمن المعروفين السيد عمر رمضان الهيتـي (ت ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م) ولم يعثر له على مصنف ، والشيخ معروف البرزنجي (ت ١٢٠٧ هـ/ ١٧٩٢ م) وليس له سوى كتيب في تعليم اللغة العربية للاكراد • اما الذين ذكرت لهم تصانيف فمنهم محمد سعيد الطبقجلي ، وله شرح شواهد القطر للفاكهي (ت ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦ م) والشيخ حسن القفطان من علمـاء النجف (ت ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م) ونتاجه غزير قياسا على أقرانه فله : الاضداد في القاموس • والمثلثات في القاموس ، والافعال اللازمـة والمتعديـة في المعنى الواحد ، والامثال في القاموس ايضا وطب القاموس • وتعليقات على المصباح المنير • وواضح ان هذه التصانيف لا تدل على جهود اصيلة لاقتصاره على جمع طوائف من المفردات لم تقترن باجتهاد لغوي او نحوي يضيف شيئـا جديدا مهما •

ومنهم عيسى صفاءالدين البندنيجي (ت ١٢٨٣ هـ/١٨٦٦ م)الموصوف برسوخ العلم في النحو والصرف ولكن لم تذكر له مصنفات ، وربمـا ألف او جمع شيئا لم يصل الينا •

والشيخ ابراهيم فصيح الحيدري(ت١٣٠٠هـ/١٨٨٣م) وله في اللغة : نفح الرند في شرح سقط الزند ، ديوان ابي العلاء المعري المشهور الذي حظى بشروح عديدة في العصر العباسي الاخير والعصور المتأخرة التالية وهو شرح ضخم • وكان ابراهيم فصيح غزير العلم ، جمّ النشاط كثـير الاهتمـام بالشروح ، كما ذكر له : شرح ديوان ابي تمام • شرح المقامة الطيفية للسيوطي،

شرح مقامات الحريري ، فصيح البيان في تفسير القرآن ، وشرح لغز لعبدالله العمري • وهذا يدل على خصوبة وكثرة تآليفه ، ولعله اكبر وابرز شرّاح الشعر والنثر العراقيين في عصر الاحتلال العثماني •

ومن علماء اللغة ايضا نعمان خيرالدين الالوسي (ت ١٣١٧ هـ /١٨٩٩م) وهو ابن ابي الثناء ، ومن تصانيفه : شرح القصيدة الدعدية،وسلس الغانيات في ذوات الطرفين من الكلمات ، وهو معجم صغير توجد منه نسخة في خزانة الاوقاف ببغداد •

ويقول العزاوي : انه يدل على تنوع في اللغة وتجدد في الموضوع ولا استبعد صحة ملاحظته لان نعمان هو ابن ابي الثناء وتلميذه الذي يتأثر خطاه ويتأثر به ، وقد طبع سلس الغانيات في بيروت سنة ١٩٠٠ م في المطبعة الادبية•

ويمكن القول ان طلائع النهضة الادبية والفكرية قد نشطت خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر • وكانت بوادرها الاولى قد ظهرت منذ اول القرن كما اشرنا • وقد ذكرنا في فصل الادب دلائل ونتائج هذه النهضة في الشعر والنثر ، ونؤكد هنا ان علوم اللغة العربية قد تأثرت هي ايضا بما ظهر في مصر والشام من دعوات التجديدفي الدراسات اللغوية والنحوية والبلاغية•

ولو قمنا بمسح شامل لما الّف في العراق خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين لوجدنا طلائع الاتجاهات الحديثة والميول العصرية الرامية الى تجديد العربية وعلومها ومناهج البحث فيها • ومن غير المعقول ان تكون حركة التجديد التي قويت واتسعت في اوائل هذا القرن قائمة في الهواء • ومن غير المنطقي ايضا ان الشخصيات التي رفعت الويتها كمحمود شكري الالوسي والاب أنستاس الكرملي قد انشقت عنهم الارض او هبطوا من السماء فجذور النهضة التي بدأت بابي الثناء هي التي غذّت التوجه الجديد وشجعت على الانطلاق نحو الغايات العصرية ثم توالت

بعد ذلك الدوافع والاسباب التي حفزت العلماء العراقيين الى اللحاق باخوانهم في مصر والشام ولبنان . وهذا يؤكد وحدة اللغة والثقافة العربية بصرف النظر عن الحواجز والحدود السياسية فكل ما يظهر منها في بلد عربي سرعان ما ينتقل الى بلاد العرب كلها ، فالعلم وذخائره وتياراته لا تحمل جوازات سفر وما دامت النهضة في علوم اللغة والادب وغيرهما قد ظهرت في مصر والشام وتونس فلابد من ان تنتقل الى العراق .

صحيح ان العراق في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين كان يعاني ضغوطا تتريكية لغوية وثقافية اشد واكثر كثافة الا ان تلك الضغوط عجزت عن صدّ موجات التجديد بعد ان فشلت جميع عصور الاحتلال الاعجمي في اضعاف العربية وآدابها . ولابد لنا هنا من الاشادة بجهود عالم آلوسي آخر هو العلامة الشيخ محمود شكري الالوسي المولود في ١٩ رمضان سنة ١٢٧٠هـ وكانت خدمات محمود شكري رحمه الله للعلم واسعة وعميقة ، ولعل من افضل ما يفيدنا هنا ان نقتبس بعض ما ذكره الاستاذ الاثري عن نشأة الالوسي ودراسته لانها تلقي الضوء على طبيعة الدراسات اللغوية والنحوية في العراق في القرون المتأخرة الماضية . قال الاثري :

كانت العادة في المدارس الاسلامية ــ التي تدرس فيها علوم الدين واللسان ــ ان يبدأ الناشيء ــ بعد ان يشدو القرآن الكريم ويتعلم الكتابة في الكتاتيب ــ بدراسة النحو والصرف ، فاول ما يتناوله من النحو متن الاجرومية او شرح الكفراوي على الاجرومية ثم شرح الشيخ خالد عليها بحاشية العطار . ثم الازهرية بحاشيتها . ثم شرح القطر (قطر الندى) بحاشية السجاعي ثم الشذور (شذور الذهب) . ثم الفاكهي ، ثم شرح السيوطي على الفية ابن مالك ، ثم شرح الاشموني عليها بحاشية الصبان ثم مغني اللبيب لابن هشام .. ومن كتب الصرف : الامثلة والبناء والمراح والغزّي والمقصود

والشافية وما عليها من شروح وحواشي وتقارير ، ويحفظ من النحو الاجرومية ومتن القطر والفية ابن مالك ، ومن الصرف الامثلة والبناء والمراح وان شاء حفظ متن الشافية ايضا ، حتى اذا ما حصل على ملكة ما وميز بين المرفوع والمنصوب والمجرور كلف قراءة شيء من الفقه .

وابرز ما يظهر غزارة علم محمود شكري ، لا سيما جوانب التجديد والاضافة في مختلف المعارف العربية والاسلامية فوزه بجائزة لجنة اللغات الشرقية المنعقدة في استوكهولم برعاية اسكار الثاني ملك السويد والنروج ، فطبقت شهرة الالوسي افاق الشرق والغرب وعرف في محافل المستشرقين ومعاهدهم .

وقد نال الجائزة بكتابه المشهور (بلوغ الارب في احوال العرب) ومنها وهو ما يعنينا هنا مؤلفاته اللغوية وهي الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر . وقد نشره محمد بهجة الاثري سنة ١٣٤٠ هـ بمصر ومختصر الضرائر ، لما يطبع ، والجوهر الثمين في بيان حقيقة التضمين في النحو وكتاب تصريف الافعال ، وقد فقد ، وكتاب ما اشتملت عليه حروف المعجم من الدقائق والحكم ، وشرح ارجوزة تأكيد الالوان للشيخ علي بن العزّ الحنفي المعروف بالشارح الجارح وقد صدرة بمقدمة وختمه بخاتمة ذكر فيها ما ظفر به من كتب اللغة من الاسماء الموضوعة للالوان المختلفة ، وقد نشرت هذه الرسالة في مجلة المجمع العلمي (م١ / ص ٧٦) ورسالة سماها (كتاب النحت ونبذة من قواعده) و (لعب العرب) وهي رسالة اقتطفها من لسان العرب لابن منظور و (المفروض في علم العروض) عن لسان العرب ايضا ، ورسالة في (نقد مقامات مجمع البحرين لناصيف اليازجي) وقد فقدت ، وكتاب (الجواب عما استبهم من الاسئلة المتعلقة بحروف المعجم) اجاب فيه عن اسئلة السيوطي التي لم يجب عنها احد في زمانه ، ولما يطبع ، والاسرار الالهية ، شرح القصيدة

الرفاعية وشرح القصيدة الاحمدية التي مدحه بهـا الاديب الكبير احمـد الشاوي •وكتاب بدائع الانشاء في جزأين ، ورياض الناظرين في مراسلات المعاصرين ، وامثال العوام في مدينة السلام ، وهو مجموع للامثال العامية البغدادية ورسائل اخرى اقل اهمية •

ولا حاجة الى بيان دلالة هذه المصنفات على سعة علمه باللغة وعلومها ، اما آراؤه ومواقفه الداعية الى التجديد والتطوير ولاسيما الخاصة بالمفردات والمعاجم وامور التعريب بوجه عام فهي كثيرة نجدها في مصنفاته اللغويـة وفي كتبه الاخرى •

ومن العلماء اللغويين الذين خضرموا الدولتين العثمانية والعراقية الاب انستاس ماري الكرملي الذي من شأن خدماته للغة العربية وكثرة ما كتب فيها وبخاصة في مباحث المفردات والمصطلحات ووضع المعاجم وتاريخ اللغـة العربية ان تجعله من شخصيات العراق اللغوية قبل العهد الوطني وبعده •

ولد الاب الكرملي عام ١٨٦٦ م واول تاريخ لبداية نشاطـه اللغـوي والادبي هو سنة ١٨٨٦م •

وقد اثبتت جهوده انه رائد البحث اللغوي الذي وفق بين المناهج العربية التقليدية وبين المناهج الاوربية الحديثة في دراسة اللغات وعلومها لانه جمع بين الثقافتين العربية والاوربيةولا سيما الفرنسية وكان يتقنعدة لغات شرقية وغربية ، ولم يكن بين العراقيين في اوائل القـرن العشـرين من يضـارع الكرملي في هذه المزايا وان وجد منيفوقه علما بالعربية وعلومها وادابهـا كمحمود شكري الالوسي وغيره •••

المصادر والمراجع

الاثري ، محمد بهجة

ـ اعلام العراق ، القاهرة ١٣٤٥ هـ .

ـ محمود شكري الآلوسي ، القاهرة ١٩٥٨

جواد ، مصـــطفى

المباحث اللغوية في العراق ، بغداد ١٩٦٥ .

حمادي ، محمد ضــاري .

حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث . بغداد ١٩٧٨ .

الراوي ، طــه

تاريخ علوم اللغة العربية . بغداد ١٩٤٩ .

الســـامرائي ، ابراهيم

الاب انستاس ماري الكرملي وآراؤه اللغوية ، القاهرة ١٩٦٩ .

العزاوي ، عباس

ـ ذكرى ابي الثناء الآلوسي . بغداد ١٩٥٨ .

ـ تاريخ الادب العربي في العراق . بغداد ١٩٦٠ .

عـواد ، كوركيس

ـ المباحث اللغوية في العراق .

ـ معجم المؤلفين العراقيين ، بغداد ١٩٦٩ .

ـ الاب انستاس ماري الكرملى حياته ومؤلفاته .

القـزاز ، عبدالجبار جعفر

ـ الدراسات اللغوية في العراق . بغداد ١٩٧٩ .

البحث الثالث

الفنون الأدبية

د . علي احمد الزبيدي

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

(١)

من احتلال بغداد وحتى بدء العصر العثماني

الثقافة والعلوم والفنون

يجعل مؤرخو الادب الحياة الادبية في العهدين المغولي والعثماني عصرا ادبيا واحدا ، ويأخذون بالتقاسيم التاريخية التفصيلية • وقد اطلقوا على العصر اسماء واوصافا رامزة كالفترة المظلمة وعصر الانحطاط وعصر الانحدار وما أشبه ، وكان اخفها (عصر الدول المتتابعة) الذي جعله عمر موسى الباشا عنوانا لكتابه عن آداب العصر • وشاع أخيرا مصطلح (العصور المتأخرة) وهو أفضلها فيما أرى •

ولم ترق هذه الاوصاف والاسماء لبعض الباحثين كالدكتور مصطفى جواد والاستاذ عباس العزاوي رحمهما الله ، وحجتهما أن الحياة الثقافية

والادبية لم تنقطع الا بضعة سنوات بعد الاحتلال المغولي ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ثم استعادت نشاطها بسرعة .

ولا يصح تضخيم اعمال بعض الحكام لان تأثيرها كان طفيفا ولم يحل دون استمرار تخلف الادب وتدهوره . صحيح انه أعاد بعض النشاط الى الحياة الثقافية بعد استئناف الدراسة في المدرسة المستنصرية والمدارس والربط وعودة حركة التأليف والتصنيف الى بعض نشاطها السابق غير أن الحياة الادبية كانت خاملة عاجزة عن الابداع والاضافة . فمنذ سقوط بغداد عجز الادب عن انجاب شخصيات شعرية وادبية تضارع الافذاذ الذين خرجتهم الاعصر العباسية من امثال ابي نواس وابي تمام وابن المقفع والجاحظ وابن الرومي والمتنبي وابي حيان التوحيدي ، بل توقف عن تخريج من يداني شعراء وكتاب العصر العباسي الاخير كسبط ابن التعاويذي وابن ابي الحديد وضياء الدين بن الاثير .. الخ وربما دفع موقف مصطفى جواد والعزاوي الذين بالغوا في تقريظ العصور المتأخرة كبكري الشيخ امين وسيد گيلاني اللذين حملا حملة شعواء على من استعمل واذاع مصطلح الفترة المظلمة ونظائره وزعما ان الادب كان واضح الحيوية في العصر المملوكي والعثماني متغافلين عن الحقائق الادبية التاريخية واجماع مؤرخي الادب . وطلع علينا الدكتور شوقي ضيف أخيرا بمنهج آخر ضم فيه ادب العصرين العباسيين الثالث والرابع الى العصر المغولي والمملوكي والعثماني ونظمها كلها في عصر واحد سماه (عصر الدول والامارات) ومع أن استاذنا الكبير كان مبدعا كعادته في دراسة العصور المتأخرة وخصائصها وطائفة من شخصياتها الا انه لا يصح الحاق بقية العصر العباسي التي بقي الادب في اثنائها في اوج قوته وازدهاره بالعصور المتأخرة المظلمة .

مهما كان فان الادب في العراق لم يهو الى الضعف والجمود دفعة واحدة

بسقوط بغداد وزوال الخلافة ، فسقوط دولة وقيام غيرها لا يحدث تحولا خاطفا ولابد من مرور السنين كي تظهر معالم الرقي او دلائل التدهور .

والعوامل التي حالت دون التردي الخاطف اضافة الى القاعدة التاريخية المذكورة كثيرة حصرها الدكتور مصطفى جواد في سبعة عوامل بالغ في اهمية بعضها واطال ولكن كان له فضل التنبيه الى عامل فات على اغلب المؤرخين هو دور الغناء والموسيقى في رفد الشعر والادب ببعض الحيوية والنشاط . والعوامل السبعة بايجاز اولها كون اكثر عمال المغول في العراق كانوا من العراقيين والفرس الذين تثقفوا بالثقافة العربية ، والثاني اعادة الاموال الموقوفة على المدارس والربط والتكايا ودور القرآن في عهد اباقا خان خلف هولاكو ، فعادت الى نشاطها التعليمي ، والثالث حسب تعبيره « الذوق الشعبي وهو الذي تعاقبت الدهور على تربيته وتهذيبه وأحكم القرآن الكريم واللغة العربية أصله ... الخ » ويعني بذلك بلا ريب تأثير التراث وسلطانه القاهر . والرابع وجود بعض الاسر العلمية ورعايتها للثقافة والادب . والخامس ما سماه (حرية الادباء) في فترة الخضرمة بين الدولتين قد بالغ في تضخيم هذا العامل ودفع غيره الى الشطط والغلط حتى ان الدكتور مفيد آل ياسين وصف عصر المغول في كتابه (الحياة الفكرية) بـ «انه عصر حرية فكرية !!» . والسادس الغناء والموسيقى اللذان اطرد تيارهما في الدولة الايلخانية فنبغ مغنون وموسيقارون لان المغول استطابوا الغناء والموسيقى العراقيين والغناء يعتمد على الشعر .. الخ . والسابع تأثير الحلة وسلامتها من سيوف المغول الماحقة التي انجبت شعراء وادباء طبقت شهرتهم الآفاق منهم راجح الحلي شاعر بني ايوب وأشهرهم في العصر المغولي صفي الدين الحلي ومهذب الدين الشيباني وصفي الدين العلوي وابن الشفهية وابن وشاح الحلي .. الخ .

وواضح ان العامل الاول هو نفس العامل الرابع وقد ضخم استاذنا تأثيره اذ كان اكثر عمال المغول من الجهلة والاميين ولم يهتم بتشجيع الادب منهم

سوى نفر قليل اشهرهم عطا ملك الجويني واخوه شمس الدين ولا ننسى ان رعايتهما مقيدة بقيود وتحفظات سياسية ودينية ومالية كثيرة . اما تأثير الوقوف والمدارس فواضح في الثقافة العامة ولكنه ضعيف في الادب لا يتعدى نظم الاراجيز التعليمية والمواعظ وبعض الزهديات . واهم العوامل هو التراث الادبي والعلمي العربي وسلطانه العظيم الجارف الذي يتحدى تغير الدول وتوالي عصور الاحتلال ويظل حيا متحديا عوارض المرض والضعف .

وقوة التراث بارزة في الحفاظ على انشاط الادبي في العصر الايلخاني لكثرة مخضرمي الدولتين في أوائله وأواسطه وتواصل الجيل الاول والثاني بأجيال العصر العباسي الاخير حتى اذا مرت السنون واختفى المخضرمون عقم الزمن حتى عن انجاب شعراء من طراز شمس الدين الكوفي وعزالدين الموصلي وابن الطراج كما عجز عن تكوين ادباء ومؤرخين من طراز ابن خلكان وابن الصيقل الجزري وابن الساعي وابن الفوطي وأمثالهم من مشاهير مخضرمي الدولتين .

صحيح ان العوامل الايجابية كانت كثيرة ولكنها لم تحل دون الركود والتقهقر فانتقال الحكم الى المغول والخراب الذي اشاعوه ، واستنزافهم اموال العراق وعجمتهم وبداوتهم الغريبة وفتكهم الذريع بالناس بلا تفريق .. كل هذا كان عوامل سلبية طاغية ادت الى تخلف الآداب وجمودها ولا سيما الشعر والنثر الفني الديواني ، ووجود بعض الشخصيات والاسر الفارسية المستعربة التي تعرف الادب العربي وتتذوقه وتعرف كيف تفيد من تشجيعه للاغراض السياسية والشخصية لا يمكن ان يوقف موجة الضعف العارمة . ولا ننسى ان سلطة آل الجويني وآل الطوسي محدودة قصيرة وقدرتهم على صرف الاموال ومنح الهدايا ضئيلة لا تقارن بقدرات الخلفاء العباسيين ورجالهم ، لهذا كان تأثير الشخصيات والاسر ضعيفا لا يحتمل التضخيم والتعميم ولا ريب في ان كبار مؤرخي العصر الايلخاني كابن الفوطي وابن الساعي وابن الطقطقى

صاحب كتاب (الفخري) المتحيز قد بالغوا في امتداح عطا ملك الجويني واعوانه لانهم اصحاب الامر والنهي بعد المغول ، بل ان عددا من الشعراء قد مدحوا سعد الدولة اليهودي وأعوانه بشعر كثير غاية في الصنعة والسخف . فالعوامل السلبية اذن كانت اقوى من الايجابية فانساقت الثقافة والادب الى مهاوي التخلف والجمود . وكان دور العوامل الايجابية أوضح في مجال الثقافة وبخاصة علوم الدين واللغة والادب والتاريخ وعلوم الاوائل (الفلسفة والحكمة) وبعض العلوم التي شغف بها المغول كالفلك والتنجيم والطب والحساب والموسيقى . ولا ريب أن العلوم المذكورة وبخاصة علوم اللغة والدين كانت تمد الادب بما يحتاج اليه ويفيد من مدد لغوي وثقافي الا ان الشعر والنثر الفني يحتاج اول ما يحتاج الى الحوافز والموثبات والاجواء النفسية والمادية الملائمة ، واين هذه الاجواء بعد ان احتل المغول العراق وخربوا بغداد واربل والموصل وتكريت ونكبوا كل أسرة من اسر العراق واهلكوا الزرع والضرع ؟ والحديث يطول اذا وصفنا ما انزلوه بالعراق من محن وكوارث ومشاكل نفسية واجتماعية وروحية لا تعد ولا تحصى . صحيح أن الوطأة كانت تخف بمرور السنين ولكن سياسة القهر والاذلال المغولية كانت مستمرة ، نضرب لذلك مثلا اعتماد المغول على اليهود . فقد تسلط اليهودي المعروف بابن الصفي على ديوان العراق وسلب اموال الناس واذاقهم العسف والهوان طيلة حكم هولاكو (٦٥٦–٦٦٣هـ/١٢٥٨–١٢٦٤م) وابنه أباقا حتى اذا نجح حاكم العراق المغولي قطلغ شاه من طرده رحل الى الايلخان ارغون الذي خلف اباقا فاسترضاه بدهائه ومكره فأعاده ليزداد ظلما فطغى وبغى وتجبر ورفع اخويه الى اعلى المناصب ولقب احدهما بفخر الدولة والاخر بأمين الدولة وتوافد اليهود الى بغداد ومنهم جماعة جاءت من تفليس في القفقاس فجعلهم سعد الدولة ولاة على تركات المسلمين فتصرفوا كما يحلو لهم مستهترين بالشريعة الاسلامية ولم يتخلص العراقيون منهم الا بعد هلاك أرغون فثار

اهل بغداد عليهم وقتلوا سعد الدولة واخويه واعوانهم • وكان احد الشعراء قد وصف طغيان الصفي واليهود بالابيات المشهورة :

يهـــــود هذا الزمـان قد بلغـوا
مرتبـــة لا ينـــا لهـــا فلـك
الملك فيهـم والمـــال عندهـــم
ومنهـــم المســتشـار والملـــك
يا معشـــر الناس قد نصحت لكـم
تهـودوا قـــد تهـــود الفلـــك
فانتظروا صيحـة العـذاب لكـم
فعـــن قريـب تراهـم هلكـوا

وقيل شعر آخر لم يصل الينا يعبر عن نقمة الناس لا على اليهود فقط وانما على القادة والسلاطين المغول والولاة الفرس الذين استعانوا بهم ورفعوهم • وثورة بغداد على اليهود دليل على حيوية الشعب وانتهازه الفرص للشـورة والتخلص من الظلم ولم تكن بدافـع التعصب الديني • فقبيل ذلـك ألف فيلسوف يهودي يدعى ابن كمونة كتابا سماه (الابحاث عن الملل الثلاث) تعرض فيه بذكر النبوات وذكر ما نعوذ بالله من ذكره كما يقول ابن الفوطي فثار العوام واجتمعوا لكبس داره • ويروى هذا المؤرخ كيف هرع علمـاء بغداد من المسلمين وعلى رأسـهم مجدالدين ابـن الاثير لانقاذه من غضب العامة وكيف هربوه في صندوق وكان هؤلاء العلماء انفسهم هم الذين حرضوا الاهالي على الثورة للقضاء على سعد الدولة وأخويه وعصابتهم اليهودية •

وجملة القول ان بعض النشاط القديم قد عاد الى الحياة الثقافية للعوامل والاسباب الايجابية المذكورة كاعادة فتح المستنصرية والمدارس الاخـرى والربط وانشاء بعض المدارس والربط الاخرى ، واهتمـام آل الجوينـي وخاصة عطا ملك برعاية بعض الشعراء والادباء وتشجيعهم واعتناق سلاطين

المغول الاسلام كأحمد تكودار ومحمود غازان واهتمامهما بنشره في عساكرهم واقوامهم ، وسلامة بعض المدن كالحلة والنجف من الخراب والفتك الذريع بالسكان ، ونجاة فريق من العلماء والادباء من القتل ، وسلامة الكثير من الكتب والمكتبات من الحرق والنهب ، وقوة التراث وسلطانه وقدرتـه على الاستمرار والبقاء ، وبداوة المغول وافتقارهم الى الثقافة والحضارة التـي جعلتهم ينبهرون بالحضارة والثقافة العربية ويتأثرون بها تدريجيا ويعتنقون الاسلام ، وغيرة كبار الادباء والعلماء والمصنفين التي دفعتهم الى القيام بمـا يشبه حركة احياء ثقافي وادبي قومـي فراحوا يؤلفون المعاجم والموسوعات للحفاظ على التراث الديني والعربي .. وغير ذلك من الاسباب .

* * *

وكانت العلوم العملية في مقدمة ما انتعش لاهتمام المغول بها اضافة الى بعض الصناعات والفنون الجميلة . وقد ذكرت كتب التراجم والتاريخ طوائف من العلمـاء في مقدمتهم المهندس نورالدين السـاعاتي (٦٠١ ــ ٦٨٣ هـ / ١٢٠٤ ــ ١٢٨٤ م) صانع الساعات المشهور على بـاب المستنصرية وابنـه المهندس الرياضي الفقيه مظفرالدين احمد الساعاتي المتوفى سـنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م ، والموسيقار الاديب الشهير صفي الدين الارموي ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م والطبيب الشهير شمس الدين بن الصباغ وكان حجة في علوم الطب والحيوان والنبات والطبيب الكحال الشاعر الفكه ابن دانيال الموصلي صاحب تمثيليات خيال الظل المعروفة وهي من اقدم نماذج الادب التمثيلي العربي . وقد هجر العراق بعد الغزو واقام في القاهرة ، وياقوت المستعصي الخطاط الشاعر .

اما علوم الدين فاشتغل بها كثيرون من ابناء العصر ذكر اغلبهم عباس العزاوي والدكتور مفيد آل ياسين في اطروحته (الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع) وصنفهم حسب الاختصاص : القرآن ، الحديث ، الفقه .. الخ . وذكر مؤلفاتهم والمؤلفات السابقة التي اعتمدوها ودرسوها لتلاميذهم

وأما اصحاب اللغة والنحو فكثرة أشهرهم ابن اياز النحوي ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م الذي تولى مشيخة النحو في المستنصرية، وعزالدين الفاروثي ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤ م (نسبة الى فاروث وهي قرية قرب واسط) وكان بصيرا بالنحو متضلعا في الادب ومحمد الاربلي الموصلي ٧٥٥ هـ/١٣٥٤ م وله شرح الشافية وشرح الكافية وحواشي التسهيل وغيرها.وجمال الدين يوسف المقريءالبغدادي ٧٢٦ هـ /١٣٢٥ م وقد لقب بنحوي العراق وابن عدلان الموصلي (٥٨٣ ــ ٦٦٦ هـ / ١١٨٧ ــ ١٢٦٧ م) علامة زمانه في العربية والدين وله مؤلفات مشهورة ، وابن المطهر الحلي (٦٤٨ ــ ٧٢٦ هـ / ١٢٥٠ ــ ١٣٢٥ م) وكان بارعا في العربية ودرسها في المستنصرية ، وتقي الدين البغدادي الحنبلي (٦٦٨ ــ ٧٢٨ هـ / ١٢٦٩ ــ ١٣٢٧ م) .. الخ .

ونشطت كتابة التاريخ فبرز مؤرخون كبار لهم مكانة متميزة في التاريخ الاسلامي وتاريخ المغول والفرس والترك.وكان أشهرهم ابن الساعي ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م خازن المستنصرية وله مؤلفات كثيرة ذكرها مصطفى جواد في مقدمة كتاب (نساء الخلفاء) الذي حققه وهو من مؤلفات ابن الساعي الواصله الينا . وصنف هذا الاديب المؤرخ (الجامع المختصر) في ثلاثين مجلدا ذيل به تاريخ بغداد والكامل لابن الاثير كما صنف في الادب فشرح مقامات الحريري والف كتاب (لطائف المعاني) عن شعراء عصره . ومعظم مؤلفاته مفقودة ومن المؤرخين ظهيرالدين الكازروني ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وابن الطقطقى الموصلي صاحب (الفخري) ٧١٠هـ/١٣١٠ م ، وابن الفوطي المؤرخ الاديب ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م .

ومن الجغرافيين عماد الدين القزويني ٦٨٢هـ/١٢٨٣م صاحب كتاب عجائب المخلوقات وكتاب آثار العباد وصفه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي بانه اعظم كوزموغرافي (علم وصف الارض) في العصور الوسطى ، وشهد العصر نخبة من كبار الفنانين في الخط والموسيقى والغناء في طليعتهم صفي الدين الارموي الشهير (٦١٣ ــ ٦٩١ هـ / ١٢١٦ ــ ١٢٩٢ م) وهو

مـن مخضـرمي الدولتـين ، وزين الدين الموصـلي فريـد عصـره في الموسيقى والطرب وبدرالدين الاربلي الـذي نظـم (ارجوزة الانغـام) سـنة ٧٢٩ هـ /١٣٢٨ م وشمس الديـن السـهروردي ٧٤١ هـ /١٣٤٠ م الذي قاربت شهرته شهرة الارموي • وقد نال الموسيقيون عناية مؤرخـي الفنون وغيرها فألف العزاوي كتابا عنهم وكتب عنهم المستشرق فارمر، وسرد تراجمهم مع ذكر مصادرها الاستاذ هاشم الرجب خبير المقامات العراقية في كتابه (المغنون العراقيون في الفترة المظلمة) كما الف الدكتور عادل البكري كتيبا عن الارموي وعنى الدكتور حسين محفوظ بالارموي وبكتابه (الادوار) وقد طبع •

وقد لقى النقش والخط وفن العمارة تشجيعا واضحا في هذا العصـر لانبهار المغول بالفن العربي واعجابهم الشديد به لتزيين قصورهم في مراغـة وتبريز في اوائل العهد الايلخاني ، وفي اواسط العصر المغولي اهتم تيمورلنك بهذه الفنون لتزيين عاصمته (سمر قند) فنقل كثيرا من رجالها اليها بالترغيب والترهيب ، وكان اشهر الخطاطـين ياقـوت المستعصمي ومحمود الزنجانـي وصفي الدين بن فاخر الارموي الموسيقار وابن وضاح وغيرهم •

الشعر والشعراء

ازدحم العصر العباسي الاخير بمئات الشعراء ترجم لهم الباخـرزي في الدمية والعماد في الخريدة وياقوت في معجم الادباء وغيرهم ، واشتهر بينهـم صفوة من المبدعين والمجيدين • ولكن منذ القرن السابع اصبحنا نفتقـر الى مراجع متخصصة من هذا الطراز تقدم للباحثين مسحا شاملا لحياة الشعـر والشعراء والكتابة والكتاب • ولا ريب في ان نكبات الغزو افقدتنا الكثير من المصنفات والدواوين ، وان عهود الاحتلال التالية اجهزت على اغلب ما صنفه منها المعنيون بالادب • وقد اشرنا الى ضياع مؤلفات ابن الساعي وابن الفوطي عن شعراء المئة السابعة ، الا ان تراجم فريق منهم ولا سيما المشهورين وصلت

الينا مقرونة ببعض الملاحظات والاحكام والمختارات فيما تبقى من كتب التراجم والتواريخ المتأخرة وهي كثيرة .

وغني عن البيان ان التقاط المواد والمعلومات المبعثرة في مصادر عديدة غير متخصصة لايرسم لوحة واضحة شاملة فضلا عما يتطلبه مثل هذا الجمع والتنسيق من جهد جهيد . ولعل هذه المشكلة هي سبب الاحساس او الانطباع السائد عن قلة الشعراء والكتاب وضآلة انتاجهم بعد الاحتلال المغولي قياسا الى ما كان قبل ذلك . وهو احساس لا يقبله المنطق السليم ، ففي النصف الاول من القرن السابع الهجري (النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي) اي قبل سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م حظي الشعر والنثر بازدهار يلفت النظر صورته لنا مصادر العصر العباسي الاخير الذي امتد من سقوط السلاجقة من اواسط القرن السادس ودام اكثر من قرن ، وكان عصر يقظة الخلافة العباسية وصحوتها منذ ان تخلصت من آخر السلاجقة .

وقد انجب البيت العباسي خلفاء اقوياء كان اعظمهم الناصرلدين الله . واقترن ذلك الازدهار بشيء من التخطيط والتنظيم تمثل في انشاء ديوان خاص للشعراء يخصص لهم الرواتب والاموال ويستلم ما ينظمون من اشعار المناسبات . وقد صورت هذه النهضة الاخيرة للادب دراستان اشرنا الى اولاهما هي (الشعر من سقوط السلاجقة الى سقوط بغداد) للدكتور عبدالكريم توفيق والاخرى للدكتور مزهر السوداني عن الشعر العراقي في القرن السادس . وقد بسط كل منهما العوامل والاسباب والخصائص فارجع اليهما .

ثم وقعت الواقعة ، وغزا المغول العراق وسقطت بغداد ، فعمت الفوضى والخراب وسحقت النفوس ، وذهلت العقول ، فأصاب الحياة الادبية ما يشبه الشلل العام ، وهو امر طبيعي في مثل هذه الاحوال . فلما انتهت الصدمات الاولى ومرت سنوات واستسلم الناس لحكم القضاء كان في رصيد

العصر السابق ما يكفي للحفاظ على بعض الحيوية والنشاط خلال النصف الباقي من قرن الاحتلال الاسود على اقل تقدير . وبمرور الزمن واستمرار عهود الاحتلال الاعجمي كانت الجمرات التي تألقت تخبو رويداً رويدا تحت الرمـــاد .

* * *

لقد كان للاستاذ عباس العزاوي فضل تمهيد السبيل للباحثين عندما ساق تراجم عدد غير قليل من شعراء العهود الثلاثة للعصر المغولي ، فذكـــر من شعراء العهد الايلخانـــي (٦٥٦ ــ ٧٣٨ هـ/١٢٥٨ ــ ١٣٣٧ م) ســـتة وعشرين ، ومن العهد الجلائري (٧٣٨ ــ ٨١٤ هـ/١٣٣٧ ــ ١٤١١ م) ثلاثة عشر ومن عهد التركمان (٨١٤ ــ ٩١٥ هـ/١٤١١ ــ ١٥٠٩ م) ثلاثة فقط .

ولم يكن العزاوي دقيقا فحشر بين شعراء العهد الايلخاني ستة قتلوا او توفوا ايام احتلال بغداد واستباحتها ، او بعيد ذلك كموفق‌الدين بن ابي الحديد و اخيه‌موفق‌الدين ، والصرصري الضرير شاعر المدائح النبوية الكبير الذي استشهد بعد ان قتل احد جنود المغول بعصاه سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م ايضـــا . ومجدالدين النشـــابي المتوفى ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م وكابن الحلاوي المختفـــي عـــام ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م وابـــن زبلاق وقد قتـــل ســـنة ٦٦٠ هـ/١٢٦١ م . وذكـــر العزاوي بـــين الشـــعراء مـــن ليس بشـــاعر كالوزيـــر العلقمي المقتول سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م وعطا ملك الجويني صاحب الديوان ، ومن كان فقيها او نحويا او لغويا .. الخ كقطب‌الدين الشيرازي وعمادالدين الواســـطي وبدرالديـــن الاربلـــي وغيرهـــم ، وفعـــل فعـــل العـــزاوي محمـــد علـــي اليعقوبـــي في (البابليات) وعلـــي الخاقانـــي في مجاميعه عن شعراء الغري والحلة وبغداد ولا يقلل هذا من القيمة العظيمة لكتاب العزاوي ، وعذره ان جل مصادرنا هي كتب التراجم العامة غير المتخصصة . وواضح ان من ينظم البيتين والثلاثة والقطعة والقطعتين ليس بشاعر ، وان

كان ما نظمه فلتة من الفلتات وكذلك اصحاب الشعر التعليمي من ناظمي الاراجيز في النحو والفقه والقراءات وغيرها وهم كثير .

واول ما يلاحظ على الرغم من هذا التساهل ان عدد الشعراء يهبط هبوطا شديدا من عهد الى آخر ، فشعراء العهد الجلائري الذين ذكرهم العزاوي نصف عددهم في العهد الايلخاني السابق ثم يهوى العدد الى ثلاثة شعراء فقط في عهد التركمان . فاذا اسقطنا من لم يكن شاعرا ومن كرر العزاوي اسمه ، لم يبق الا نفر يعدون على الاصابع ، اما اذا حرصنا على تطبيق معايير النقد الفني بما فيها معايير عصرهم فلن يستحق الاهتمام من كل هؤلاء اكثر من ثلاثة او اربعة شعراء .

ان لغة الارقام هذه ، وان بدت غير مالوفة في تاريخ الادب تدل على ما اصاب الشعر من ضمور وجفاف وتدهور سريع بعد القرن السابع للهجرة. وتتجلى هذه الحقيقة صارخة اذا تذكرنا ان اكثر الشعراء المجيدين حقا كانــوا من مخضرمي الدولتين الذين نضجت شاعريتهم واكتملت ثقافتهم قبل احتلال بغداد ، وعاشوا في العصر المغولي سنوات معدودة . اما بعد القرن السابع فلا نكاد نجد من يستوقف المؤرخ والناقد بروعة شعره وسعة ثقافته وقدراتــه الفنية غير صفي الدين الحلي على الرغم من كلفه بفنون البديــع الشــكلية والاعيبه اللفظية والابجدية فجيده كثير يجعله اخر عمالقة الشعر .

وهذا يؤكد ان قرب هذا الجيل او ذاك من العصر العباسي ، ونصيبه من رصيده الثقافي والحضاري العظيم هو الذي يحدد مستواه الفني ويتحكم في الموضوعات والصياغات الداخلية لشعره او نثره .

ان هذه الحقيقة الادبية التاريخية ليست من صنع الزمن وحده . انما هي نتيجة متوقعة لاستمرار الاحتلال الاجنبي واطراد التردي في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية وغيرها .

فجيل المخضرمين افضل اجيال العصر المغولي واغناها شعرا وفنا وثقافة، والجيل التالي اضعف ، والثالث اشد فقرا •• وهلم جرا •

هذه الحقيقة او الظاهرة تبدو اشبه بالقاعدة ، وان كان لكل قاعدة شواذ ، يقول الدكتور مصطفى جواد رحمه‌الله :

أشرنا الى ان الادب العراقي استمر في اول العصر المغولي متثاقلا على ضعف الحقه به فقدانه عنصر العروبة في الدولة الحاكمة ، وقلة الادباء الناشئة عن تلف فريق منهم تحت سيوف المغول ، وذكرنا من احوال مخضرمي الدولتين من الشعراء ما يؤذن بانهم قوام ذلك الا طراد في الشعر الجزل ••

والضعف الذي اصاب الشعر لم يظهر عليه الا في اواخر القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد) ونستطيع ان نجد حركة استمرار قوته بكتاب لطائف المعاني في شعراء زماني •• لابن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٥م• وشيخ الشعراء في هذه البرهة كما قدمنا شمس‌الدين الكوفي وهو شاعر عباسي النشأة ••

فاذا تجاوزنا تلك المدة لاحت لنا خصائص الشعر في العصر المغولي •• (بقصد ما غلب عليه من ضعف) •

ولا نعلم مصير كتاب (لطائف المعاني) المذكور الا ان العزاوي ذكر انه موجود في حلب • ولا موجب لاتخاذه وحده معلما على تفوق شعراء المئة السابعة على شعراء القرون اللاحقة ونحن لا نعلم ما جاء فيه • وما وصل من شعرهم يكفي لاثبات هذه الحقيقة • وشأن هذا الكتاب كشأن غيره من الكتب الضائعة ، ولعل كتاب ابن الفوطي (الدرر الناصعة) اغنى مادة منه ، وهو مفقود ايضا وكذلك كتاب « شفاء الغلة من شعراء الحلة » لمهذب‌الدين الشيباني الحلي وهو مفقود ايضا ومؤلفه كان حيا سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م مهما كان فان ضياع معظم المصادر ولا سيما دواوين الشعراء يجعل مشكلة دراستهم

اكثر تعقيدا وصعوبة والحق ان للعزاوي فضل التنبيه الى كثير مما فقد منها والى بعض ما سلم من الضياع وانزوى مخطوطا في الخزائن العامة والخاصة .

فمن الدواوين الضائعة ديوان الحراز الصوفي ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م وشمس الدين الكوفي ٦٧٥ هـ/١٢٧٦ م وديوان ابن طاووس ٦٧٣ هـ/١٢٧٤ م وديوان ابن الظهير الاربلي ٦٧٧ هـ /١٢٧٨ م وهو في مجلدين وبهاء الدين الاربلي ٦٩٣ هـ/١٢٩٣ م وابن الحصري ٧٦٥ هـ/١٣٦٣ م والعز الموصلي ٧٨٩ هـ /١٣٨٧ م .. ومن التي سلمت ووصلت الينا ديوان التلعفري . والقصائد الوترية لابن رشيد البغدادي ٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م وشرف المزية في المدائح العزية لابن نعيم الحلي، ومنظومات خيال الظل واشعار اخرى لابن دانيال الموصلي وربما ديوانه ايضا اذا صح ما ذكره بعض الدارسين . فاذا اضفنا الى هذا ما وصل الينا من مختارات كثيرة مبعثرة في كتب الادب والتراجم كخزانة الادب لابن حجة والمستطرف للابشيهي وشذرات الذهب والفوات والوافي والحوادث الجامعة وغيرها امكن القيام بدراسة موسعة لادب العراق في عهد الاحتلال المغولي .

اتجاهات الشعر وخصائصه

يمتاز الادب العربي بأنه أدب واحد لا تختلف اتجاهاته الكبرى وخصائصه العامة من قطر الى آخر ، فاذا حدث بعض التغير من عصر الى عصر فضعفت بعض الاتجاهات او اختفت ، وظهرت اتجاهات اخرى ، انتشر ذلك بسرعة مذهلة في آداب الاقطار العربية كلها . هذه الميزة الفريدة تؤكد وحدة الآداب القومية وطابعه العربي الخالد . أما الفوارق فتنحصر في سمات خاصة قليلة تفرضها الظروف والاحداث المحلية ولا يخرج عن الدوائر والخطوط التي ترسمها الاتجاهات والخصائص العامة ويغلب ان تزول بزوال الظروف التي كونها .

واول ما يلاحظ في ادب العصور المتأخرة، كما ذكرنا مراراً، انحداره السريع الى الجمود والعقم بتأثير الاسباب والدوافع التي تولد اغلبها في جو السيطرة الاعجمية والاحتلال الاجنبي . ولغلبة محاكاة النماذج الفنية العباسية السابقة وتقليدها ، وطغيان المد البديعي ومحسناته الشكلية الخارجية والاعيبه اللفظية الجافة على المعاني والافكار وعلى الصياغات الفنية الداخلية ، ولندرة المواهب الشعرية المجددة ، وقلة الشعراء المجيدين وتزايد تأثر لغة الادب واساليبه الفصيحة باللغات الدارجة وانتشار النظم العامي والنثر المبتذل والضعيف والركيك لاتساع الامية والجهالة ومجاراة الحكام الاعاجم والتوجه بالادب نحو العوام بعد ان كسد في أوساط اولئك الحكام وخاصتهم خلافا لما كان في عصور السيادة العربية .. الخ وفي كل ذلك يستوي ادب العراق وغير العراق من اقطار المشرق .

وقد سادت الادب الاتجاهات العامة نفسها سواء كانت اتجاهات ذات أبعاد ودلالات اجتماعية ودينية وفكرية او اتجاهات فنية تتحكم في شكل الشعر ومضمونه أي في صياغة التعبير الشعري والنثري وبنائه وتكوين اساليبه . وهذه الاتجاهات الفنية البحتة لا تزيد على ثلاثة :

الاتجاه البديعي الذي ظهر في العصر السابق واشتد في أواخره واستفحل سلطانه حتى حول النقد الفني الى النقد البلاغي وصار كمد البحر العارم بعد احتلال بغداد . والاتجاه المحافظ او التقليدي وقد يصح آن نسميه العمودي لالتزامه عمود الشعر العربي واعرافه التي حام فوقها النقاد وشراح الشعر كالمرزوقي والتبريزي وتمخضت عنها المعارك النقدية حول ابي تمام والبحتري وحول المتنبي بعد ذلك . والثالث الاتجاه الشعبي الذي يستعمل اللغة الوسطى او العامية او يتأثر بها تأثرا شديدا يصل الى حدود الابتذال والركة وقد لاحظ هذه الاتجاهات الفنية مؤرخو الادب في الشام ومصر في عصر المماليك ، وفي الاندلس واقطار المغرب العربي .

اما الاتجاهات الكبرى التي انسابت في مجاريها الاغراض والموضوعات والفنون والغايات الفنية الاجتماعية العامة فقد جعلتها السيدة بلقيس الحميدي في ثلاثة اتجاهات ايضا : الاتجاه الديني ويضم شعر التصوف والزهديات والمواعظ المتأخرة زمانا وقبيلا كبيرا من الحكم والقصص الدينية • واتجاه اللهو والعبث • والثالث هو الاتجاه التقليدي المحافظ وهو غير الاتجاه التقليدي التقني المتعلق بالصياغات انما المقصود به هنا الشعر الدائر على الاغراض والموضوعات الموروثة المعهودة • ويمكن ان نضيف اتجاها رابعا هو الاتجاه الشعبي الذي يتناول الموضوعات التي تستهوي جماهير العامة كالنوادر والفكاهات وفنون الشعر غير المعربة والعامية كالمواليا والدوبيت والزجل وقوما والسلسلة وكان ما كان •

إن هذا العرض او التقسيم ينطبق على ادب العراق وغيره في العصور المتأخرة • وواضح ما نصطلح عليه بالاتجاه او التيار ليس له حدود ثابتة ولا أشكال محددة انما هو كالسيل او النهر الكبير يتخذ شكل مجراه وحدوده المتغيرة • وكثيرا ما تتداخل الاتجاهات بالخصائص الفنية البحتة ليتكون (مركب) الاتجاه فيصبح منهج البحث القائم على دراسة الاتجاهات مترجرجا مثيراً للحيرة والتذبذب • لذلك يميل مؤرخو الادب المدرسيون والتقليديون الى منهج الخصائص الفنية وقد يهتمون بالاتجاهات الفنية العامة ايضا • او يمزجون بين الاثنين • وخير مثل يفيدنا في هذا الباب ما قاله العزاوي ومصطفى جواد عن خصائص الادب في العصور المتأخرة • قال الدكتور مصطفى وكلامه خير ما يمثل المزج بين الاتجاهات والخصائص :

« اذا تجاوزنا تلك المدة (ويقصد بقية القرن السابع للهجرة / القرن الثالث عشر للميلاد) لاحت لنا خصائص الشعر في عهد الاحتلال المغولي ، وهي الميل الشديد الى نظم معجزات

النبي (ص) ومناقب الخلفاء والائمة ، والاقبال التام على النظم التعليمي ومنه البديعيات والصوفيات والوعظيات والزهديات واللغزيات ، وقيام سوق الادب المتحلل من الادب ... ، واستتبع ذلك شعرا هزليا كثير المجون . ثم الولوع بنظم الطرديات الطائرية وهي وصف البرزات الى صيد الطير .. الخ ومن خصائص الشعر في هذا العصر العناية بالفنون الصناعية كالتوشيح والتسميط والتخميس فضلا عن الفنون النثرية التي كانت مقامات الجزري طليعة لها ، ومنها الميل الى الافتتان في النظم باللغة العامية لان الملكة الشعرية في العراقيين لما اعوزها المظهر حافظت على الجوهر الذي هو المعاني . والذي ذكرته من الخصائص لا يعني وقوف النظم عن معالجة الموضوعات الاخرى بل قلة النظم فيها . حتى ان صفي الدين الحلي ذكر في مقدمة ديوانه الاسباب التي بعثته على مخالفة ما شب عليه واعتاده من الاغراض الشعرية وحملته على مدح ملوك ماردين الارتقيين . وصفي الدين نفسه أول من نظم البديعية النبوية وضمنها معجزات رسول الله (ص) وفرائد من سيرته الكريمة ؛ اما نظم البديعية باطلاقها فقد كان مسبوقا اليه . وافتن في نظم التواشيح وفنون لفظية اخرى ذكر جملة منها في ديوانه .. »

أن هذه الكلمة الموجزة تصور امتزاج الخصائص بالاتجاهات وتفتح الباب لدراستهما كل على حدة وتنطبق على آداب هذا العصر بصورة عامة . ولكن أدب العراق ينفرد بطابع خاص وبسمات متميزة كقلة شعر المديح وضعفه بالقياس الى ما نظم منه في مصر والشام وغيرها . المغول وكراهيتهم للعرب والعربية واستمرار احتلالهم للعراق وزوال عصر الامجاد والبطولات العربية وانحدار الشعر السريع الى الضعف بعد اختفاء جيل المخضرمين وثمة سمات اخرى تميز أدب العراق كنشاط شعر الزندقة والالحاد والمجون بعد الاحتلال المغولي واستمرار هذه الموجة حتى حكم غازان ودخول المغول في الاسلام في آخر القرن السابع

للهجـرة (القـرن الثالث عشـر للميلاد) ، وينفـرد ادب العـراق ايضـا بابتداع فـن مدحي ديني جديد هو شـعر المدائـح النبوية وبكثرة ما نظمه الشعراء العراقيون في مدح آل البيت ولاسيما مـدح الامـام علي وبكاء الحسين (عليهما السلام) وجميع ضحايا فاجعة كربلاء ولا نجد من هـذا المدح الا القليل خارج العراق • وأبتدع العراقيون أيضا البديعيات وقـد بدأ بها بدرالدين الاربلي الى مدح الرسـول (ص) صفي‌الدين الحلـي من القرن الثامن كما ابتدع العراقيون اكثر فنون الشعر غير المعرب والعامي منذ أواسط العصر العباسي ، كالمواليا ، وكان ماكان ، ويبالغ بعض الباحثين فيعزو اليهم اختراع الموشح والزجل وهذا خطأ • وشـعراء العراق وكتابه ونقاده هم الذين أوجدوا أو بلوروا اكثر طرائق البديع اللفظي والمعنوي التي صارت شرا مستطيرا على الشعر والكتابة الفنية منذ اواخر العصر العباسي ، وقد أكثر منها الحريري فشاعت لشيوع مقاماتـه واقبال المتأخريـن على حفظها وشرحها ومحاكاتها ولعل الحريري أول من نظم ذوات القوافي والنظم الذي يقرأ طردا وعكسا والذي كل الفاظه معجمة او غـير معجمة وغير ذلك من الالاعيب والتمارين اللفظية التي لا تمت الى فن الشعر بصلة •

واذا عدنا الى اتجاهات الشـعر الكبرى وجدنـا الاتجاه الديني في طليعتها لاسباب يطول شرحها كضـخامة التراث الشـعري الديني وهـول الكوارث التي أنزلها المغول بالعراق وكثرة المدارسـ والجوامـع والربط والتكايا وغلبة العلوم الدينية على الدراسة والتدريس فيها •• الخ

ومن‌مشاهير شعراء الزهديات ابن‌الظهير الاربلي ٦٧٧هـ/١٢٧٨م وياقوت المستعصمي وتقي‌الدين الواسطي وابن المحقق وابن الملحمي وغيرهم ، يقول ابن الظهير :

كـل حي الـى الممات مآبـه ومـدى عمره سـريع ذهابـه

وأذا كــان آخر الامــر هــذا فلماذا على الحيــــاة اكتئابــه
هــذه ســنة الحيــاة قديمــا وعلى مثلهــا مضــت احقابــه

وكقول ياقوت المستعصمي :

أتعتقــــدون ان الملك يبقــي وأن العيشــ في الدنيـا يدوم
ولايجري الــزوال لكم ببــال كــأن الموت ليســ لــه هموم

ولا تخرج الزهديات الاخرى من موضوعات الزهد المعروفة كذم الدنيا وامتداح الآخرة وذكر الموت والبعث والحساب والثواب والعقاب وذم الغنى والاغنياء ومــدح الفقراء والدفــاع عنهم ... الــخ والجديــد فيهـا تأثرها بأساليب المتصوفة منذ اواخر العصر العباسي . والجديد الذي يمت الى أواخر العصر المغولي ظهور الموشحات والازجال في الشــعر الزهــدي كموشحة الملحمي :

نشــرت ريح الصــبا روح الصــباح
فصــبا المشــتاق
وبكى عصــر الصــبا الماضــي ونــاح
من جوى الاشفاق
مثــل الـــورد على المــاء المعــــين
مثــل الانســان
زهــرة العمــر لـــه في الاربعـــين
وبــدا النقصــان
ولقـــد تعجلــه بعضـــ الســنين
تكســر الاغصــان
أقــم الحـــد فمــا المعنــى مــزاح
وافتــح الآفــاق

وادخر ما سطعت من فعـل الصـلاح

قبـل ان تعتـاق ... الخ

أما المدائح النبوية فكان أول ظهورها في العـراق واستقرت اساليبها واعرافها الفنية في اخريات العصر العباسي على يد الصرصري ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م الذي ملأ بها ديوانا ضخما يربو على عشرين مجلدا .

والمدائح نوعان : مدائح خالصة لمدح النبي (ص) ومدائح غير خالصة لذلك وانما تتخذ من مدحه (ص) مدخلا لمدح آل البيت الذي هو غرضها الرئيسي أو نظم البديعيات التي تجعل المدحة النبويـة متنا منظوما تعليميا لترويج علم البديع وقد أبتدعها صفي الدين الحلي في القرن الثامن كمـا أشرنا وتبعه كثيرون كأبن جابر والموصلي وابن حجة الحموي وغيرهـم ، ويمكن ان نضيف نوعا ثالثا هو المدحة الصوفية ولاسيما عند الذين اضافوا الى الحب الالهي حب الرسول (ص) وجاءوا بما يسميه مؤرخو التصوف بنظرية الحقيقة المحمدية ، ولانعني بذلك المديح النبوي التقليدي المتأثـر بالمذاهب والاساليب الصوفية مثل مدائح البوصيري لان هذا النوع يدخل ضمن المدائح النبوية التقليدية .

وكان ظهور الموشحات والمدح النبوي اضافة الى توسع الغزل الرمزي الصوفي وامتزاجه بقصص الحب العذري بتأثير شعراء الفرس من اهم الظواهر الجديدة فيه ، وقد اتسعت الحركة الصوفية في هذا العصر لاسـباب كثيرة كتشجيع المغول والسلاطين والحكام وشيوع الطرق الصوفية التي نشأت في العصر العباسي الاخير كالرفاعية والقادرية وظهور طرق جديدة في العصر المغولي كالبكتاشية والنقشبندية والمولوية والملامتية وغيرها . وكان اتجاه الشعـر الصوفي الى الاسلوب شبه الدارج والعامي في ازجالهم وموشحاتهم واذكارهم من اهم خصائص الشعر الصوفي في العصور المتأخرة وما زالت نفس الاذكار والموشحات تنشد الى اليوم في حلقات الذكر .

وابرز شعراء التصوف في هذا العصر ابن عامر البصري صاحب التائية الشهيرة • وابن البقال البغدادي الصوفي ٦٦٦ هـ/١٢٦٧ م وابو نصر الحراز ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م وله ديوان مشهور لم يصل الينا ، وابن الطيب البغدادي وكان حيا سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م وعفيف الدين الغطاوي الحلي وكان حيا سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٨ م واحمد الواسطي الشافعي ٦٩٤ هـ/١٢٩٤ م وجلال الدين الكازروني ٧٢٧هـ/١٣٢٦م وشهاب الدين بن عسكر البغدادي مدرس المستنصرية ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م وناصر الدين الواسطي الواعظ ٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م واهم ما وصلنا من نتاج هؤلاء الشعري تائية ابن عامر التي عارض بها التائية الكبرى لابن الفارض ، وقد نشرها عبدالقادر المغربي واعاد نشرها الدكتور كامل الشيبي في (ديوان الدوبيت) وكتب ملاحظات قيمة عنها وعن صاحبها كما درسها ماسينيون واهتم بها غيره من المستشرقين • وقد قسمها ابن عامر الى اقسام سماها الانوار وهي طويلة تزيد على ستمائة بيت ومن نورها الاول قوله:

تـجلى لهـا المحبـوب من كـل وجهـة
فشاهدتـــه في كـل مـعنى وصـورة

وخاطبنـي منـي بكشـف سـرائر
تـعالت عن الاغيـار لطفـا وجـلت

فقـال أتـدري مـن انـا قـلت يـا
منـادى انـا اذ كنـت أنـت حـقيقتي

وقـال كـذاك الامـر لكنمـا اذا
تعينت الاشـياء بـي كنـت نسختي !

فأوصلت ذاتـي باتحـادي بذاتـه
بغـير حلـول بـل بتخصيص نسبـة

وصـرت فنـاء في بقـاء مؤبـد
لـذات بديموميـة سرمديـة

ولا اشك في ان ابن عامر يتقبل بطريقة ما نظريتي وحدة الوجود والحلول على الرغم من تنصله من الثانية في البيت الخامس . اما اسلوبه فضعيف مهلهل النسج لا يرقى الى المستوى الرفيع لاسلوب سلطان العاشقين (ابن الفارض) وان كانت تائية ابن عامر كما يرى ماسنيون والشيبي وغيرهما اغنى بالافكار والموضوعات الصوفية .

* * *

ويضم الاتجاه الثاني الكبير شعر الخمر واللهو والعبث والمجون والزندقة والغزل . وهو ايضا استمرار لما كانت عليه هذه الاغراض والموضوعات في العصر السابق ولا سيما الاخير ، بل كان جل ما قيل فيها في العصر المغولي تقليدا ومحاكاة للشعراء العباسيين من المولدين والمحدثين والمتأخرين فجاءت اضعف وادنى مستوى من حيث البناء الفني . فشعر الخمر دار على نفس الموضوعات التي دارت عليها خمريات ابي نواس والحسين ابن الضحاك وابن المعتز وغيرهم . وكان ابو نواس ايضا ثم ابن حجاج وابن سكرة ومن تلاهم قدوة الناظمين في المجون واللهو والعبث في العصر المغولي كما كانوا ائمتهم في الغزل الحسي الذي اكثروا منه كثرة غريبة تلفت النظر ، ولكنها كثرة في غير تجديد ، فكل ما قيل في هذا الغرض وغيره تكرار واجترار واعادة . ومما زاد الطين بلة ان شعراء العصر المغولي اثقلوا ما نظموه وكبلوه باغلال المحسنات البديعية ولا سيما بانواع الجناس بل انهم اخضعوه لضروب من التمارين والالاعيب اللفظية والابجدية ، ونجد في خزانة الادب لابن حجة امثلة كثيرة من هذا النوع اختارها شواهد على طرائق البديع التي ذكر منها مئة واثنتين واربعين طريقة في شرحه لبديعيته ، والملاحظ الى جانب هذا الضعف الشامل والتقليد اللجوج ان كبار الشعراء كصفي الدين الحلي والتلعفري وابن الظهير الاربلي والعز الموصلي نظموا كثيرا من القصائد والقطع الجيدة في وصف الخمرة المقترن بوصف اللهو والمجون والوصف الخالص للخمرة ايضا . وقد اجاد بعض الاجادة ايضا ابن الحلاوي وابن زيلاق الموصليان وتقي الدين المغربي

وبزهم جميعا شاعر العصر الكبير صفي‌الدين الحلي وفي ديوانه عدد غير قليل من القصائد والمقطوعات اجتذبت الذين عنوا بهذه الاغراض ولا سيما وصف الخمرة كالنواجي صاحب (حلبة الكميت) الذي اختار كثير من شعر صفي الدين الحلي وبثها في فصول كتابه .

ولا يسعنا زيادة التفصيل في هذا انباب ولا ايراد الشواهد والامثلة ، ولسنا بحاجة ايضا الى تفصيل الكلام عن الاتجاه التقليدي الثالث الذي يشمل ما نظمه شعراء العصر في الاغراض والفنون الموروثة كالمديح والرثاء والوصف والغزل والفخر والحماسة والعتاب والاعتذار وغيرها . وقد نظم فيها شعراء العصر كثيرا من الشعر ولكن قلما نجد فيه الجيد الذي يجتذب القلب والنفس والرائع الذي يعلق بالذاكرة . اما شعر الفخر والحماسة فكاد يختفي عند شعراء العراق الا ما نظمه صفي‌الدين الحلي في الارتقيات وفي مدائحه الاخرى لامراء ماردين وكأنما اراد ان يعيد الى الذاكرة مدائح المتنبي الخالدة لسيف الدولة وان يقوم بالدور الذي قام به في بلاط الحمدانيين ولكن على مسرح اخر ولنقل على مدرج ماردين عاصمة الدويلة الارتقية ، وشتان ما بين العصرين والدولتين ، فسيف الدولة كان بطلا قوميا قضى حياته بخوض معركة اثر معركة لصد هجمات البيزنطيين على الثغور وحماية الارض العربية والدفاع المستميت عنها ، والاراتقة امراء اضطروا الى مهادنة هولاكو واخلافه واكتفوا بماردين ونصيبين وبقعة صغيرة من جزيرة ابن عمر انزووا فيها قانعين ولم يخوضوا الا بعض المعارك الصغيرة ضد جيرانهم من الامراء ، فالحوافز ومصادر الوحي الشعري التي كانت تغذي شعر المتنبي لم يكن لها وجود حول صفي‌الدين الحلي لا في المكان ولا في الزمان ، فكان من الطبيعي ان يضعف شعر الفخر والحماسة على الرغم من الجهد الكبير الذي بذله صفي‌الدين الحلي ، ولا ريب في ان شاعريته القوية، وقدرته على تقمص شخصية المتنبي او شيء منها قد دفعته الى الاجادة في مدحه للاراتقة وافادته من ذلك للفخر بعروبته الا

ان النظرة الشاملة لنتاج العصر في هذين الغرضين تؤكد نضوبهما وضعفهما ، فالحال بعد الاحتلال المغولي غير الحال والجو غير الجو والشعراء ايضا غـير الشعـراء .

ولم تكن مدائح الشعراء العراقيين لعلاءالدين الجويني من الطراز الذي يخلد او يثير الاعجاب على الرغم من كثرتها وكأن الشعراء وجدوا في الجويني وطربه للمديح لاسباب شخصية وسياسية فرصا سانحة تتيح لهم التكسب بالشعر في عصر اصبح امراؤه وحكامه من اجلاف الاعاجم فتهافتوا على مدح الجويني واخيه وبعض رجاله فبالغوا وافرطوا واجاد بعضهم في بعض القطع والابيات كقول ابن الكبوش البصري :

عطـا ملـك عطـاؤك ملـك مصـر
وبعضـ عبيـد دولتـك العزيـز
تجـازي كـل ذي ذنـب بعفـو
ومثلـك مـن يجـازي او يجيـز

وللمتكسبين بالشعر عذر في التهافت على مدحه فثقافته العربية رغم اصله الفارسي واجتذابه للشعراء يبدو وكأنه فلتة من فلتات الحظ في عصر كسد فيه الشعر وانقطع رزق المرتزقين بالمديح .

واذا استثنينا هذين الحدثين البارزين في حياة المدح والمداحين وهما سياسة عطا ملك الجويني واخيه في النصف الثاني من القرن السابع ، وامراء ماردين الاراتقة في القرن الثامن ، امكن القول ان سقوط بغداد وخلافتها انهى العهود الذهبية للمدح والمداحين فانسحبوا الى زوايا العلاقات الشخصية واعتاب صغار الناس ممن ليس لهم مناقب وبطولات تومض المديح وتمنحه شيئا من الاثارة والاهمية فبار هذا الفن واضطر الشعراء الى التوجه نحو الابطال والامجاد الماضية ولا سيما الدينية فاتسعت موجة المدائح النبوية ومدائح ال البيت والعلماء والاولياء وكانت بؤر هذه الموجة قد ظهرت منذ

القرن الخامس للهجرة ، اي منذ استيلاء الاعاجم من بويهيين وسلاجقة وغيرهم على السلطة والمال والجاه ، غير انها لم تتوسع فقد كان للعرب والعروبة بقية من القوة والمال والجاه ابقت للمدح والمداحين فرصا واسبابا للبقاء والعيش ثم خرج من غمار الحروب الصليبية في القرن السادس من جهة ومن صراع الخلافة العباسية مع اخر السلاجقة ابطال جدد يديرون الرؤوس فعاد المدح الى الازدهار في العصر العباسي الاخير فاذا احتل المغول بغداد والعراق أنتهى عصر البطولات واسدل الستار على فصله الاخير •

ويقال مثل هذا تقريبا عن بعض اغراض الشعر الاخرى الا ان اوائل العصر المغولي سطع فيها نور خاطف اضاء سماء الشعر برهة وحرك العواطف والذكريات والاحزان كان هذا النور بكاء الشعراء على بغداد التي حفرت نكبتها ضمائرهم ومزقت افئدتهم فنفثوا اجمل وافضل ما جاد به الشعر في العصر المغولي اذا اخذنا بنظر الاعتبار معيار الاصالة العاطفية والصدق الفني المنزه عن الغرض •

وقد لفتت هذه الظاهرة المتألقة انظار مؤرخي الادب فكان الشعر الذي قيل في رثاء بغداد وخلافتها ووصف نكبتها العظمى في طليعة ما اهتم بـه الدارسون القلائل لادب ما بعد سقوط بغداد •

وقد ابدع في بكاء بغداد ورثائها فريق من الشعراء وبعض الناثرين واكثر المؤرخين حتى ان الادب التاريخي الجاف تحول عند الذين استفزتهم النكبة من مؤرخي العصر الى روائع من فن التعبير النثري المرسل حيث يمتزج وصف الاحداث الدموية بالعواطف الباكية والالام المبرحة والحزن العميق • ولـم يعدم شيئا من هذا حتى بعض عشاق الكتابة الفنية المصنعة المولعة بالسجع والبديع • لقد قيل شعر كثير ضاع اغلبه ، وكتب نثر غزير ايضا ووصلت منهما اقباس تنقلت بين اقلام اصحاب التراجم ولو حفظت لنا دواوين شعراء العصر لوجدنا ما يشبه الفيض •

فمن الذين وصلت بعض مراثيهم لبغداد شمس الدين الكوفي ٦٧٥هـ/١٢٧٦م واسماعيل بن ابي اليسر التنوخي ووصل من شعره قصيدة من ستة وستين بيتا والشاعر الفارسي سعدي الشيرازي الذي تردد على بغداد ونهل من فيض ادبها وعلمها وفنها وكان وفيا لها فبكاها بشعر عربي وشعر فارسي وقصائد شمس الدين الكوفي من اشهر ما بقى من هذا اللون الاصيل من الشعر الذي فقد منه الكثير ومما قاله شمس الدين :

عنـــدي لاجـــل فراقكـــم آلام
والام اعـــــذل فيكـــــم وألام

من كـــان مثلـــي للحبيب مفارقـــا
لا تعذلـــوه فالكـــلام كـــلام

وبـــذيب روحـــي نـــوح كل حمامـــة
فكأنمـــا نـــوح الحمـــام حمـــام

ان كنـــت مثلـــى للاحبـــة فاقـــدا
اوفـــى في فـــؤادك لوعـــة وغـــرام

قـــف من ديـــار الظاعنـــين ونادهـــا
يـــا دار ما فعلـــت بـــك الايـــام

يا غائبـــين وفي الفـــؤاد لبعدهـــم
نـــار لهـــا بـــين الضلـــوع ضـــرام

لا كتبكـــم تأتـــي ولا اخباركـــم
تـــروى ولا تدنيكـــم الاحـــلام

بغضتـــم الدنيـــا علـــى وكلمـــا
جـــد النـــوى لعبـــت بـــي الاسقـــام

واذا كان هذا الاسلوب الحزين الباكي يتخفى بالبكاء على الحبيبة خوفا

من بطش المغول فان اسلوب قصيدة نونية اخرى جاء اقوى تعبيرا واقل رمزية واوثق صلة بنكبة بغداد ، قال :

ان لم تقرح ادمعي اجفاني
من بعد بعدكم فما اجفاني
انسان عيني مذ تناءت داركم
ما راقه نظر الى انسان
ياليتني قد مت قبل فراقكم
ولساعة التوديع لا احياني
ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم
ووقفت فيها وقفة الحيران
وسألتها لكن بغير تكلم
فتكلمت لكن بغير لسان
ناديتها يا دار ما صنع الالى
كانوا هم الاوطان في الاوطان
اين الذين عهدتهم ولعزهم
ذلا تخر معاقد التيجان
لما رأيت الدار بعد فراقهم
اضحت معطلة من السكان
ما زلت أبكيهم وألثم وحشة
لرحيلهم مستهدم الاركان
حتى رثا لي كل من لا وجده
وجدى ولا اشجانه اشجاني ... الخ

ويمضي شمس الدين في قصيدته على هذا المنوال معبرا بلوعة وحرارة وصدق عن حزنه العميق مستعينا بلغة البكاء على الاطلال في الغزل التقليدي

وكأنه وجد فيها المتنفس عن مشاعره المكظومة ولكن الشاعر لا يستطيع ان يمضي في الحذر والتحفظ فالسنة اللهب في صدره لا تلبث ان تتلظى وتتراقص على لسانه فيبدو اكثر صراحة في قصيدة اخرى يقول فيها :

بانـوا ولى ادمـع في الخـد تشتبـك
ولوعـة في مجـال الصـدر تعتـرك
بالرغـم لا بالرضـا منـي فراقهـم
سـاروا ولم أدر أيّ الارض قد سلكوا
يا نكبـة ما نجـا من صرفهـا احـد
من الورى فاستوى الملـوك والملـك
تمكنـت بعـد عـز في احبتنـا
أيـدي الاعادي فما ابقـو ولا تركـوا
لـو ان ما نالهـم يفـدى فديتهـم
بمهجتـي وبمـا اصـبحت امتلـك
ايـن الذين على كـل الـورى حكموا
ايـن الذين اقتنوا اين الالـى ملكـوا
اجابني الطلل البالي وربعهم الخالي نعم ها هنا كانوا وقد هلكوا
لا تحسبوا الدمـع ماء في الخدود جـرى
وانمـا هـي روح الصـب تنسـبك

اما ابن ابي اليسر التنوخي فكان شعره الذي بكى فيه بغداد قويـاً صريحاً مشبوب العاطفة . قال في رائيته الشهيرة :

لسـائل الدمـع عـن بغـداد اخبار
فما وقوفـك والاحبـاب قـد سـاروا ؟
يا سـائرين الـى الـزوراء لا تفـدوا
فمـا بـذاك الحمـى والـدار ديـار

تاج الخلافة والربع الذي شرفت
به المعالم قد عفاه اقفار
اضحى لعطف البلى في ربعه أثر
وللدموع على الآثار آثار
ناديت والسبي مهتوك بجرهم
الى السفاح من الاعداء دعار
وهم يساقون للموت الذي شهدوا
النار يا رب تصلاه ولا العار
من بعد أسر بني العباس كلهم
فلا أنار لوجه الصبح واسفار
ما راق لي قط شيء بعد بينهم
الا احاديث أرويها وآثار
لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا
سوق لمجد وقد بانوا وما باروا
ان القيامة في بغداد قد وجدت
وحدها حين للاقبال ادبار
آل النبي واهل العلم قد سبيوا
فمن ترى بعدهم تحويه امصار
ما كنت آمل ان ابقى وقد ذهبوا
لكن أبت دون ما اختار أقدار

ولا يخفى ما في هذه الاشعار من اصالة وجدانية ابعدتها عن التكلف السائد في شعر العصر ونزهتها عن اية غاية غير التعبير الصادق الذي يصور

تدافع العواطف في قلب الشاعر وعلى لسانه حتى لنكاد نتخيل ان يده ترتعش وقلمه كان يهتز وهو ينفث هذه الحسرات والاحزان على بغداد •

وجاء الاسلوب بعيدا كما اشرنا عما شاع من تصنع وكلف بالبديع في شعر العصر فكأن العواطف الجياشة لم تدع للشاعر فرصا للتروي والتأمل والتفكير لكي يتوصل الى صيغ بديعية لفظية او معنوية • هو هنا نبض الوجدان ودفق الفؤاد المكلوم • وما زال هذا الشعر على الرغم من افتقاره الى روعة الفن التصويري لاحداث النكبة المرعبة مصباحا يتألق في صحراء العصر المغولي التي اطبق عليها ظلام ليل طويل كليالي القطب الجنوبي • وما زالت نكبة بغداد جديرة بان تنظم فيها ملاحم شعرية كبرى تكون عبرة لمن اعتبر • وقد ضرب شمس الدين الكوفي على هذا الوتر حين قال :

ان ترد عبرة فتلك بنو العباس حلت عليهم الآفات
استبيح الحريم اذ قتل الاحياء منهم واحرق الاموات

ومما قاله معرضا بالعلقمي الوزير :

يا عصبة الاسلام نوحوا واندبوا
أسفا على ما حل بالمستعصم
دست الوزارة كان قبل زمانه
لابن الفرات فصار لابن العلقمي

(٢)
العصر العثماني

تضافرت السياسة والجهل والفقر والقحط والجوع والوباء وويلات الحرب وسيول البدع والطرق الصوفية على توسيع خارطة البؤس والتأخر والتمزق الديني والاجتماعي وتقوية العصبيات المحلية والقبلية والمذهبية لاضعاف العراق والاستحواذ على خيراته . حقا ان فرائص الانسان لترتعد هلعا وهو يقرأ اوصاف الكوارث التي حلت بالعراق ليطلع على الاحوال السياسية والاجتماعية ، اما الاحوال الثقافية فتتميز خلال العصر العثماني الاول بتدهور الادب وضعفه وعجزه حتى عن اللحاق بالعصور المتأخرة السابقة مع تخلفها وفقرها . وقد اقترن التدهور والضعف بتوسع نفوذ اللغة الفارسية بتأثير الصفويين ، واستمرار الغزو اللغوي التركي الذي بدأ منذ العصر المغولي ثم تغلغله في الميادين الادارية والاجتماعية والادبية بعد الاحتلال العثماني . حتى ان الموجة التركية العثمانية نجحت في وقت مبكر في تخريج اجيال من الشعراء والادباء والمؤلفين العراقيين يقرضون الشعر ويكتبون النثر بالتركية الآذرية ، فكان لهم فضل وضع اسس ودعائم الادب التركي والتمهيد لمستقبله اللغوي والفني كما يشير حسين مجيب المصري في كتابه تاريخ الادب التركي وكتابه فضولي بغدادي نقلا عن مؤرخي الادب الاتراك . واشهر اولئك الشعراء فضولي البغدادي وابنه فضلي وشمسي البغدادي وابنه عهدي الكاتب المؤرخ المشهور بكتابه (كلشن شعرا) الذي اورد فيه اسماء نحو اربعين شاعرا من شعراء بغداد الذين كانوا ينظمون بالتركية والفارسية والعربية في اواخر القرن العاشر الهجري (القرن ١٦ م). وفي هذا العصر ازدادت اهمية المراكز الثقافية العربية في المدن الكبيرة كالبصرة والموصل والنجف والحلة نتيجة لتمركز النفوذ السياسي والثقافي التركي في بغداد ، حتى ان البصرة اصبحت من اكبر مراكز الادب والثقافة العربية بفضل اسرة افراسياب التي حكمتها

وراحت ترعى الشعراء والادباء العرب لاسناد سياستها الاستقلالية المناهضة للولاة العثمانيين في بغداد واسهم في هذا الازدهار العربي ايضا استمرار حكم المشعشعين في الحويزة وعربستان . وكان هؤلاء يفيدون من الصراع الفارسي العثماني لابقاء امارتهم ويجتذبون الشعراء والادباء ويجزلون لهم العطاء للافادة من الحس القومي وكسب عطف القبائل العربية والعرب المتحضرين في مدن العراق والخليج العربي . وقد انجبت منطقتهم كبار شعراء العصر كعبدعلي الحويزي وابن معتوق شهاب الدين الموسوي . ومن خصائص هذا العصر اندماج شعراء البحرين بشعراء العراق اقليميا واديبا وفنيا لهذا الحقتهم المصادر بالعراقيين لانهم يؤلفون مجموعة واحدة متجانسة. ومن مشاهير شعراء وادباء العصر الذين اتصلوا بالامارات المذكورة وفرضوا شاعريتهم وشهرتهم والترجمة لهم في المصنفات المعنية بعصرهم : ابو الغنائم محمد الحلي ، وحسين بن كمال الدين الابرز الحلي ، ومحمد بن عواد الشهير بالهيكلي الحلي ، وعلي بن خلف الحويزي وهؤلاء هم الذين ترجم لهم ابن معصوم في (سلافة العصر) والمحبي في خلاصة الاثر ، وفي نفحة الريحانة . ولا ريب في ان تقدمهم على شعراء عصرهم وشهرتهم قد اوصلت اخبارهم الى كتاب التراجم والتواريخ من الشاميين والمصريين . وكان عبدعلي الحويزى اشهرهم واقدرهم على الشعر المتصنع المساير لذوق العصر ، وللحويزي اشعار بالفارسية والتركية وقيل (دواوين) وذلك امر له دلالاته المهمة في تاريخ ادب العصر ، ومن حسن حظ الحويزي ان كثيرا من شعره وبعض مؤلفاته قد وصلت الينا . ومنها مؤلفات في الادب والتاريخ والموسيقى والشعر الشعبي .

والحق ان الحويزي وابن معتوق كانا اكبر شعراء هذا العصر الا ان الاول اقوى شاعرية واكثر تصرفا واوسع ثقافة وافقا من ابن معتوق . وله شعر كثير جيد عالي المستوى بالقياس الى شعراء عصره منه ما جاء في مقطوعات

ومنه غزل ووصف وحكمة تبعثرت في مدائحه لافراسياب باشا بن افراسياب الذي استقل بولاية البصرة وتحدى السلطان العثماني بعد وفاة ابيه سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٣ م وقد كتب عنه بحثا قيما الدكتور عماد عبدالسلام وذكر مؤلفاته العديدة : « الغيث الها مع في ذكر ادباء الاقليم الرابع » ، أي ادباء الخليج العربي والعراق ، وكتابه ادباء العجم والبحرين والحجاز والعراق والشام » وشرح لامية العجم للطغرائى ، والمشعشعة في العروض و « كلام الملوك ملوك الكلام» وبين مؤلفاته في البلاغة «المعول في شرح شواهد المطول» وله كتب اخرى فيالنحو والتفسير والفقه، والغريب ان له مؤلفا في «علمالرمل» سماه « مدارج النمل في علم الرمل » ورسائل في شرح شعر دوبيت ، من نظم ممدوحه وراعيه علي باشا وشرح مواليا لابنه حسين باشا . ويرى الدكتور عماد ان اهم مؤلفاته التاريخية (السيرة المرضية في شرح الفرضية) لانه سجل دقيق للحوادث . وقال عنه ايضا « عرف الحويزي بين معاصريه بمتانة نظمه ، وجزالةالفاظهوتنوع بحوره وتمكنه من صناعة الشعر وفنونه تمكنا عجيبا » وقرظه ابن معصوم تقريظا لا يخلو من غلو على عادة كتاب العصر في اصطناع السجع والفخفخة اللفظية وذكر ان له ديوان شعر كبير بالعربية انتخب الشاعر نفسه مختارات منه وسماه « مجلى الافاضل » وقال ان له اشعارا بالتركية والفارسية « الا انها عند العارفين متروكة منسية كما قال ابن معصوم وشعر الحويزي يزخر بالمحسنات البديعية ولا سيما انواعالجناس والطباق،وبضروب البديع الاخرى الشائعة الطاغية على الشعر في عصره . وهو كثير الاستعمال لالفاظ النحو والفقه يقحمها اقحاما في الشعر ولكن ببراعة تستغل دلالتها النحوية لبعض المعاني المناسبة وخير مثل على ذلك قصيدة رائية قال صاحب السلافة انها « تشتمل على انواع من البديع مطلعها » :

قلبي وطرفك منصوب ومجرور   كلاهما مطلق منا ومأسور

ومما جاء فيها من هذا النمط :

قـدري وقدك مخفوض ومنتصب | والثغر والدمـع منظوم ومنثـور
بخفض قدري فيك الناسـ تعرفني | وهكـذا الحب تعـريف وتنكـير
قد اعرب الحب نحـوا بيننا حسنا | فالشعر والشعر مرفـوع ومجرور
ابدى ضروب بديـع طـرفه فلـه | في فتية العشق تصـريع وتشطـير
قداخلصت كيمياء الحب وجنتـه | كانها للهـوى العـذري اكسـير

ولكن شعره مع هذا التصنع لا يخلو احيانا من الجمال وتفلت منه ابيات لها روعة وتأثير تعلق بالذاكرة وهذه احدى مزايا الشعر الجيد • ومن بديـع شعره كما يقول ابن معصوم :

لمـن العيس عشـيا تترامـى | تركتهـا شـقق البـين سـهاما
كلمـا برقعهـا ريـح صـبا | لبسـت مـن احمـر الدمع لثاما
وترامـت خضعـا اعناقهـا | كلمـا هز لـه البـرق حسـاما
شـفها جـذب براهـا للحمـى | وهـي تثنـي لربـى نجد زماما
وتلقيهـا نسـيما حامـلا | عن ثرى وجرة ، انفاس الخزامـى
ما عـلى من حملت لو وقفـوا | ساعـة نشـرح وجـدا وغرامـا

ومن هذا الشعر الجيد ايضا قوله :

قام يجلوهـا وفي الاجفـان غمض | والندامـى نـوم بعض وبعض
والضيـا يرمـى به الفجـر الدجى | ولخيـل الصبح في الظلمـاء ركض
وكـأن الليـل غيـم مقلـع | لمعـان البـرق في جفنيـه ومض
في ريـاض نسـجت فيهـا الصبا | ولهـا في زهرهـا بسط وقبض
خـرج الـورد بهـا وجنتـه | والاقاحـي ضـحك والآس غض

وله تائية ذكرها ابن معصوم ايضا حافلة بالالفاظ والمعاني والمصطلحات المستعارة من الشعر الصوفي وهي تدل على اطلاعه الواسع وعلى براعته في تطويع الدلالات والحوادث والشخصيات التاريخية والعلمية للصيغ والمعاني المناسبة لفن الشعر •

اما ابن معتوق الذي اشتهر خطأ بهذه الكنية فشعره أدنى من شعر الحويزي • الا انه حظي بشهرة اوسع لوصول ديوانه وطبعه عدة طبعات • واسمه شهاب الدين الموسوي • وكان ديوانه مفرقا فجمعه ابنه معتوق بعد وفاةابيهسنة١٠٨٧هـ/١٦٧٦م وقدمهالىممدوحأبيهعليخانامير الحويزةواكثره مدائح لعلي خان ووالده منصور خان وبركة بن منصور وهم امراء المشعشعين وفيه مدائح لحسين باشا افراسياب ويحيى ابنه وهم امراء البصرة فكانت امارتهم تعاصر امارة المشعشعين وتنافسها • وما زال الديوان يحمل عنوان (ديوان ابن معتوق) وهو خطأ شائع •

وقبيل هذا العصر اعني في القرنين السابع والثامن تحولت موجة التأليف في النقد والبلاغة والبيان الى مد (البديع) ألطاغي وتجمدت واصبحت أشبه بـ (الوصفات) على الانماط التي تطالعنا في مؤلفات ابن ابي الاصبع في البديع وفي (خزانة الادب) لتلميذه ابن حجة الحموي وفي (معاهد التنصيص) للعباسي واضرابهما واستطاع المد البديعي أن يهيمن على اساليب التعبير الشعري والنثري فيقيدها ويجمدها ويحد من حركتها وحريتها الفنية ويحاصرها في دوائر ضيقة ويكبلها باغلال المحسنات اللفظية والابجدية المصطنعة • وكان موج الشعر التعليمي قد امتد الى فنون الشعر والبلاغة ليجعل منها (محفوظات) ثم اعقبته القصائد التعليمية المعروفة بـ (البديعيات) فاحالت الشعر الى مقررات جافة وقوالب جامدة حاصرت الفن في ضرب من (الروتين) الذي يعتمد الحفظ والتلقين والتكرار والتطبيق الجاف • فتقلص النشاط الادبي والفكري بوجه عام وبدت الالسنة والاقلام وكأنها انشلت او تعطلت منتظرة انجلاء الجو

السياسي والعسكري المدلهم • ومن مشاهير شعراء العصر اضافة الى من ذكرنا : عيسى بن حسين النجفي وقد ترجم له ابن معصوم وجمال الدين محمد بن عبدالله النجفي ، وعبدالرحمن الموصلي الشيباني وله ديوان في كوته وبرلين ، وياسين المفتي وحسن عبدالباقي وديوانه مطبوع ، ونصرالله الحائري وديوانه مطبوع ، وغرس الدين الخليلي وله ديوان مرتب على حروف المعجم واكثر قوافيه من الالفاظ المشتركة كالخال والعين ، ومن مشاهير الناثرين عبدالقادر البغدادي صاحب خزانة الادب والبديعي مؤلف كتاب الصبح المنبي، والشاعر عبد علي الحويزي وصديق ابن الحكيم (حكيم زاده) وفتح الله الكعبي ومحمود الغرابي وياسين المفتي وكان جل اعتماد الثقافة الادبية واللغوية والدينية على الجوامع والمدارس الملحقة بها ، وخزائن كتبها ، اما اهتمام الحكام واولي الامر بتشجيع العربية وادابها فقد انتهى امره منذ ثلاثة قرون أي مذ اصبح الحكام والسلاطين والوزراء من الاعاجم • ولكن هؤلاء لاسباب دينية ودنيوية أكثر ما اهتموا بالجوامع والمدارس فظل الكثير منها قائما في عهود المغول والتركمان • ويقرر العزاوي اننا لا نستطيع ان نعد جديدا من هذه المؤسسات لهذا العهد « لان الجوامع والمدارس والتكايا في بغداد لما قبل الفتح العثماني كثيرة جدا ، تدل على عناية الامة واتصالها بعقيدتها وثقافتها ، وكان عملها كبيرا في تحقيق الامرين : بث العقيدة وتأكيد الثقافة » و «غالب ما عملته الدولة تجديد ما اندرس من هذه المعاهد من الوقف (أي من اموال الاوقاف) فاكتسب بعضها اسماً جديدا » ثم ذكر العزاوي جملة مما عمر وجدد كجامع الشيخ عبدالقادر ومدرسته ، والامام الاعظم ومدرسته وجامع الوزير ومدرسته وجامع الصاغة ومدرسته وجامع الكاظمين وتكية المولوية، وتكية خضر الياس البكتاشية ، وجامع السراي ، وجامع جديد حسن باشا • وهذه تضاف الى ما كان قائما سابقا مثل مسجد قمرية ، والمدرسة المستنصرية، والمدرسة النجيبية ، ومدرسة السهروردي ، ومدرسة جامع الفضل ، وجامع مرجان •• الخ ويؤكد العزاوي ان العراق فاق غيره في كثرة المدارس والعناية

بها ، وان رغبة اهله في الثقافة هي التي ابقت عليها ، وانها « منبع الادب وأس العلوم ، ولولاها لما ثبتت او استقرت لنا ثقافة » . وقد فقد الكثير مما كان في خزائن المدارس والجوامع من كتب ومصنفات بسبب الحرب والغزو والنكبات ، ولان الصفويين ومن ثم العثمانيين نقلوا اعدادا كبيرة منها الى بلادهم . ومع هذا فقد حفظت آثار ادبية وعلمية كثيرة « ولم تنعدم او تزول ولا تزال لحد الان تتمتع بهذه الاثار ، وغالبها محفوظ في الجوامع والمساجد او لدى بعض الاسرات القديمة والحديثة » .

وفي المجال الثقافي شهدت اواخر العصر انتعاشا ادبيا وعلميا بتأثير عوامل عديدة اهمها رعاية الوالي حسن باشا وابنه احمد باشا للشعراء والعلماء ، وسياسة الجليليين الذين عنوا عناية كبيرة بالحركة العلمية والادبية فاسسوا المدارس وعمروا الجوامع وقدموا الهبات والاعانات للمؤلفين والمترجمين ووسعوا المكتبات .. الخ وكان بين الجليليين انفسهم ادباء وعلماء يستحقون الذكر . ولكن حذار ان تظن ان هذا التحرك الثقافي يعني ان الاحوال الاقتصادية والاجتماعية قد تحسنت ، فعجلة التدهور كانت ماضية في دورانها ، والمصائب والكوارث الصحية والاجتماعية والاقتصادية تتوالى آخذا بعضها برقاب بعض ، وحملات القمع والعسف تتكرر ، واستبداد الانكشارية وتجبرهم وعبثهم يتفاقم،واستهتار قادتهم وصنائعهم بمصالح البلاد والعباد يشتد وتزداد ضحاياه . وكان تتابع الولاة من الضعفاء وفاسدي الذمم والاخلاق خلال اشهر يدفعهم الى التهالك على الاطماع والانغماس في الملذات والارتشاء والنهب فينقل الحال من سيء الى اسوأ . ولم تتحسن الاحوال بعض التحسن الا في آخر العصر .

ومن اشهر شعراء هذا العصر حسن عبدالباقي الموصلي (ت ١١٧٦ هـ/ ١٧٦٢ م) ونصرالله الحائري (ت ١١٥٨ هـ/١٧٤٥ م) وخليل البصير (ت ١١٧٦ هـ/١٧٦٢ م) صاحب الارجوزة الشهيرة التي سجلت بطولة الموصل

في صد هجوم نادر شاه سنة (١١٥٥ هـ /١٧٤٢ م) ، ومحمود الغرابي (١١٠٠ هـ/١٦٨٨ م) وجرجيس بن درويش الموصلي (ت ١١٤١ هـ / ١٧٢٨ م) . وانجب العصر ايضا عددا من الناثرين والمصنفين سيأتي ذكرهم عند دراسة العصور الادبية تفصيلا .

ومما يحسن التنبيه اليه هنا ان الحياة الادبية والفكرية في النصف الثاني من هذا العصر (بين اواسط القرن الحادي عشر واواسط الثاني عشر للهجرة) كانت اوسع واغنى ، ولكن احداث العصر وكوارثه أضاعت اغلب الدواوين والمصنفات والوثائق حتى ليجد المؤرخ عنتا كبيرا اذا اراد التوسع في الدراسة . ولم يقتصر الضياع على الاثار العربية بل شمل الاثار التركية نفسها ، فالقسم الاعظم من الادب المكتوب بالتركية قد توارى في الزوايا والخفايا . وما زال مؤرخو الادب العثماني يعترفون بأن الغموض يسود هذه المرحلة من تاريخ الادب التركي . وثمة ظاهرة خطيرة المحنا اليها تميز اوائل هذا العصر عن اواخره . ففي اوائله كسبت الفارسية مجموعة من ادباء العراق واعقبتها التركية فكسبت عددا أكبر حتى رجحت كفة اللسان التركي وبخاصة في الشعر . اما في الصنف الثاني اي قبيل عصر المماليك التالي فقد عادت كفة العربية الى الرجحان واستعادت نفوذها الادبي والعلمي وبخاصة في الموصل حتى « غلبت على ثقافة العهد فكانت لغة التأليف في شتى العلوم والمعارف ، اضافة الى كونها لغة الشعر والادب ويوجد في خزائن الكتب الموقوفة والخاصة في مدينة الموصل عدد ضخم من المؤلفات الادبية والعلمية والدواوين ، كتبت او نظمت بلغة عربية جيدة ... الخ » وقد استمر هذا الازدهار في عهد المماليك واسهم في ايقاظ الروح القومية والامال العربية .

عصر المماليك (١١٦٢-١٢٤٧ هـ / ١٧٤٨-١٨٣١ م)

شهد هذا العصر الانتعاش او الازدهار المتواضع في الآداب والعلوم الدينية في نتاج الشعراء والادباء والمشتغلين بالتأليف والتصنيف في العلوم

العربية والاسلامية ، وفي بعض النزعات والمؤشرات التي اتجهت الى شيء من التجديد في بعض الافكار والموضوعات ومهدت للنهضة الادبية والفكرية التي ظهرت بوادرها القوية في العصر الثاني أي في القرن التاسع عشر ، وهي بوادر هيأت اسباب ودوافع ومقومات النهضة الادبية الحديثة في العراق .

ومن مشاهير شعراء العصر العشاري البغدادي وقد طبع ديوانه في بغداد سنة ١٩٧٧ بتحقيق عماد عبدالسلام ووليد الاعظمي، والشيخ محمد كاظم الازري المتوفى ١٢١١هـ/١٧٩٦م وديوانه مطبوع ايضا . ويمتاز هذان الشاعران بظهور البوادر الاولى للشعر السياسي الذي ينتقد ولاة المماليك والعثمانيين ويصور مساوىء الحكم العثماني ولكن في اطار او من خلال رثاء الشهيد العربي عبدالله الشاوي الذي اغتاله عمر باشا الوالي المملوكي والشيخ احمد النحوي وله ديوان وشعر كثير وتوفي سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٥م والحاج محمد جواد البغدادي ، وله ديوان كسابقه النحوي في خزانة عباس العزاوي وقد توفي بعد سنة ١١٦٣هـ/١٧٤٩م، والشيخ عبدالله السويدي وولده الشيخ عبدالرحمن السويدي وله ديوان في خزانة العزاوي وقد اشرنا الى ارجوزته التي يصف فيها صمود بغداد امام حصار نادر شاه ويتغنى فيها ايضا بانتصار الموصل على الحصار . وقد فضح السويدي اطماع الفرس التقليدية واشاد بشجاعة العراقيين في قصائد كثيرة . وتمتاز ارجوزته بتضمين ابيات واشطر كثيرة من ألفية ابن مالك بطريقة بارعة اعطت لابيات الالفية واشطرها المضمنة ابعادا تخرجها من دائرة النحو الى ميدان الشعر الحماسي ، وقد تولع الشعراء المعاصرون بهذه الطريقة فنظم احمد النحوي قصيدة طويلة في مديح شيخه السيد نصرالله الحسيني ضمن كل بيت منها شطرا من الالفية . ومن شعراء هذا العهد محمد امين آل ياسين المفتي وديوانه مجلد ضخم في خزانة العزاوي وخليل البصير (١١١٢-١١٧٦هـ/١٧٠٠-١٧٦٢م) صاحب الارجوزة الشهيرة في حصار نادر شاه للموصل ودفاع أهاليها المجيد عنها وانتصارهم على الفرس .

وقد نشرها سعيد الديوجي كما نشر عماد عبدالسلام له ارجوزة اخرى في النحو اسمها الدرر المنظومة والصرر المختومة في مجلة المجمع العلمي العراقي. وعبدالله آل ياسين المفتي ـ ابن محمد امين السابق ذكره ، وله ديوان في ٢٠٠ ورقة في خزانة العزاوي .. وقد ذكر العزاوي شعراء آخرين لم يُعثر لهم على ديوان منهم من كثر شعره ومن قل كيحيى البغدادي (ت ١١٨٦ هـ/١٧٧٢ م) وقاسم الرامي (ت ١١٨٦هـ/١٧٧٢م) وعبدالرسول الطريحي (ت ١١٨٦هـ/١٧٧٢م) وحسن الموصلي (ت ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م) ومحمد امين الخطيب العمري (ت ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م) وصادق الفحام (١٢٠٤هـ/١٧٩٠ م) والحاج سليمان الشاوي (١٢٠٩هـ/١٧٩٤ م) ومحمد رضا ابن الشاعر احمد النحوي المذكور (١٢٢٦ هـ/١٨١١ م) وعثمان بن سند ١٢٤٢ هـ/١٨٢٧ م) وصالح السعدي الموصلي (١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ م) والحاج عثمان الجليلي (١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ م) وعلي علاء الدين الموصلي (١٢٤٧ هـ /١٨٣١ م) ومحمد جواد السياهبوش (١٢٤٧ هـ/١٨٣١ م) ولاكثر المذكورين انتاج نثري اضافة الى الشعر ، وبعضهم من اصحاب البنود التي تولع بها فريق من شعراء العراق منذ اوائل العصر العثماني وكان العشاري من اشهر هؤلاء . ولكن النثر كان له رجاله المجلون كالشيخ محمد مصطفى الغلامي (١١٨٦ هـ/١٧٧٢ م) مؤلف شمامة العنبر الذي أثنى عليه المصنفون العراقيون وغير العراقيين ، وعثمان الدفتري صاحب (الروض النضر) (١١٨٤ هـ/١٧٧٠ م) والشيخ عبدالله السويدي مؤلف (النفحة المسكية في الرحلة المكية) و (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء) ومصنفات عديدة اخرى . وكالاديب المؤرخ عثمان بن سند البصري مؤلف كتابه المعروف في داود باشا (مطالع السعود في طيب اخبار الوزير داود) و (سبائك العسجد في اخبار احمد نجل رزق الاسعد) و (أصفى الموارد من سلسال احوال الامام خالد) ومن مشاهير الناثرين ايضا الحاج عثمان الجليلي (١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ م) وقد اشتهر بكتابه (الحجة على من زاد على ابن حجة) ولعله من اهم المصنفات في علم البديع والنقد المتقيد ببديعيات هذا العصر .

وكان هؤلاء أي اعلام النثر في العراق يلتزمون بما يلتزم به كتاب العصور المتأخرة من صنع بديعي وتألق لفظي وسجع وازدواج وولع شديد بالتضمين، ومن تكرار واعادة ودوران في دوامة فكرة واحدة لا يكادون ينفلتون منها . ولكنهم يمتازون بذخيرتهم اللغوية الغنية ، وبسعة اطلاعهم على التراث العربي القديم وتمسكهم بنماذجه ولا سيما المتأخرة وبخاصة في فن النثر المصنع . وقد رسخ كل هذا طابعهم (السلفي) الغالب عليهم وشدهم اليه وجرد مواهبهم واقلامهم من المقدرة على الابتكار والتجديد .

وهكذا نلاحظ أن عصر المماليك كان غنيا بشعرائه وكتابه بالقياس الى العصور المتأخرة السابقة ، وان احواله الثقافية اكثر سعة وحيوية ، وهذا ما اكده الذين اهتموا بعصر المماليك من أصحاب الدراسات التاريخية العامة والخاصة . ولكن اخبار شعرائه وكتابه قليلة لا تطرد مع كثرتهم وشهرة بعضهم .

قال العزاوي : « وفي آخر عهد المماليك استقر الشعر ، وتمكن في بغداد، وفي الاطراف ، ونال مكانة مقبولة كسائر فنون الادب ، ولم يخل من علاقة بين شعراء العراق ، او بينهم وبين بعض رجال الاقطار العربية ، وكلنا ثقة أن ينجلي الوضع الادبي من وجوهه المختلفة ، وتزول الفكرة السيئة التي ولدها كتاب (تذكرة الشعراء او شعراء بغداد وكتابها أيام داود باشا) . فالكتاب اصله كتب باللغة التركية ، وذكر بعض ادبائهم فترجم بلغة عامية ، وجعل له عنوان ضخم لاستهواء القراء فأفسد تاريخ الادب ، فهو لا يمثل الادب ولا الشعر في هذا العهد » . وراى العزاوي في هذا الكتاب صحيح لا مطعن فيه لان ما في الكتاب تافه لا خير فيه الا ان قلة المراجع والمعلومات والنصوص كانت بلا ريب سبب الاهتمام به وقيام الاب انستاس الكرملي بنشره . والان وقد مر ربع قرن على ظهور كتاب العزاوي تبدو شكوى من قلة مراجع ودواوين العصر المملوكي في العراق زائدة عن الحد ، فقد خفف من حدتها نشر بعض الدواوين ، والعثور على أخرى ، وطبع عدد من كتب التراجم

والتاريخ ، وظهور بعض الدراسات التاريخية الحسنة ، ولا شك في أن القيام بدراسة ادبية شاملة لعصر المماليك أمر نحن في اشد الحاجة اليه فهو قريب جدا من عصرنا هذا ، وموقعه التاريخي في غاية الاهمية لانه غطى القرن الثامن عشر الميلادي وهو عصر الثورة الصناعية والاستعمار في اوربا ، وعصر تحرك العرب والترك والفرس للخروج من قرون التأخر والقهر والدخول في عصر اليقظة والنهضة والحضارة العصرية ، وقد كثر فيه النتاج الشعري والنثري .

وقد استفحلت اكثر المساوىء والشروط التي عرف بها العهد العثماني في هذا العصر باستثناء عهد المصلح الشهير مدحت باشا آخر ولاته . ويبدون ان اسطنبول آثرت سياسة الضغط الشديد في العراق خشية ظهور وال آخر مثل داود يطمح كما طمح الى ان يلعب الدور الخطير الذي قام به محمدعلي الكبير في مصر والشام والحجاز . وكانت حملة نابليون الفاشلة خلال العقد الاخير من القرن الثامن عشر ثم قيام حكم محمدعلي الكبير بعدها في مصر قد نبهت الاذهان وايقظت مصر من سباتها العميق ووضعتها على اعتاب العصر الحديث وهذا مما لا يريد العثمانيون حدوثه في العراق . وقد حثهم على تشديد قبضتهم عليه رغبتهم في الضغط على الحركة الوهابية التي سيطرت على وسط الجزيرة وراحت تشن الهجمات على جنوب وغرب العراق ولعلهم ارادوا ان يضعوا الوهابيين بين نارين محمدعلي وجيشه القوي من الغرب ، وولاة العراق وجيشهم وانصارهم من العشائر العراقية من الشرق .

ولكن سياسة القمع لم تحسم الامور لان العشائر التي لم تطق مجابهة الجيوش المنظمة لجأت الى حرب العصابات فازداد تردي الاحوال الاقتصادية وفقد الامن تماما في خارج المدن . الا ان الحياة الادبية التي كسبت بعض الحيوية في عصر المماليك استمرت في حيويتها ونشاطها واستفادت من تشجيع بعض الولاة الراغبين في كسب التأييد المحلي بتقريب بعض اهل الادب والعلم . وكان غزو الوهابيين للمدن القريبة منهم كالنجف وكربلاء والحلة وعنفهم

الشديد وموجة المحافظة التي اثاروها في الفكر الديني قـد حـرّك الشعراء والادباء ورجال الدين منذ عصر المماليك فظهر في هـذا العهـد نتـاج كثير يدور في هذه الدائرة • ولعل اهم العوامل في استمرار نشاط الادب والادباء التطور الحديث الذي راح يعم العالم ويدفع اواخر موجاته الى العراق متمثلة في بعض مظاهر المدنية الحديثة كالسفن البخارية والترامـواي والتلغراف والمكاتب الطبية والتعليمية القليلة • وكان لمدحت باشا آخر ولاة العصـر الفضل في ادخال الكثير منها • ففي عهده عرف العراقيون الصحافة والطباعة ونظم البريد وبعض المؤسسات الصحية ومجموعة من النظم الادارية والمالية والتشريعات القانونية الحديثة • ولا شك في ان هذه العوامل وغيرها جعلت القرن التاسع عشر في العراق عصر يقظة ثقافية واجتماعية وادبية وان كانت مترددة ضعيفة • ولهذا وجدنا الدراسات المعاصرة ، على قلتها ، تتجه الى دراسة هذا القرن وآدابه وتاريخه السياسي والاجتماعي لقربه منا ، ولعلاقته بعصرنا الحاضر ، ولتوفر الكثير من نتاجه الشعري والنثري والتاريخـي ، ولدوره المهم في تمهيد الجو للنهضة الادبية والفكرية والاجتماعية في عراق القرن العشرين • نقول (تمهيد الجو) لان هذا النتـاج ، على الرغـم من اصلاحات مدحت باشا التي لا يمكن اغفال اثرها ، لم يستطع تجاوز المستويات المنخفضة والاطر الضيقة او الصغيرة التي وقف عندها الفن الشعري والنثري طيلة العهد العثماني ، فقد بقي يدور حول الموضوعات التقليدية في غير اصالة ، ولا اضافة او ابتكار ، وظل مقيدا في الاعم الاغلب بقيود الصنعة البديعية كما حددتها وفرعتها وجمعتها (البديعيات) وشروحها منذ العصر المغولي • وهي التي احالت الفن في العهد العثماني الى زركشة وبهرجة لفظية رتيبة والاعيب خطية وسمعية متكررة •

الدور الثاني او الدور العثماني الاخير

وقد حدد المؤرخون بدايته بابعاد مدحت باشا من العراق ، ونهايتـه

بالاحتلال الانكليزي لبغداد سنة ١٩١٧ م / ١٣٣٥ هـ • ويتميز هذا العصر باستمرار تدهور وانحلال الدولة العثمانية ووصول الارتباك السياسي الى العاصمة استامبول نفسها وتوالي المؤامرات والدسائس والاحداث المثيرة فيها • ومن سماته المهمة ازدياد تدخل الدول الاوربية في شؤون الولايات العثمانية الغربيةوالشرقية • كان العراق من اهم مسارح هذا التدخل والتغلغل السياسي والاقتصادي لوقوعه على طريق الهند • وكانت الدول الاوربية على الرغم من اصطراعها فيما بينها تسعى لتقويض الدولة العثمانية وتتحفز لاقتسام ممتلكاتها الواسعة واضطر العثمانيون الى التورط في الاحلاف والتكتلات الدولية للافادة من خلافات الدول الكبرى حتى انجروا الى الحرب العالمية الاولى التي انتهت فيما انتهت بالقضاء التام على الدولة العثمانية •

وقد تأثر العراق بهذه الاحداث الكبيرة ، وهي كثيرة نجد تفاصيلها في كتب التاريخ الحديث • ولكن هذا التأثير كان سطحيا في احوال العراق السياسية والادارية والاقتصادية ، الا انه كان عميقا بعض العمق في الحياة الادبية والثقافية نتيجة عوامل واسباب متعددة كظهور الحركة الدستورية في تركيا نفسها وسعي دعاتها الى اكتساب تأييد الولايات ، وتزايد الوعي القومي العربي ، وظهور عدد من الحركات والجمعيات السرية العربية وتنافس الدول الكبرى في التقرب الى العرب بعامة والعراقيين بخاصة لتحقيق مصالحهم واطماعهم متسترين وراء شعارات تحرير الشعوب ونشر الدمقراطية والدفاع المزعوم عن الحريات •• الخ •

ولا يصح اعتبار سقوط بغداد بيد الانكليز سنة ١٣٣٥ هـ/١٩١٧ م بداية العصر الحديث في الادب العراقي لان بوادر النهضة الادبية ظهرت قبل هذا التاريخ بسنين عديدة• ونرى ان ولاية مدحت باشا (١٢٨٥ ــ ١٢٨٩ هـ/ ١٨٦٨ ــ ١٨٧٢ م) نقطة تحول ثقافي وسياسي واجتماعي في حياة العراق الثقافية ومنها بدأ عصر الادب الحديث في العراق •

المصادر والمراجع

انظر كتب التراجم والتاريخ والادب المتأخرة من قبيل سلافة العصر لابن معصوم ، ونشوة السلافة لمحمد علي بشارة الجزء الاول مطبوع والثاني ما زال مخطوطات ، وفوات الوفيات للكتبي والوافي بالوفيات للصفدي، والدرر الكامنة وانباء الغمر لابن حجر ، والضوء اللامع للسخاوي ، وخلاصة الاثر للمحبي ، وريحانة الالباء للخفاجي، ونفحة الريحانة والكواكب السائرة للغزى، وشذرات الذهب لابن العماد والنجوم الزاهرة والمنهل الصافي لابن تغري بردي وخزانة الادب لابن حجة ، والمستطرف للابشسيهي ، وحلبة الكميت للنواجي اضافة الى معاجم الفهارس مثل كشف الظنون وهدية العارفين ومعجم المؤلفين ومعجم المطبوعات العربية وكتب تاريخ الادب العربي الحديثة ، لبروكلمان ونيكلسون وبراون ، وجرجي زيدان ، وعمر فروخ، والرافعي، وشوقي ضيف ولاسيما كتابه الاخير « عصر الدولة والامارات » وانظر ايضا المراجع الاتية :

اتجاهات الشعر العربي في العراق من ٦٥٦ ـ ٨٠٠

د . بلقيس عبدالله الحميدي ، اطروحة دكتوراه بالرونيو ، كلية الاداب بغداد ١٩٨٣ .

شعر بغداد في القرن الثامن عشر ، عبدالجبار سالم عبدالكريم رسالة ماجستير بالرونيو ، كلية الاداب ، بغداد ١٩٨٤ تاريخ الادب العربي في العراق، عباس العزاوي ، بغداد ١٩٦٢ وكتبه الاخرى ، الموسيقى العراقية ، والتعريف بالمؤرخين .. الخ

الادب العراقي في العصر المغولي : د . مصطفى جواد . في مجموعة التراث العربي بغداد ١٩٧٩ .

ادب العراق في العصر العثماني : على احمد الزبيدي مجلة كلية الاداب بغداد ١٩٧٩/٢٦

الادب العربي من سقوط بغداد اوائل النهضة : د شكر فيصل، بيروت ١٩٦١.

البابليات : محمدعلي اليعقوبي النجف ١٩٥١ .

الشعر العراقي في القرن التاسع عشر : د . يوسف عزالدين بغداد ١٩٥٧ .

الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر : ابراهيم الوائلي بغداد ١٩٦١

نهضة الشعر العراقيفيالقرن التاسع عشر : د .محمد مهدي البصيربغداد٩٦٤

البند في الادب العربي : عبدالكريم الدجيلي بغداد ١٩٥٨

وميزان البند : جميل الملائكة بغداد ١٩٦٥

آثار آل الوتري العلمية : د . منير محمود الوتري بغداد ١٩٧٤

الاداب العربية في القرن التاسع عشر ، لويس شيخو بيروت ١٩٢٤ .

ومن كتب التاريخ :

الموصل في العهد العثماني : د . عماد عبدالسلام . النجف ١٩٧٥

وكتبه الاخرى : مدارس بغداد ، والاستدراك على بروكلمان، ومقال عن عبدعلي الحويزي .. الخ .

تاريخ العراق بين احتلالين : عباس العزاوي بغداد ١٩٤٩ ـ ١٩٥٣ .

حكم المماليك في العراق ، والعراق في العصر العثماني ، للدكتور علاء نورس وكتبه الاخرى .

العراق في عهد المغول الايلخانيين د . جعفر خصباك

الحياة الفكرية في القرن السابع ، د. مفيد آل ياسين

العصر العباسي الاخير د . بدري فهد

عصر الانحدار : د . محمد اسعد طلس

اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، س . لونكريك ترجمة جعفر خياط . بغداد بلا تاريخ .

تاريخ علماء المستنصرية : د ناجي معروف بغداد ١٩٥٩

عصر المماليك . محمود رزق سليم ، القاهرة .

تاريخ العراق الحديث وداود باشا للدكتور عبدالعزيز نوار . القاهرة ١٩٦٨

وانظر من الكتب الاخرى :

الروض النضر : عثمان العمري ت . د . سليم النعيمي ١٩٧٥

شمامة العنبر : محمد مصطفى الفلامى ت . د سليم النعيمي

منية الادباء : ياسين العمري ت . سعيد الديوجي

فضولي البغدادي : د حسين محفوظ بغداد ١٣٧٨

فضولي بغدادي : حسين مجيب المصري وكتابه الاخر تاريخ الادب التركي ، القاهرة ١٩٦١ .

الفنون الشعرية غير المعربة : د. رضا القريشي بغداد ١٩٧٦

صفي الدين الارموي : د. عادل البكري بغداد ١٩٧٨

صفي الدين الارموي : د. عادل البكري بغداد ١٩٧٨

تائية ابن عامر : تحقيق عبدالقادر المغربي دمشق ١٩٤٨

مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : د بكرى الشيخ امين بيروت ١٩٧٢

الادب المصري في ظل الحكم العثماني محمد سيد كيلاني ـ القاهرة ١٩٦٥

ومن الدواوين :

ديوان ابن معتوق : بيروت ١٨٨٥

ديوان صفي الدين الحلي : دار صادر بيروت ١٩٦٤

وشعر صفي الدين الحلي : دراسة للدكتور جواد علوش

ديوان العشارى ث : د . عماد عبدالسلام ووليد الاعظمي بغداد ١٩٧٧

ديوان الموشحات الموصلية : محمد نايف الدليمي بغداد ١٩٧٥

ديوان الدوبيت : جمع د. كامل الشيبي ، ليبيا ١٩٧١
وانظر : فهارس خزانة المتحف العراقي ، والخلاني ، والقادريـة وجـداول المخطوطات كاتا لوك . بشأن المخطوطات والشخصيات المهمة .
تاريخ العراق بين احتلالين : عباس العزاوي بغداد ١٩٤٩ ـ ١٩٥٣
العراق في عهد المغول الايلخانيين : د . جعفر خصباك ـ بغداد ١٩٦٨
عصر الانحدار : د. محمد اسعد طلس بيروت ١٩٦٣
صورة من تاريخ العراق في العصور المظلمة لجعفر خياط .
حكم المماليك في العراق : د. علاء كاظم نورس بغداد ١٩٧٥



البحث الرابع

العلوم الطبية والرياضية والطبيعية

٦٥٦ - ١٣٣٣هـ / ١٢٥٨- ١٩١٤ م

د . ابراهيم خليل احمد

كلية التربية - جامعة الموصل

شهد العراق منذ احتلال بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ترديا في اوضاعه العامة، وكان للاحداث السياسية والعسكرية التي تعرض لها حتى اواخر الحرب العالمية الاولى انعكاسات سلبية على مستوى السكان الاقتصادي والاجتماعي والثقافي . هذا فضلا عن استنزاف امكانات البلد الاقتصادية وتوجيهها لخدمة العناصر الاجنبية المتصارعة عليه .

ومع ان العراق ، حظي خلال هذه الفترة الطويلة من تاريخه ببعض المحاولات الاصلاحية المتفرقة ومنها اصلاحات داود باشا والي بغداد (١٢٣٣ - ١٢٤٧ هـ / ١٨١٧ - ١٨٣١ م) واصلاحات مدحت باشا (١٢٨٦ - ١٢٨٩ هـ / ١٨٦٩ - ١٨٧٢ م) ، الا ان قلة الامكانات المادية والبشرية من جهة ، وابتعاد السكان عن ادارة بلادهم من جهة اخرى ، حالت دون نجاح الجزء الكبير منها .

ومهما يكن من امر ، فان جذوة الحضارة العربية في العراق لم تنطفىء رغم كل المحاولات المقصودة لاطفائها من قبل العناصر الاجنبية المتسلطة من مغول ايلخانيين (٦٥٦ — ٧٤١ هـ / ١٢٥٨ — ١٣٤٠ م) وجلائريين (٧٤١ — ٨١٤ هـ / ١٣٤٠ — ١٤١١ م) ، وتركمان ٨١٤ — ٩١٤ هـ / ١٤١١ — ١٥٠٨ م) وفرس صفويين (٩١٤ — ٩٤١ هـ / ١٥٠٨ — ١٥٣٤ م) ، وعثمانيين (٩٤١ — ١٣٣٧ هـ / ١٥٣٤ — ١٩١٨) . فقد بقيت ومضاتها هنا وهناك ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى بدأت ملامح النهضة العربية الحديثة بالظهور منذ منتصف القرن التاسع عشر ، بحيث شملت مختلف جوانب الحياة العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وقد اثمرت تلك النهضة الفكرية واخذ صداها يترك آثاره على الاوضاع السياسية . وكان من ابرز ثمارها السعي باتجاه بعث اللغة العربية ، واحياء كيان العرب السياسي .

ان التقييم الدقيق لمكانة العلوم الطبية والرياضية والطبيعية في حضارة العراق الحديث ، يتطلب ، بدون شك دراسة شاملة ، لذا فان ما نقدمه لا يعدو ان يكون ملاحظات اولية ، وسنتعرض اولا للاوضاع الصحية والعلوم الطبية .

الاوضاع الصحية والعلوم الطبية

تعرض العراق خلال الفترة الواقعة بين الغزو المغولي لبغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م والاحتلال البريطاني (١٣٣٣ — ١٣٣٧ هـ / ١٩١٤ — ١٩١٨ م) لهجمات شديدة من الامراض الوبائية والمتوطنة . وظلت الملاريا والتيفوئيد تفتك بالسكان . ومما ساعد على ذلك حالات القحط والضيق الاقتصادي نتيجة لقلة الامطار ، او تعدد الفيضانات وهجمات الجراد وامراض الحيوانات والافات الزراعية ، فتقل المواد الغذائية الضرورية للجسم الانساني نباتية كانت ام حيوانية ، وتنتشر المجاعات وتضعف مقاومة الانسان للامراض فتنتشر بينهم وتفتك بهم .

هذا فضلا عن ان العراق لم يعد بلادا غنية مثل ما كان ابان ازدهار الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي ، بل صار يعتمد على مصادره الخاصة بعد ان انقطعت عنه موارد الدولة العربية ، تلك المصادر التي قامت بالدرجة الاولى على الزراعة وكانت بدائية لا تكاد تؤمن غير الكفاف للسكان • وقد ساعدت كثرة الاهوار والمستنقعات والبرك الآسنة ، على انتشار الامراض والاوبئة ، ولم يكن ثمة ما يدل على توفر نظام لتصريف المياه في المدن ، وكانت كثرة المقابر داخل المدن والدفن في الدور الخاصة والربط والمساجد وما شاكل ذلك من اساليب غير صحية تساعد على نشر الامراض خاصة ايام الوباء •

ولم يكن مستوى الطب متقدما ، من حيث القدرة على تشخيص الامراض وعلاجها • وكان عدد المستشفيات (البيمارستانات) قليلا جدا • والعناية بها محدودة • ولم تبذل السلطات الحكومية انذاك اية محاولات لردم المستنقعات والبرك • او تحسين التغذية العامة • ولم تكن هناك ؛ كما يبدو محاولات لحصر الاوبئة ومنع الناس من مغادرة مناطق الوباء •

اما المؤلفات الطبية ، فلم تكن تمثل حقيقة ما كان يمارسه الاطباء والمتطببون حيث لم يكن هناك نظام دائم تفرضه السلطات المسؤولة ، وتجبر من يريد احتراف الطب على ضرورة تلقي دروس معينة على ايدي اطباء مشهود لهم بالكفاءة في حقول تخصصهم • لذلك ظلت بغداد وغيرها من المناطق العراقية لسنوات طويلة ، ميدانا فسيحا لعبث المشعوذين ومرتعا خصبا للمحتالين من المتطببين • وكانت النساء يلعبن دور الاطباء ، فيصفن العقاقير والسموم ويداوين العيون ويفتكن بالصحة • وكان بعض المرتزقة يستخدمون الادوية والطلاسم في مكافحة المرض وظلت كلمة « حكيم » اي طبيب هي الشائعة ، ومن الحكماء الذين عرفهم العراق انذاك : العطارون ، والحلاقون ، والختانون ، كما ورث بعض اهل البادية طبا يبنونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص متوارثا عن المشايخ والعجائز •

فكانت امراض الروماتيزم والكبد والصداع وعرق النســا ٠ تعالج باعشابهم ومستحضراتهم الخاصة ٠ وكان الطب يقوم في اكثره على الادوية النباتية التي يمكن وصفها بالمسكنات ٠ ولم يلجأ اطباء ذلك الزمان الــى الادوية المركبة المعقدة التي يسمونها « الترياق » الا في الاحوال المستعصية ٠ ومهما يكن من امر ، فقد وردتنا من العهدين الايلخاني والجلائري قائمة باسماء بعض الاطباء البارزين، منهم : شمس الدين الصباغ (توفي ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) وابو منصور المعروف بكتفيات(توفي ٦٩٣هـ/١٢٩٣م)ومنهم شمس الدين محمد ابن دانيال بن يوسف الموصلي الكحال (طبيب العيون المتوفــى سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م)ومجدالدين سنجر الطبيب البغدادي الذي ولي المدرسة المستنصرية وكان ماهرا في صناعة الطب ، وقيل انه عمل ممتحنا لاطباء العراق « فمن ارتضاه أقره على عمله ومن لم يرضه يستبد له بغيره ممن يعرف تدبير العلاج وحفظ الصحة» ٠وقد توفي سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م ٠ومنهم الحسن بن محمد بن شرف شاه الحسيني ركن الدين عالم الموصل، وله شرح الحاوي للرازي وتوفي ٧١٥ هـ/ ١٣١٥م ومنهم يوسف بن محمد بن موسى بن منعة كمال الدين ابو المعالي بن بهاء الدين ابن كمال الدين بن رضي الديــن بن قاضي الموصل وله شرح الحاوي وتوفي سنة ٧١٧ هـ/١٣١٧ م ٠ وقد عرف عن عبدالله بن محمد الحريري المعروف بـ (ابن الخوام) اهتمامه بالطب ، حتى انه صنف فيه وقرأ عليه جماعة ٠ تولى رياسة الطب ببغداد ، ولد سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م وتوفي سنة ٧٢٥ هـ/١٣٢٤ م وكان الحكيم العلامة علاء الدين على بن قبان بن مختار البغدادي المعروف بالخطأى ، طبيبا وفي سنة ٧٤٠ هـ /١٣٣٩ م توفي ركن الدين شــافع بــن عمر بن اسماعيل الحنبلي الاصولي ، وكان عارفا بالطب ٠ وقد شارك القاضي تقي الدين يحيى البغدادي المتوفى ســنة ٨٣٣ هـ /١٤٢٩ م في عدة علــوم وله مصنف في الطب٠ واشتهر الطبيب عبدالمسيح المتوفى سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م وكان طبيبا للشاه محمد الذي حكم بغداد بعد السلطان احمد الجلائري ٠

ولعل خير ما يمثل مستوى الطب في العهدين الايلخاني والجلائري ما اورده ابن الفوطي في سيرة احد معاصريه وهو مجد الدين ابو عبدالله نوفل بن محمد بن وهجان البصري الطبيب حيث قال عنه :

«... كان طبيبا حاذقا له معرفة بالمزاج والعلاج.قرأت بخطه في رسالة كتبها لبعض تلاميذه . قال جالينوس ما دخل الرمان جوفا قط فاسدا الا اصلحه ... وقال بقراط : الجسد كله يعالج جملة على خمسة اضرب : ما في الرأس بالغرغرة وما في المعدة بالقييء . وما في اسفل المعدة باسهال البطن . وما بين الجلدين بالعرق . وما في داخل العرق باخراج الدم . ... » .

وسار الطب في العهد العثماني متخاذلا ، ولا سيما بعد ان عول على الكتب التي الفها بعض المتأخرين ممن لم يكونوا اطباء . وطبيعي جدا ان تجيىء بعض هذه الكتب حافلة بالتعاويذ والخزعبلات راسخة على افسد المبادىء الفسيولوجية او البيولوجية . الا ان هذه الفترة لم تخل من محاولات علمية حديثة جديرة بالتخليد اذ ظهرت بعض البحوث والمؤلفات في مجال الطب ، والتي اعتمدت على بعض مؤلفات الاغريق المعربة ، وكتب ابن سينا وداود الانطاكي وغيرهما من الاطباء والكحالين العرب المعروفين .

حقيقة ، ظل الطب متخلفا غير قادر على كشف اسباب الامراض وطبيعتها الا بعد التوصل الى صنع المجهر ، وكشف الميكروبات والاشعة ، والاهتداء الى العلاج باللقاح المضاد للجدرى والطاعون والهيضة (الكوليرا) وغيرها بالمركبات المضادة . ولم يتحقق ذلك الا بصورة بطيئة وصعبة ابتداء من القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكان اول اتصال بالتقدم العلمي الطبي في اوربا قد جرى عن طريق مؤلفات صالح بن نصرالله الحلبي رئيس الاطباء في الدولة العثمانية (ت ١٠٨١ هـ/١٦٧٠م).وكان هذا قد ادرك بدايات حركة التقدم الطبية عند الاوربيين، واقتبس من مؤلفاتهم. ومما هو جدير بالذكر ان مؤلفات هذا الطبيب قد توفرت انذاك في معظم خزائن الكتب العراقية . ومن

تلك المؤلفات « برء الساعة » و « غاية الاتقان في تدبير بدن الانسان » باللغة العربية و « غاية البيان » وهو ترجمة كتاب غاية الاتقان باللغة التركية .

بيد ان موارد علمية محدودة كهذه ، لم تكن غذاءا كافيا لحركة ثقافية نامية كالتي شهدتها مثلا الموصل ابان عهد الجليليين (١٠٣٦ ــ ١٢٥٠ هـ / ١٧٢٦ ــ ١٨٣٤ م) . وكان من اوائل الذين تخصصوا في علم الطب الحاج محمد العبدلي (ت ١١٦٥ هـ / ١٧٥٠ م) وقد عرف برحلاته واسفاره العديدة واطلاعه الواسع على كتب الطب والتشريح، ففاق جميع اقرانه وارتفعت مكانته الاجتماعية، حتى غدا رئيسا لاطباء الموصل طيلة النصف الاول من القرن الثامن عشر . وقد قصده المرضى من كل ناحية يقول امين العمري عنه (وعامة اطباء بلدنا ونواحيها اخذوا عنه الطب ، بواسطة وبدونها) .

وكان لمحمد العبدلي تلاميذ عديدون منهم نعمان بن عثمان الدفتري الموصلي ، صاحب كتاب « الرياض النعمانية في فوائد الطب من الحكمة الطبيعية» وعدد اوراقه (١٧٧) وقد جاء في اول المخطوطة هذان البيتان لاحدهم مادحا المؤلف :

شرح الطرف في كتاب طبيب   حاذق في طبايع الانسان
حين ترعى تلك الرياض بفهم   تدرك ان لا شقيق للنعمان

وقد كتبت اول نسخة للمخطوطة خلال السنوات (١١٦٥ ــ ١١٦٦ هـ / ١٧٥١ ــ ١٧٥٢ م) ومما جاء في المقدمة :

« الحمد لله منشيء التركيب الانساني من عنصر التراب ، ومرتب الهيكل الحيواني من عروق واعصاب ... الخ » .

ومن تلاميذ العبدلي كذلك محمد امين بن اسماعيل حفيد ياسين المفتي صاحب اليد الطولى في الطب وتركيب الادوية (كان حيا

لما بعد سنة ١٢٢٠ هـ /١٨٠٥ م) ومن آثاره كتاب « الشفاء العاجل والدواء الكافل » الذي كتبه سنة ١٢٠٨ هـ /١٧٩٣ م • وعليه تتلمذ كذلك امين العمري في علمي الطب والتشريح • وبرع ابنه عبدالله بن امين بك في العلم ذاته ، وعرف بتركيب الادوية والحبوب والترياقات والمعاجين •

هذا وقد ارتبط التطبيب في العراق ومنها الموصل بنشاطات الارساليات التبشيرية المختلفة • ويعد الآباء الدومنيكان الذين اسسوا رسالتهم في الموصل سنة ١١٦٤هـ/١٧٥٠م وكان يتقدمهم الاب الايطالي فرنسيس توریاني ومن اوائل الارساليات التبشيرية التي قدمت العراق • وقد استقبلهم الجليليون بحرارة وافسحوا لهم مجالا للعمل ودافعوا عنهم • واشتهر الدومنيكان بصناعة الطب التي مارسوها لخير الاهالي • ولم تقتصر خدمتهم الطبية على مدينة الموصل • وانما قدموا خدماتهم لكل من طلبهم • فعندما مرض احد اقرباء حاكم العمادية بهرام باشا سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣م ارسل امين باشا والي الموصل الاب توریاني لمعالجته • وفي سنة ١١٦٨ هـ /١٧٥٤ م استدعى الحاج حسين باشا الجليلي ، وكان يومذاك واليا على قارص الاب المذكور من الموصل لمعالجته من مرض الم به وجعله طبيبه الخاص واحد افراد حاشيته ، وكان للكرمليين في بغداد والموصل مستشفيات خاصة بهم •

وكان المؤرخ ياسين بن خيرالله بن محمود بن موسى الخطيب العمري (ولد سنة ١١٥٧هـ / ١٧٤٤ م وتوفي سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٧ م) من المهتمين بالطب ومن اثاره « الخريدة العربية في الطب » •

لقد اتجه بعض المثقفين الموصليين الى الترجمة عن المؤلفات الاوربية مباشرة • ففي مجال الطب ترجم محمد الجلبي (١١٩٠–١٢٦٣هـ/١٧٧٦–١٨٤٦م) كتبا قيمة من اللغة اللاتينية الى اللغة العربية منها «الطب الجديد الكيمياوي»

لبراكلسوس و « صناعة الطب الكيمائي » تأليف فروليوس . واستفاد من تلك الكتب في اثراء معلوماته المستمدة من تجاربه الشخصية ، وكتب الطب التقليدية . وتدل مؤلفاته الطبية على مدى اطلاعه وعمق ثقافته العلميين . فمن مؤلفاته :

١ ــ شرح ارجوزة ابن سينا في الطب وتقع في (٢١٢) ورقة . واول الارجوزة يقول :

الطب حفظ صحة برء مرض   من سبب في بدن عنه عرض

٢ ــ الطب المختار ويقول في مقدمة الكتاب ما يلي :

« اني بعد ما شرحت ارجوزة الشيخ ابي علي (ابن سينا) لاح لي ان اجمع كتابا اخر في جزئيات الطب مقتصرا في الالفاظ ، غنيا في المعاني . وان لا يشذ منه مرض ولا سبب ، واذكر من العلامات ما يبين المرض والسبب بأوجز علامة ، وان ما اورد فيه من المعالجات ما جربته فكان غاية فبادرت بتصنيفه وسميته الطب المختار » .

وزاد في اهمية كتابه هذا انه شرح فيه كيفية اخذ لقاح الجدري واستعماله واعراضه في الموصل ، بعد ان كان (جنر) قد اذاع اكتشافه لهذا اللقاح سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٨ م . ففي الورقة ١٤٣ يذكر لقاح الجدري قائلا :

« استخرج اطباء الافرنج المعاصرون لابي ، تجديرا سالما بالتلقيح من جدري البقر . اذ لا يخرج فيه غير موضع للتلقيح ، يخرج سابع يوم التلقيح ، او مايقاربه مع حمى قليلة ، تنصرف بيومها او ازيد ، ولم ير المجربون احدا مات في هذا او تجدر ثانية ، الا اذا كانت الايام وبائية والجدري قاتلا ... » .

ولم يلبث الطبيب محمد الجلبي ان اعقب كتابه الثاني « الطب المختار » بكتاب طبي ثالث سماه « مفردات الطب المختار » ويقع في مقدمة وثمانية

وعشرين بابا بعدد حروف الهجاء ويتميز الكتاب بكثرة مصادره وتنوعها وعدد صفحاتــه (٤٧٠) ورقة . يقول في مقدمته :

« ... لاح لي ان اجمع كتابا ثانيا في ..... الامــراض والاسباب والمعالجات جامعا لما تشتت في كتب القوم .. بعده لاح لي ان اجمع كتابا ثالثا في المفردات على النمط المذكور من الايجاز مع الغنى جامعا لما تشتت من الكتب الكثيرة مفيدا باسهل العبارات ... ثم اتلوه بكتاب رابع في المركبات... » .

وذكر في المقدمة كذلك عشرة قوانين للمفردات . الاول ذكر اسمائــه بالألسن المختلفة ليعلم والثاني ذكر ماهيته من لــون وريح وطعم وتكرج وخشونة وملامسة الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . الخامس ذكــر منافعه في جميع البدن.او في مرض مخصوص او عضو مخصوص.السادس كيفية التصرف في الدواء كالغسل والسحق والطبخ والحل والنقع والحرق والتصعيد والتقطير ... الخ . السابع ذكر ما يصلحه . التاسع ذكر القــدر المأخوذ منه . العاشر ذكر ما يقوم مقامه . وقد زاد بعضهم ذكر الزمان الذي يؤخذ فيه الدواء والبلد الذي يؤخذ منه وكيفية ادخاره . ثم قال : « وقــد وقع جمع كتابي هذا من الكتب المشهورة والمقبولة مثل (المجلد) الثاني من القانون لابي علي (ابن سينا) .. « وما لا يسع الطبيب جهلــه » . وهــو المعروف بجامع البغدادي و « التذكرة » لداود الانطاكي ، و « بحر الجواهر » لمجد بن يوسف الطبيب الهروي ، كتاب « مفردات » ترجمة بطرس اندراوس اللبناني من اللغة « الفرنسية » الى العربية ، وبعضا من « التحفة » وبعضا من « المنهاج » وبعضا من « غاية البيان » لصالح افندي ، وبعضا من « مفردات الموجز » لنفيس .. وبعضا من « مفردات » مقدسي يوسف . واستعنت على بعضها باللغة القاموسية وبعضها بكتاب اللغة السريانية وهو المعروف بكتاب « الهكسيقون البهلولي » لابن بهلول ... ثم اني نقلت منه الكتاب المعروف بالطب الجديد وهو الطب الكيمياوى مفردات علمية وهي متداولة الان ...

ثم الف محمد الجلبي كتاب رسالة في النبض وكتاب العطايا في شرح الوقاية واستنسخ عددا اخر من الكتب الطبية المهمة .

وخلال هذه الفترة كذلك ، قام « اوانيس مراديان » في بغداد باستعمال طريقة (جنر) في التطعيم الواقي من الجدري . وقد استطاع وزوجته تيريزا تلقيح اكثر من (٥٤٠٠) طفلا في تسع سنوات وكان لمبادرة مفتي بغداد انذاك في تطعيم اولاده وحفيدته ضد الجدري اثر كبير في اقتناع البغداديين بجدوى العـلاج .

ومن الذين كانت لهم مشاركة فعالة في مجال الطـب علي بن محمـد الحسيني الشهير بالحكيم ، وقد ولد في النجـف سـنة ١٢٠٢ هـ /١٧٨٦ م وتوفي بها سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م وذكـر له المؤرخون (١٧) مؤلفا منهـا « رسالة الوباء والطاعون » . ويقال ان صيته ذاع في بغداد حتى انه استعمل الموسيقى في معالجة مرضاه .

وبـرز الطبيب اسماعيل الموصلي (١٣٠٢ هـ/١٨٨٤ م) في العلـوم النفسية والعقلية وهو من مواليد الموصل ، وقد تلقـى علومه في مدرسـة الصنائع التي اسسها مدحت باشا في بغداد في اوائل سنة ١٢٨٨ هـ/١٨٧١م .

وكان علي بن السيد محمد الطباطبائي (ت١٣١٠هـ/١٨٩٢م) من المتتبعين الماهرين في علم الطب. وقد اشتهر امره في مدينة النجف الاشرف. اما نظام الدين بك فكان طبيبا مختصا بالامراض الباطنية ، عمل في مستشفى نامق باشا ببغداد اواخر سنة ١٣١١ هـ/١٨٩٣ م . وعرف عن شرف الدين محمد منجم المرعشي (ت ١٣١٦ هـ/١٨٩٨ م) انه كان طبيبا عمل في النجف .

ومن الاطبـاء النجفيين كذلك محمـد حسـين بـن ربيع الحلـي . وله تصانيف طبيه منها « تذكرة الكحالين » . وعمل السيد موسى بن هاشم العلوي (ت١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) طبيبا في الكاظمية. ومن الاطباء المعروفين: باقر خليل

الخليلي الطبيب النجفي . ويقال انه كان « طبيبا حاذقا ، ومرجعا في الامراض المعضلة واصبح أوحد زمانه في تدريس قانون ابن سينا . وكانت له حلقة تدريس كبيرة ، توفي سنة ١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م » .

لقد كان لاعيان وجهاء المدن واثريائها ، والاسر الحاكمة ، والقنصليات الاجنبية ، اطباء متخصصون ولعل من ابرز الاطباء الذين عملوا في العراق خلال هذه الفترة الدكتور دي آربل De Erbel الذي اصبح الطبيب الخاص لوالي بغداد عمر باشا (١١٧٨–١١٨٩هـ/١٧٦٤–١٧٧٥م). ويقال ان طبابته راجت خاصة بين اعيان بغداد واثريائها. كما اشتهر الدكتور شارت Shart طبيب القنصلية البريطانية ببغداد . والذي كان خير عون لاوانيس مراديان في نشر طريقة (جنر) في التطعيم الواقي ضد الجدري . وممن اشتهر كذلك سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م طبيبان ألمانيان وفدا الى بغداد هما أدلر Adler ولازار Lazar .

هذا فضلا عن ان خزائن الكتب العراقية ، كانت تزخر انذاك بالمؤلفات الطبية المخطوطة ، وخاصة التقليدية منها « شرح الاسباب في الطب النافع للاصحاب » لنفيس الدين بن عوض السمرقندي و « رسالة دعوة الاطباء » للمختار بن الحسن بن عبدون وكتاب « الفرصة في وضع السموم وحفظ الصحة » لشمس الدين محمد القرصوني وكفاية الاريب عن مشاورة الطبيب للشيخ سرى الدين احمد . وكتاب « النزهة المبهجة في تشحين الاذهان وتعديل الامزجة » للشيخ داود الانطاكي ، وكتاب « مقالة في كيفية تركيب طبقات العين » لنجيب الدين السمرقندي ، ومقالة اثبات فضائل النفس لافلاطون ، وكتاب « الحاوي في علم التداوي » لنجم الدين محمود . وكتاب بحر الجواهر لمجد بن يوسف الطبيب الهروي وهو بمثابة دائرة معارف للطب القديم . وكتاب « الحاوى الكبير » للرازي . وكتاب « مالا يسع الطبيب جهله »

ليوسف بن اسماعيل المعروف بابن الكتبي البغدادي . وكتاب « الايضاح في اسرار النكاح » في جزئين وكتاب الاغذية والاشربة . وكتاب « المرتاض في علمي الابوال والانباض » ، ورسالة الرازي في الباه ، والمقالة الاولى في فصول ابقراط والارجوزة الكبرى في الطب لابن سينا .

ومنذ اواخر القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) ظهر ما يؤيد استيراد الادوية الحديثة من خارج العراق . فقد ذكر السير واليس بدج في رحلته الى العراق سنة ١٣٠٦ هـ /١٨٨٨ م ان احد تجار بغداد ، كان يتولى استيراد صناديق الادوية المحتوية على سلفات الكنين والكلورودين وما الى ذلك .

لقد ظهرت المؤسسات الصحية الحديثة بعد ان اندثرت المؤسسات الصحية القديمة وآخرها المارستان العضدى الذي يرجع تأسيسه الى سنة ٩٨٢ م وظل يعمل حتى النصف الاول من القرن الرابع عشر ودار الشفاء التي اقيمت على جانب دجلة في العهد الجلائري ، ويقال بانها اسست في النصف الثاني من القرن الرابع عشر .

اما ابرز المستشفيات المدنية فهي المستشفى الذي بناه محمد باشا البيرقدار والى الموصل سنة ١٢٦٠ هـ/١٨٤٤ م . ومستشفى الغرباء الذي انشأه مدحت باشا على شاطىء دجلة في الجانب الغربي من بغداد بتبرعات الاهالي سنة ١٢٨٩ هـ/١٨٧٢ م وكان يشرف عليه طبيب البلدية وفيه عدد من الاطباء والجراحين . وفي سنة ١٣١٥ هـ /١٨٩٧ اصدر والي بغداد رجب باشا امره بانشاء مستشفى للجيش بأسم « مجيديه خسته خانه سي » اي المستشفى المجيدي . وظل هذا اسمه حتى الاحتلال البريطاني لبغداد سنة ١٣٣٦ هـ /١٩١٧ م . وفي سنة ١٣١٨ هـ /١٩٠٠ م شيد الوالي نامق باشا مستشفى جديد في الباب المعظم ببغداد . وقد احتوى على ردهة كبيرة وعدة غرف اعد بعضها لايواء المرضى وخصص البعض الآخر للامراض الباطنية

وللجراحة والامراض العيون • اما هيئة المستشفى الادارية فكانت مؤلفة من الطبيب الاول (سر طبيب) والمدير والجراح والكحال • وكان الوالي يطمح لان يجعل هذا المستشفى من الطراز الاول ، فجلب له الالات والادوات الجراحية والادوية والعقاقير من اوربا • وقد عمل في المستشفى الفريق الطبيب حمدي باشا والدكتور ذهني بك للامراض الجراحية والدكتور سامي سليمان كحالا وكان الدكتور سامي رئيسا لجمعية الهلال الاحمر في بغداد وقد انتخب نائبا عن بغداد في انتخابات اواخر ١٣٣٢ هـ/١٩١٣ م وفي سنة ١٣٣٣ هـ/ ١٩١٤ سعى الوالي جاويد باشا لتطوير هذا المستشفى وزيادة عدد الاسرة فيه حيث كانت لا تتجاوز المائة سرير •

لم تكن في العراق ادارة صحية خاصة حتى سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥ م حين تشكلت خلالها رئاسة للصحة تألفت من مفتش صحي تركي يعاونه طبيب البلدية • واستمر الوضع على هذا الحال حتى سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م اذ تأسست ادارة الصحة العامة المدنية ومع مطلع القرن الحالي بدأ الرعيل الاول من الاطباء العراقيين يعمل على تقديم الخدمات الطبية للمواطنين • وقد تمثل هذا الرعيل بخريجي كلية حيدر باشا باستانبول ، ومدرسة دمشق الطبية او الكلية الاميركية في بيروت ، وكلية القديس يوسف • ولعل في مقدمة هؤلاء : اسماعيل الصفار (١٣٢١ هـ/١٩٠٣ م)وعلي فكري البغدادي (١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م) ، وداود الجلبي (١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م) وعبدالله الدملوجي (١٣٣٢ هـ/١٩١٣ م) ، ويحيى نزهت ، وجلال العزاوي ، وداود الدبوني (١٣٣٣ هـ/١٩١٤ م) • وفائق شاكر ، وحسين حسني (١٣٣٥ هـ/١٩١٦ م) ومحمد زكي وسامي شوكت (١٣٣٦ هـ/١٩١٧ م) وهاشم الوتري وصائب شوكت (١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م) وشوكت الزهاوي (١٣٣٨ /١٩١٩ م) وابراهيم عاكف الالوسي وتوفيق رشدي وشاكر السويدي (١٣٣٩ /١٩٢٠ م) وبهجت خضوري وحنا خياط ونصوري فرج ، وفتح الله غنيمة ونورالله موسى وعبدالله قصير،

ورزق‌الله بحوشي • وقد تعاون هؤلاء مع الاطباء العرب والاجانب الذين عملوا في العراق وبلغ عددهم سنة ١٣٤١ هـ /١٩٢٢ م (١٧٧) طبيبا في وضع اسس الكيان الصحي الحديث في العراق •

العلوم الرياضية

لم تكن الحضارة العربية في العراق مقتصرة في اهتماماتها على الميادين الادبية والانسانية ، وانما اتسعت لتشمل العلوم الرياضية والطبيعية • ولم يحصر العلماء العراقيون انفسهم في الاختصاص الذي نراه اليوم • ذلك ان كثيرا من معارفهم كانت ذات صلة بالحياة العامة • وقد الفوا كتبا في الرياضيات والعلوم الطبيعية • كما حرصوا على استنساخ اصول تلك المؤلفات ، وترجموا مؤلفات اخرى من اليونانية واللاتينية وغيرهما حتى تظل مكتباتهم العلمية ، كما يحدث اليوم ، محتفظة بالكتب التي تمثل اصولا عريقة للعلم القديم • ويقول جوان فيرنيه Vernet ان نظرة سريعة الى مصادر مؤلفات رياضي عراقي في القرن الثالث عشر ، ترينا الاهمية التي كانت تحتلها النصوص والمترجمات الكلاسيكية • ففي الرياضيات مثلا لدينا ترجمات عربية لبعض مؤلفات اقليدس منها كتاب الاصول او الاركان Elements الذي ترجم فيما بعد الى اللاتينية ، وكتاب المعطيات Data وكتاب اختلاف المناظر او البصريات Optics وكتاب الظاهرات في قبة الفلك • ومن بين مؤلفات ابولونيوس التي ترجمت الى العربية كتاب المخروطات Conics وكتاب النسبة المحددة The Sector of a ratio وكتاب انشاء الالات التي تعمل على الماء Construction of Hydraulic Machines

اما مؤلفات ثيودوسوس الطرابلسي المعربة فمنها كتاب الليل والنهار ، ومن بين مؤلفات نيقوماخوس الجرشي كتاب المدخل الى علم العدد • ومن

مؤلفات مينيلاوس كتاب « في اصول الهندسة » وكتاب المثلثات . وتعد جميع مؤلفات ارخميدس معروفة لدى العرب ومنها كتاب « مساحة الدائـــرة » وكتاب توازن السطوح . ونجد من المترجمات في ميدان الفلك العدد الكبير ، حيث عرف عدة مؤلفين قدماء من خلال مقتبسات من مؤلفاتهم وردت في كتاب المجســـطي Almagest وكذلك عرف العـــرب الكثير من مؤلفـــات بطليموس Plotemy منها كتابه « التصنيف العظيم في الحساب » وقد انبرى فلكيون عرب للتعليق عليه وتبسيطـــه ونقده . وتتبين الجهد الذي بذله العرب في فهم ما ورثوه من علوم ، في التراجم الذاتية لبعض اولـــئك العلماء . كما يتبين كذلك في المقدمات التي كتبوها والاضافات التي تميزوا بها حتى ان العلوم الرياضية ، ومنها الحســـاب والجبر والهندسة والمثلثات والفلك لم تصبح علوما متقنة الا على ايدي العرب . ومن كل هذا يتبـــين ان العلماء العرب منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، كانو واثقين ، بفضل الجهد الـــذي بذلوه في عملهم ، من انهـــم يتقدمون في كـــل الميادين الرياضـــية .

ولعل من ابرز العلماء العراقيين الذين اهتموا بالعلوم الرياضية في عصور الغزاة الايلخانيين والجلائريين عمادالدين عبدالله بـــن محمد بن عبدالرزاق الحريري المعروف بابن الخوام البغدادي المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨ م، ومحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن محمـــود السمرقندي ، وشمس الـــدين السنجاري (ت٧٦٢هـ/١٣٦٠م) وصفي الدين ابو الفضائل عبدالمؤمن بن كمال الدين ابي محمد عبدالحق البغدادي (ت ٧٣٩ هـ/١٣٣٨ م) وشمس الدين محمد بـــن ابراهيم بن ساعد الانصاري السنجاري المعروف بأبن الاكفاني (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م) وابو العباس جمال الدين جمشيد بن مسعود بن محمود الكاشي وصلاح الدين موسى بن محمد ابن القاضي .

وكان لعمادالدين عبدالله بن محمد بن عبدالرزاق الحريري المعروف بابن الخوام (ت٧١٨هـ/١٣١٨م) تصانيف عديدةفيالحساب منها «الفوائد البهائية في القواعد الحسابية » هذا فضلا عن كونه طبيبا تولى رئاسة الطب ببغداد وكان له تلاميذ عديدون اخذوا عنه اهتمامه بالحساب ، وخاصة الحساب الهوائي كما ان له رسالة في الفراسة حققها الدكتور حسين علي محفوظ وطبعت في سنة ١٩٥٤ . ومن العلماء الافذاذ الذين نالوا شهرة كبيرة في مجال الفلك والرياضيات شمس‌الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمود السمرقندي السنجاري ، ولد سنة ٦٧٥ هـ/١٢٧٦ م وتوفي سنة ٧٢١ هـ/١٣٢١ م . وكان من علماء الامارة الارتقية في سنجار والتي قربت العلماء ورعتهم في اوائل تكونها في القرن الثاني عشر . ومن مؤلفاته « شرح تحرير المجسطي » و « اشكال التأسيس في الهندسة » .

اما صفي‌الدين ابو الفضائل عبدالمؤمن كمال‌الدين ابي محمد عبدالحق البغدادي (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م) فقد كان يعرف الفلك والحساب معرفة جيدة . وقد تتلمذ عليه الكثيرون ، منهم محمد بن يحيى البغدادي الذي قال بانه اخذ عنه الفرائض ، وكان ماهرا فيها ، كما درس عليه الجبر والمقابلة . ومن مؤلفاته « صنعة البناء والهندسة » و « رسالة في الفلك ومعرفة اوقات الصلاة » .

وكان ابن الاكفاني المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م من العلماء العراقيين البارزين في الفلك والرياضيات ومن مؤلفاته « اللباب في الحساب » و « ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد » . وبرع البابصري البغدادي في الحساب والفرائض . وكان شمس‌الدين التبريزي من العلماء المعدودين في العلوم الرياضية والفلكية، وذلك في عهد الغزاة الجلائريين .

ولغياث‌الدين جمشيد بن مسعود بن محمود الكاشي مؤلفات عديدة منها « نزهة الحدائق في كيفية صنع الاله المسماة بالطبق الناطق » وهي رسالة

عربية تتضمن وصف الآلات الرصدية ، وكتاب « رسالة الوتر والجيب » و « مفتاح الحساب في علم الحساب » .

وقال صلاح‌الدين موسى بن محمد ابن القاضي تفوقا في العلوم الرياضية توفي ٨١٥هـ/١٤١٢ م ومن مؤلفاته « شرح اشكال التأسيس » و «رسالة في الحساب » ولشمس الدين محمد بن‌اشرف السمرقندي «رسالة في الحساب» و « رسالة في استخراج الجيب » .

الا ان هذا النشاط العلمي القائم هنا وهناك ، سرعان ما بدأ يضعفه واصبحت خزائن مكتبات بغداد ودور علمها نهبا للغزاة الاجانب من مغول وايلخانيين وجلائريين وتركمان وفرس وعثمانيين . ومع هذا ظلت « بعض المؤلفات التي خدمت التدريس ، فلم يتجاوزها المتعلمون ولا العلماء الا قليلا ، بل نجدهم رعوها ، كما يقول المؤرخ عباس العزاوي ، بالشرح والتعليق وهذه لم تتجاوز حدود التدريس دون تمكن عظيم في التأليف والنبوغ فيه من وجوهه كما هو الشأن في سالف العصور ... وقلت العناية ... وفقدت الرغبة في العلوم الفلكية والرياضية ، وصارت المؤلفات السابقة صعبة الاخذ ، ومال القوم الى مختصرات جديدة لا تختلف عن سابقاتها او منتقاة منها ... » .

الا ان هذا لم يعدم وجود بعض المهتمين بعلوم الفلك والرياضيات . ويمكن ان نشير في‌هذا الصدد الى الشيخ سليم الواعظ الموصلي ، وقد توفي سنة ١١٦٠ هـ/١٧٤٧ م وكانت له ، كما يقول الدكتور داود الجلبي ، « يد طولى في الحساب والزيج والاسطرلاب » وقد اخذ عنه بعض علومه اساتذة اجلاء منهم ابو البركات جمال‌الدين عبدالله بن حسين السويدي البغدادي (١١٠٤ — ١١٧٥ هـ / ١٦٩٢ — ١٧٦١ م) وقد ذكر السويدي في كتاب رحلته الموسومة « النفحة المسكية في الرحلة المكية » انه قصد الموصل سنة ١١٢٧ هـ /١٧١٥ م يوم شرع في دراسة الفلك والرياضيات وبقى فيها ١٣ شهرا ومما قاله : « واخذت علم الهيئة

ورسائل الاسطرلاب وربع المجيب ، وذات الكرسي عن البحر الجامع ، والغيث الهامع ، سيدي سليم الموصلي (الشيخ سليم الواعظ) واخذت الحساب عن اخينا الشيخ حسين ، قرأت عليه شرح الزمزمية ، وعن الشيخ سلطان قرأت عليه وعلى غيره خلاصة الحساب للبهائي واخذت الهندسة عن العصريين » • ولم يستقص اسماءهم وهم مدرسون ولم يكونوا الا من علماء الرياضيات والفلك •

اما محمد العبدلي الطبيب ، فقد استلفتت الظواهر الفلكية والطبيعية انتباهه ، فكتب كتابا في الاسطرلاب اسماه « تذكرة اولى الالباب في استيفاء العمل بالاسطرلاب » • كما كتب رسالة بعنوان « الثلج والجمد والبرد » ليفسر فيها بعبارة علمية واضحة اسباب سقوط المطر وكيفية حدوث التبخر وعوامل سقوط البرد والثلج وعلاقة ذلك بالضباب •

ونقل محمد الجلبي الموصلي كتاب « الروض العاطر في تلخيص زيج ابن الشاطر » وهو من كتب الازياج المشهورة وضعه ابن الشاطر الدمشقي ، الفلكي المتوفى في اواخر القرن الثالث عشر ، من خط طول دمشق الى خط طول الموصل ، واعاد تنظيمه على السنين الشمسية بعد ان كان يحسب على السنين القمرية •

والف عبدالله الفخري (ت١١٩٩هـ/١٧٨٤م) مجموعةمن الكتب في علم الفلك منها كتاب « تسريح الادراك في شرح الافلاك » وكتاب « سوانح القريحة في شرح الصفيحة (الاسطرلاب) للعاملي ورسالته في كيفية العمل بالصفيحة • فضلا عن حاشيته على شرح الجغميني في الهيئة • كما كتب صالح بن المعمار كتابه « رسالة في المواقيت » وهو في مجموعة كبيرة من الجداول الفلكيـــة •

وكتب عبدالعزيز بن الشيخ محمد الرحبي البغدادي المتوفى سنة ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٦م رسالة باسم « البراهين اليقينية المقررة في الهندسة » وتتناول مقادير المساحات والمحيطات والاقطار في الحياض والاجسام •

وفي علم الحساب الف امين العمري (ت١٢٠٣هـ/١٧٨٨م) رسالة اسماها « ذريعة الطلاب الى معرفة الحساب » ، اما لطف‌الله كاتب الديوان ايام سليمان باشا الكبير والي بغداد (١١٩٥ – ١٢١٧ هـ/١٧٨٠ – ١٨٠٢ م) فكان بارعا في الرياضيات توفي في سنة ١٢١٤ هـ /١٧٩٩ م .

وللشيخ عثمان بن سند (ت ١٢٤٢ هـ /١٨٢٦ م) شرح منظومة « خلاصة الحساب » للعاملي وقد قال في مقدمة المنظومة :

نظمتها في مجلس والحال   حالت بها الاحوال والاهوال
لكن طبعي مولع بالنظم   ولع هذا الدهر لي باللطم

وكان لمحمد امين السويدي (ت ١٢٤٤ هـ/١٨٢٨ م) رسالة في علم الفلك . وكتب الاديب صالح السعدي الموصلي (ت ١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ م) حاشيته على شرح الجغميني في الهيئة . ولمحمد الذكي (ت ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م) اسهامات في علم الجبر والفلك . ولد في السليمانية ، ومن اثاره عدة رسائل في الجبر والفلك .

وكتب محمد بن ادم (ت ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م) مصنفات عديدة في الحساب والهندسة منها «شرح خلاصة الحساب» و«مرآة المعقول المشتملة على الهندسة والحساب والحكمة الطبيعية » .

هذا وقد قام محمد امين العمري الخطيب بن محمد نجيب افندي بنسخ مخطوطة لوالده سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م بعنوان «رسالة في علم الحساب» تقع في ١٩ ورقة يورد فيها مؤلفها القواعد الحسابية نظما وشرحها شرحا مسهبا نثرا . ومن ذلك قوله :

زيادة البعض من الاعداد   جمع على الغير من الافراد
وان جمعنا من العدد   على نظيره فتضعيفا يعد

اما محمد حسين بن كاظم المعروف بالكيشوان ، ولـد في النجف سنة ١٨٧٨ ، فقد كانت له مشاركة في بعض العلوم . ومن اثاره « منظومـة في الحساب والجبر والمقابلة » .

ومهما يكن من امر ، فان مساهمات العراقيين في مجال العلوم الرياضية خلال هذه المرحلة لم تقف عند حدود التأليف والشرح الاقتباس ، وانما ظهرت عن طريق التعليم والتدريس حيث كان ثمة من يقوم بهذه المهمة . فكان لهم اثر كبير في نشر العلم ، واستثارة الهمم . ولا يخفي ان كثيرا من المعارف كانت تنتشر كما يقول الدكتور صالح احمد العلي ، انذاك بهذا الاسلوب في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه الطباعة وكان التأليف يقوم على الكتابة باليد .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان الناس ظلوا بحاجة الى علم الحساب لما له من مكانة خاصة في حياتهم اليومية ففيه « ضبط المعامـلات ، وحفظ الاموال ، وقضاء الديون وقسمة التركات » . اما الهندسة ، فقد كانت تدخل في البناء كذلك ، ولا يمكن ان تكون كل هذه العمائر والابنية التي وجـدت في العراق وللفترة من ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م و ١٣٣٣ هـ/١٩١٤ م، قد تمت دون معرفة دقيقة لاصول الهندسة ، وضبط الابعـاد والمقاييس وتفهـم لنقـاط الارتكاز وتوازن القوى . وعلى هذا الاساس يمكننا التحدث عن خصائص مميزة للعمارة العراقية في عصور الغزاة . وهذه العمارة نجدها شاخصة في المساجد والمدارس والاسـواق والخانات والقناطر والجسـور والاسـوار والقـلاع .

كما اهتمت المدارس الحديثة (المدنية والعسكرية) فيالعراق بعد تأسيسها سنة ١٨٦٩ بتدريس العلوم الرياضية كالحسابوالهندسةوالجبر والفتالكتب المدرسية لهذا الغرض ولعل من هذه الكتب كتاب « هندسة رسمية وتطبيقات متنوعة » ترجمة شكري بك وكتاب طبع في استانبول سنة ٧٠١ هـ/١٣٠١ م الفه احمـد شـكري بعنـوان« علـم حسـاب ، عملـي ونظـري »

« استانبول سنة ١٣١٣ هـ /١٨٩٥ م كتاب صالح زكي الموسوم « هندسة تجريبية » المطبوع باستانبول سنة ١٣٣١ هـ/١٩١٢ م وكتاب « تفرقة رياضية » في المبادىء الاساسية لعلم الجبر ومؤلفه امين فيضي وهو من اهالي السليمانية وكتاب احمد جواد وشناسي باسم « كوزول حساب » وطبع سنة ١٣٣١هـ/١٩١٢م، كما ظهرت فيهذه الفترةبعض الكتبالمدرسية باللغة العربية،الفها مدرسونعراقيون،منها علىسبيلالمثال كتابا اقليمس يوسف داود « ترويض الطلاب في اصول علم الحساب » و « مدخل الطلاب وتعلة الرغاب فياصولعلمالحساب» والمطبوعينفيالموصلسنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م وكتبحمدي الاعظمي « خلاصة الهندسة » و « زبدة الحساب » المطبوعين في بغداد سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١١ وكتاب « مفتاح الهندسة » المطبوع في بغداد سنة ١٣٣٣ هـ /١٩١٣ م .

العلوم الطبيعية

لقد مرت العلومالطبيعية المتمثلة آنذاك بالكيمياء وعلومالحياة بفترة من الجمود استمرت حوالي القرنين ، ابتداء من مستهل القرن الحادي عشر ، ولم يحركها الا عالم منالعراق اسمه ابو القاسم بناحمد العراقي السماوي المتوفى في النصف الثاني من القرن الثاني عشر . ومن اثاره « نهاية الطلب في شرح المكتسب » و « النجاة والاتصال بعين الحياة » . اما اشهر مؤلفاته فهو كتاب « العلم المكتسب في زراعة الذهب » . وقد حققه وترجمه الى الانكليزية ونشره بباريس ١٣٤٢ هـ/١٩٢٣ م اي.جي هولميارد Holmyard ويقول في مقدمته : « فاني صنعت هذا الكتاب ذاكرا فيه علم صناعة الكيمياء وعملها في الهيولى التي لا يمتنع العمل بها بعد اقامة الدليل بامكان الصناعة وذكرت الكم والكيف ، مجملا ومفصلا ثم اثبت على كل فصل بشهادات من اقوال الفلاسفة ليكون موافقا لهم ، وختمت الكتاب بفصل بينت

فيه ماهية الرموز » ويعد هذا الكتاب خطوة متقدمة في فهم الرموز والمعادلات ... ، والمعادلات الكيمياوية ، خاصة وان اتجاه الكيمياء الى استعمال الرموز كان في البداية نوعا من الاختزال لكنه تحول الى ان يكون وسيلة للتعمية والتشويش ، ويبدو ان ذلك يعود الى سببين اولهما حفظ سلامة الكيمياويين وثانيهما الجشع والطمع اللذان يفرضان على بعضهم اخفاء ما يحصلون عليه من معلومات وعدم مشاركة غيرهم فيه . لذلك عمدوا الى « وصف نظرياتهم وموادهم وعملياتهم بلغة غامضة طافحة بالمجاز والاستعارة والتورية والمشابهة» فعلى سبيل المثال اشاروا الى الوعاء الزجاجي البيضوي او الكروي الذي يمكن احكام سده « بيضة الحكماء » والزئبق بماء الفضة والملح بكوكب الصبح والكبريت « بالنسر الابيض » يقول ابو القاسم محمد بن احمد العراقي في كتاب « العلم المكتسب » « اعلم رحمك الله تعالى ان اللفظ المفيد ينقسم الى ثلاثة انواع لفظ بالمطابقة وهو دال على تمام الماهية ، وهذا الضرب من اللفظ لا يطلق عليه رمز البتة بل هو تصريح ، ولفظ بالتضمن وهو دال على جزء من الماهية ، وهو اخفى من الاول ويجوز ان يطلق عليه رمز بالاضافة الى الاول ، ولفظ بالالتزام وهو اخفى من الاولين ، وهو الرمز الصحيح » ثم يمضي في ضرب الامثلة على هذه الضروب المختلفة من الرموز الكيمياوية .

ومع ان الابتكار لم يكن هدف العالم العراقي بل مواصلة بحوث العلماء العرب المبرزين في مجال الكيمياء . وفي مقدمتهم جابر بن حيان (عاش في القرن التاسع الميلادي) ، الا ان العراقي عبر عن اراء العلماء العرب ، وخاصة في نظرته الى المعادن وامكانية تحويل الرخيصة منها الى ذهب ، وهي النظرية التي كانت شائعة انذاك ، باسلوب يكشف عن تملكه لناصية الكيمياء وليس لمجرد اعادة اراء غيره .

ومهما يكن من امر ، فان العلماء الاوربيين سرعان ما لمسوا بشكل جلي الجهود العلمية البارزة التي بذلها العلماء العرب في علم الكيمياء ، فاخذوا

منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، يدرسون الاثار العربية ويدخلونها في جامعاتهم ويمكن ان نشير في هذا الصدد الى ما بذله رجل انكليزي يدعى روبرت اوف جستر Chester و برنارد تريفس Treves ورنس زاجير Zachair وهكذا كان ذلك بداية لظهور الكيمياء الحديثة Chemistry التي كان لروبرت بويل (ت١١٠٣هـ/١٦٩١م) فضل تأسيسها و (لافوزابيه) (ت ١٢٠٩ هـ/١٧٩٤ م) فضل توطيد دعائمها .

اما في مجال علوم الحياة ، فيمكن القول بان العلماء العراقيين اهتموا بهذه العلوم ووضعوا المؤلفات والمصنفات العديدة فيه . وفي هذا الصدد تقتضي الاشارة الى كتاب « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » لمؤلفه زكريا بن محمد بن محمود القزويني الكوفي بواسط سنة ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م .

لقد قسم القزويني كتابه هذا الى شرح ومقالتين . فشرح عنوان كتابه باربع مقدمات اما المقالتان، فالاولى في العلويات وقسمها الى ثلاثة عشر فصلا او نظرا . تكلم فيها عن حقيقة الافلاك والقمر والسيارات والثوابت والمجرة والشهور القمرية والشمسية والايام والمواسم . والمقالة الثانية تحدث فيها عن « السفليات » اي فيما هو موجود على الارض من هواء وماء وتراب ومعادن ونبات وحيوان وانسان وقد اعتمد في كتابه هذا على مصادر عديدة ، فاخذ بعض معلوماته عن ارسطو والجاحظ وابن سينا والبيروني وغيرهم ، والبعض الاخر مشافهة او رؤية . واشار الى ذلك في ديباجة الكتاب قائلا : « ... اقبلت على مطالعة الكتب ... وكنت مستغرقا بالنظر في عجائب صنع الله في مصنوعاته ، وغرائب ابداعه في مبدعاته ... ولقد حصل لي بطريق السمع والبصر ، والفكر والنظر ، حكم عجيبة وخواص غريبة ، فأحببت ان اقيدها لتثبت ، وكرهت الذهول عنها مخالفة ان تفلت ».

لم يصنف القزويني النبات او الحيوان حسب التصنيف الطبيعي المعروف

اليوم ، والذي [يعتمـــد] على تشابه كل مجموعة معينة منها في صفــات خاصة مشتركة بين انواعها بل حسب حجومها او بيئاتها • كما رتب الانواع ضمن المجموعة الواحدة ترتيبا ابجديا ، وهو ترتيب معمول به اليوم تيسيرا للدراسة فحسب لا لبيان صلة القربى بين اجناس الحيوان او النبات وانواعه• وهكذا تضمنت معلوماته حقائق علمية ثابتة حتى الان، لكنها ، بالمثل اشتملت على عجائب وغرائب يدخل معظمها في باب الخرافات والاساطير • وكأنما فطن القزويني الى ذلك فقال معتذرا ومبررا « ••• وقد ذكرت فيه اسبابا تأباها طباع الغبي الغافل ولا تنكرها نفس الذكي العاقل، فانها وان كانت بعيدة عن العادات المعهودة والمشاهدات المألوفة لكن لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وجبلة المخلوق ••• فان احببت ان تكون منها على شقة فشمر لتجربتها واياك ان تغتـــر » •

لقد تحدث القزويني في كتابه عن الكائنات الحية فقال « ان اولى مراتب هذه الكائنات تراب واخرها نفس ملكية طاهرة فان المعادن متصل اولها بالتراب او الماء واخرها بالنبات ، والنبات متصل اوله بالمعادن واخره بالحيوان ، والحيوان متصل اوله بالنبات واخره بالانسان ••• » وهذا النص كما يقول الاستاذ عزيز العلي العزى ، في دراسته عن الكتاب والمنشورة بمجلة المورد ، المجلد ٢٦،العدد ٤ لسنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م، يدل على ان المؤلف كان عارفا بتكون اجسام الكائنات الحية من العناصر والامهات كما سماها وان بعض هـــذه العناصر ومركباتها يذوب في مياه الارض ،فيكون العناصر الاولية لغذاء النبات، وانه كان مدركا لمفهوم التطور من الجماد الى النبات ، ثم الى الحيوان » •

وبالرغم من ان انجازات العرب العلمية في ميدان علوم الحياة لم تؤثـــر في اوربا ، بالدرجة نفسها التي اثرت فيها علوم الطب والرياضيات والكيمياء ، الا ان كتاب « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، للقزويني يعد من

اشهر الكتب التي عرفتها اوربا في مطلع نهضتها ، فقد بقي هذا الكتاب ، الذي اتخذ تحليله لتركيب العالم ، كما يقول مارتن بلسنر في كتاب « تراث الاسلام » طابعا علميا على جانب كبير من الاهمية .

ومع بدء المدارس الحديثة في العراق سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م صارت العلوم الطبيعية مواد تدرس ضمن مناهج المدارس الرشدية والاعدادية (المدنية والعسكرية) باسم « مواليد » او « احياء » وحكمت طبيعية وكيمياء اي « طبيعيات وكيمياء » . كما ظهرت المؤلفات المدرسية في هذا المجال نذكر منها على سبيل المثال مؤلفات ساطع الحصري « مبادىء علوم طبيعية د ن حكمت وكيمياء » المطبوع سنة ١٣٢٧ هـ /١٩٠٥ م وكتاب « دروس اشياء » المطبوع سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م كما ظهرت في هذه الفترة كتب ومقالات باللغة العربية ، في الصحف والمجلات العراقية والعربية لمؤلفين عراقيين اهتموا بالعلوم الطبيعية امثال جميل صدقي الزهاوي الذي كتب عن « التولد الذاتي » و « الكائنات » و « الكائنات في القضايا الطبيعية والفلسفية » في مجلة المقتطف بين سنتي ١٣١٤ ــ ١٣١٥ هـ/١٨٩٦ ــ ١٨٩٧ م ، وكذلك الاب انستاس الكرملي الذي كتب مقالات تدور حول « المدخل في علم الحيوان » في مجلات المقتطف والمشرق ولغة العرب بين سنتي ١٣٢٢ ــ ١٣٣٣ هـ / ١٩٠٤ ــ ١٩١٤ م .

المراجـع

١ ـ جوان فيرنيه ، الرياضيات والفلك والبصريات ، في تراث الاسلام ، تحرير شاخت ويوزورث ، ترجمة حسين مؤنس ، احسان صدقي ٣/الكويت/ ١٩٧٨ .

٢ ـ مارتن بلسنر ،العلوم الطبيعية والطب ، في تراث الاسلام ، تحرير شاخت وبوزورث ، ترجمة حسين مؤنس ، احسان صدقي القمر ،جـ٢/الكويت ١٩٧٨ .

٣ ـ محمد رجب السامرائي ، علم الفلك عند العرب / بغداد ١٩٨٤

٤ ـ كمال السامرائي ، الامراض النسوية في التاريخ القديم واخبارها في العراق الحديث / بغداد ١٩٨١ .

٥ ـ عباس العزاوي ، تاريخ علم الفلك في العراق / بغداد ١٩٥٨

٦ ـ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين ١ـ٨/بغداد ١٩٣٩ـ١٩٥٦ .

٧ ـ قدري حافظ طوفان ، العلوم عند العرب / القاهرة ١٩٥٦ .

٨ ـ حكمت نجيب عبدالرحمن ، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب /الموصل ١٩٧٧ .

٩ ـ عمر رضا كحاله ، معجم المؤلفين ١٤ جزء / بيروت ، لا . ت

١٠ـ د . داود الجلبي ، مخطوطات الموصل ١/بغداد ١٩٢٧ .

١١ـ د . عماد عبدالسلام رؤوف ، الموصل في العهد العثماني / النجف ١٩٧٥

١٢ـ د . جعفر خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين / بغداد ١٩٦٨

١٣ـ عبدالحميد العلوجي ، تاريخ الطب العراقي / بغداد ١٩٦٧ .

١٤ـ موسيس ديرهاكوبيان ، حالة العراق الصحية في ربع قرن / الموصل ١٩٤٨ .

١٥ـ هاشم الوتري ومعمر الشابندر ، تاريخ الطب في العراق/بغداد ١٩٣٣ .

١٦ـ كمال الدين عبدالرزاق بن الفوطي ، تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب، جـ٤ ، قسم ١ـ٣تحقيق د . . مصطفى جواد بغداد ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥ .
جـ٥ ، تصحيح وتعليق الحافظ محمد عبدالقدوس /القاهرة ١٩٤٠ .

١٧ـ د. صالح احمد العلي ، دراسة العلوم الرياضية ومكانتها في الحضارة العربية الاسلامية ، مجلة المورد ، المجلد ٣ ـ العدد ٤ بغداد ١٩٧٤ .

١٨ـ عزيز العلي العزي « عجائب المخلوقات للقزويني : دراسة في تراثنا العلمي، مجلة المورد المجلد ٦ العدد ٤ بغداد / ١٩٧٧ .

١٩ـ د فرات فائق خطاب ، قصة الرموز والمصطلحات والمعادلات في الكيمياء القديمة ، مجلة المورد ، المجلة ٦ العدد ٤ بغداد / ١٩٧٧ .

الفصل الثالث

فنون الكتاب

اسامة ناصر النقشبندي
المؤسسة العامة للآثار والتراث ـ بغداد

مقدمة في المخطوط العربي

ظهر المخطوط العربي مع ظهور الحضارة العربية الاسلامية وتطور مع تطورها وازدهر بازدهارها في كل جوانبه وفنونه ولم تؤثر عليه الكوارث التي تعرضت لها الامة في مختلف الفترات ، بل نراه في كل مرة تخرج بها الامة من أزمتها يزداد جمالا واتقانا وابداعا ، وهذا ما رأيناه بعد سقوط بغداد على يد المغول في ٥ صفر ٦٥٦ هـ/١٢ شباط ١٢٥٨ م حيث لم تتوقف مدرسة بغداد في الخط والزخرفة والتذهيب والتصوير كما لم تكسل صناعة الورق والجلود والاحبار ، وهذا يدل على حيوية الامة وقابليتها على الاحتواء الحضاري ، فما من امة غازية تغلبت على بقعة عربية الا تأثرت بها واخذت منها نظما وتقاليد وثقافة وفنونا .

ويمكن القول ان المخطوط العربي وهو الوعاء الذي ضم بين دفتيه القيم والمفاهيم والعلوم والمعارف التي حكمت الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للامة ، قد اكتسب قيمة خاصة واهمية كبيرة تتناسب مع ما يحتويه من تلك المعارف وفرض نفسه على الغزاة انفسهم الذين لم

يستطيعوا الا ان يتأثروا بالحضارة العربية الاسلامية . لذلك وجدنا ان الاهتمام بالمخطوط ظل قائما وان تجويد كتابته والعناية بصناعته لم تفتر بل استمرت لتؤكد للعالم اصرار الفنان العراقي على مواصلة رسالته الفنية النبيلة ، ولتبرهن على مدى رسوخ تقاليد الثقافة في هذا البلد رغم كل اعمال المحتلين وهمجيتهم ، فلم يمض على احتلال بغداد الا سنوات حتى ظهر المخطوط ثانية بحلته القشيبة وبلغ الاعتناء به غاية كبيرة واستمرت صناعة الورق واتسعت وزاد استخدام الورق وتنوعت احجامه وقطوعه ، ولم تنقطع الزخارف الهندسية والنباتية الملونة والمذهبة عن تحلية المخطوطات وتجميلها حتى اصبحت المخطوطات من الميادين الرئيسة التي يمارس فيها الفنان العربي المسلم صنعته في الخط والتذهيب والتصوير ، ووضع في هذه الحقبة العديد من المتون في مختلف العلوم والمعارف اضافة الى الشروح والحواشي والمختصرات والمنظومات التي وضعت على متون قديمة كالكافية والشافية لابن الحاجب وألفيتي ابن مالك وابن معطي ومجمع البحرين وملتقى النيرين لاحمد بن علي البغدادي المعروف بابن الساعاتي ، وشروح القانون والاشارات والتنبيهات لابن سينا وتذكرة السويدي في الطب والفية العراقي في الحديث وشروح وحواشي مفتاح العلوم للسكاكي التي بلغت اكثر من (١٦٠) كتابا ووقاية الرواية في مسائل الهداية لبرهان الشريعة المحبوبي وشروحاتها وفتاوى عمر بن عبدالرحيم البصروي وشروحات الجامع الصحيح للبخاري ومسلم والترمذي وسنن النسائي وابي داود وصحاح الجوهري وكتب الطبقات على مختلف انواعها وكتب الرياضيات والفلك والهيئة والعلوم الاخرى . ويكفينا ان نشير الى بعض المعاجم التي خصصت لرصد هذه التآليف ومنها كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ ١٦٥٧ م والذي طبع بحقلين من القطع الكبير واستغرق ٢٠٥٦ صفحة والذيول التي وضعت عليه واهمها ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لاسماعيل باشا البغدادي المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ /١٩٢٠ م .

ورغم ما تعرضت له خزائن الكتب على يد المغول من الدمار والضياع والسلب ومن ذلك ما نقله نصيرالدين الطوسي من مخطوطات خزائـن بغداد الى مراغة سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م والتي بلغت على ما نقلته الروايات اكثر من ٤٠٠ ألف مجلد فان هذه الخزائن الخطية عادت لتستأنف دورهـا في حفظ ثقافة الامة، وتسابق الغيارى على رفدها بالمخطوطات من جديد كالمدرسـة المستنصرية والمدرسة النظامية والمدرسة البشيرية ومدرسة ابي حنيفة او على انشاء خزائن كتب غيرها ، كخزائن المدرسة العصمتية التي فتحت سنة ٦٧١ هـ ١٢٧٢ م بالاعظمية والتي أنشأتها شمس الضحى حفيدة صلاح الدين الايوبي والمدرسة المسعودية وخزانة المؤرخ البغدادي ابن الفوطي المتوفى سنة ٧٢٣هـ ١٣٢٣ م والتي كانت تحتوي على ٤٠٠ ألف مجلد وخزانـة صفي الديـن عبدالمؤمن بن عبدالحق الحنبلي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م وخزانة قوام الدين الشيباني وعلي بن ابراهيم بن الثردة الواسطي البغدادي والخزانـة العباسية في البصرة والخزانة الحيدرية الغروية في النجف وخزانة مشهد عبدالله ابن علي في المذار (بلدة في ميسان بين واسط والبصرة) كانت موجودة سنة ٨٢٨ هـ/١٤٧٧ م وخزانة مدرسة سيدي خان العباسي في العمادية التي اسستها الاميرة زاهدة العباسية وجددها سيدي خان العباسي سنة ١٠٢٤ هـ /١٦١٥م فعرفت به كانت تحتوي على (١٠٠٠) كتاب احرقت ولم يبق منها سوى (٣٥) كتابا ، وخزانة مدرسة قاسم العباسي في العمادية التي انشئت سنة ٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م وخزانة السلطان حسين العباسي احد حكام بهدينان المتوفى سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م التي وصلتنا مجموعة من مخطوطاتها محفوظة في خزانة الاثار. والخزائن الخطية في الموصل التي جمعت مخطوطاتها اخيرا في خزانة الاوقاف . اضافة الى الخزائن الاخرى التي كانت موزعة في مدن العراق والتي استمر بعضها قائما رغم كل ما تعرض له العراق ، حتى بلغت الخزائن الخطية المتوارثة بالمئات .

اما الجوانب الفنية في اخراج المخطوط فاستمرت كما كانت عليه في الفترة العباسية وان طرأ عليها بعد ذلك شيء من التحسين والاجادة بما يخدم الكتاب والقاريء ، فكانت الصفحات تقسم وتنظم بواسطة المساطر الى اسطر متساوية الابعاد ، وتترك بياضات في الحواشي التي تحيط بالمتن تتناسب مع حجم المخطوط وجمالية الكتاب وحسب اجتهاد الكاتب في السعة والضيق وبعض الكتاب يقدرون الحاشية بالربع من عرض الدرج او الورقة ، كما كان يترك بياض مناسب في بداية المخطوط قبل البسملة . وقد ذكر القلقشندي بعض الاصول لهذا البياض في المخطوطات السلطانية حيث يختلف البياض باختلاف قطع الورق فكلما عظم القطع كان البياض فيه اكثر فقطع البغدادي مثلا يترك ستة اوصال بياضا وتكتب البسملة في اول السابع وقطع الثلثين يترك فيه خمسة اوصال وهكذا . اما عنوان المخطوط فكان يكتب اما في اعلى الصفحة الاولى او في صفحة مستقلة او يذكر ضمن الديباجة . وبعض النساخ او مالكو المخطوطات يكتبون العنوان والمؤلف بكلمات موجزة على حافة المخطوط . كما استمرت التعقيبات في ترقيم صفحات المخطوط واستخدمت في هذه الفترة ايضا رموز الاعداد لترقيم الاوراق ولم ترقم الصفحات . كما كانت عناوين الابواب والفصول والمقالات والعناوين الفرعية الاخرى تكتب بحروف اكبر من المتن وفي الغالب كان يستخدم خط الثلث في كتابتها . وتكتب بعض العناوين بمداد احمر كما تكتب به ايضا نصوص المتون المشروحة فيكون المتن بالاحمر والشرح بالاسود وكانت الشروح والاستدراكات والتعقيبات والمقابلات تضاف على حواشي المخطوط دون ان تخل بالاصل . وربما حشرت بين السطور بحروف ناعمة وهو ما يسمى (بالتذبيب) (صورة رقم ١) . وقد لاحظنا ايضا ان بعض النساخ في هذه الحقبة استمروا في عدم تنقيط كتابتهم تاركين ذلك للقاريء الا ما يشكل منها .



صورة ـ ١

صفحتان من كتاب (تشريح الابدان) الذي كتب سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) ويظهر عليه التذبيب وهي الكتابة الناعمة بين السطور

ومن الجوانب الابداعية الاخرى التي اضيفت الى المخطوط هو (خيط الاشارة) الذي يثبت في كعب المخطوط ويكون اطول من طول المخطوط ويستعمل للتأشير الى الموضع الذي يصل اليه القاريء . واستخدمت في بعض المخطوطات خيوط ملونة تلصق باطراف الاوراق تشير الى بدايات المقالات او الابواب او الفصول . هذا اضافة الى جوانب فنية اخرى تعكس استمرار عناية الامة بالمخطوط العربي بوصفه مثالا للتواصل الحضاري والفكري بين

اجيالها . واستمر الاهتمام بصناعة المخطوط وتطويره وتجليده الى جانب الاهتمام بالخط والزخرفة والتصوير والتذهيب وسأتناول هذه الجوانب في المباحث الاتية .

الورق وادوات الكتابة

ان آلاف المخطوطات التي وصلتنا من القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) وما بعده لم تظهر لنا أي هبوط او رداءة في صناعة الورق بل انها استمرت كما كانت عليه في العصر العباسي ، ويمكننا القول ان هذه الصناعة قد تطورت وتحسنت وتعددت قطوع الورق اضافة الى استمرار خصوصية الورق البغدادي في الجودة والاتقان والذي وصفه القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م في كتابه صبح الاعشى كما اشرنا الى ذلك في موضع سابق فقال (واغلى اجناس الورق فيما رأيناه البغدادي وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب اجزاء وقطعه وافر جدا ...) ومع ذلك فقد ذكر لنا القلقشندي نوعا من الورق من ذي المرتبة غير العالية (صغير القطع خشن غليظ خفيف الغرف لا ينتفع به في الكتابة يتخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك) .

وقد اعتبر القطع البغدادي الكامل وهو بعرض ذراع واحد وبطول ذراع ونصف بذراع القماش المصري وحدة القياس الاساسية في تحديد اغلب قطوع الورق خصوصا الذي كان مستعملا فيه بديوان الانشاء بمصر حيث ذكرت منه تسعة قطوع خمسة منها بغدادية هي : القطع البغدادي الكامل ، والقطع البغدادي الناقص وقطع الثلثين والنصف والثلث وهنالك قطوع اخرى تختلف باختلاف الاغراض التي يستخدم لها الورق . وكان لكل قطع من تلك القطوع قلم يكتب به فللقطع البغدادي قلم مختصر الطومار ولقطع الثلثين قلم الثلث الثقيل ولقطع النصف قلم الخفيف ولقطع الثلث قلم التوقيعات على ما اشار

اليه القلقشندي . وهنالك قطوع اخرى اختلفت باختلاف الغرض من استعمال الورق واختلاف البلدان التي تصنعه على ان ما وصلتنا من مخطوطات من مختلف الحقب تظهر لنا ان قطوع الورق وقياسات المخطوطات لم تقف عند حدود ومقاسات معينة وانما كانت تستخدم مقاسات تتناسب مع حجم الكتاب وضخامته وسهولة حمله وخزنه ومطالعته وهنالك احجام شائعة ومتداولة تتراوح بين (٣٥) سم طولا و(٢٥) سم عرضا كحد اعلى و (١٥) سم طولا و (١٠) سم عرضا كحد ادنى وبين هذين الحدين تتباين القياسات اما القياسات الكبيرة او الصغيرة التي تزيد او تنقص عن هذين الحدين فهي موجودة وتصل الى اضعاف تلك القياسات ولكنها استعملت بصورة محدودة في كتابة المصاحف الكريمة وكتب الادعية والاذكار والواح الخطاطين وما شابه ذلك .

وقد وصلتنا نماذج كثيرة على غاية في الجودة والاتقان للورق البغدادي تميزت صناعته بخصائص فنية دعت اليها الحاجة من استخدام الورق وجعله اكثر مقاومة للظروف الطبيعية والعوامل الاخرى التي ادت الى تلف بعض المخطوطات في الفترات السابقة لذلك اصبح الورق اكثر متانة وثخنا مع احتفاظه بالنعومة والليونة وطلائه بمواد مقاومة للرطوبة والجفاف . وقد حافظ هذا الورق على وضعه حتى الوقت الحاضر . وعادة ما يميل لون هذا الورق للحمرة او الاصفرار ويستخدم في كتابة المجلدات الكبيرة القطوع على الاغلب.

ونوع آخر من الورق يمكن ان نسميه بالورق المطعم ، حيث تكون حاشية الورقة من نوع يختلف عن وسطها الذي يكتب به المتن . وعادة ما تكون الورقة الوسطى رقيقة ناصعة البياض صقيلة وتكون الحاشية من نوع الورق السميك وتستعمل هذه الاوراق المطعمة في كتابة المصاحف الكريمة وكتب الادعية والاذكار وغيرها . وتلصق اوراق الحواشي على الورق الاصلي بمواد لصق مختلفة ثم تصقل وتدلك الى ان تتساوى وتصبح كأنها ورقة واحدة ، وغالبا ما يضاف شريط بالمداد الذهبي او أي لون آخر على مكان

اللصق وقد تفنن بعض الصناع في تلوين الحواشي وتحليتها بالزخارف النباتية والازاهير والاغصان . واستخدم التطعيم كذلك في صناعة الورق المقـوى السميك الذي تكتب عليه اللوحات والادراج الخطية . ولا يفوتنا ان نشير الى استخدام جلود الحيوانات المدبوغة في كتابة بعض المخطوطات والرسائل بل رسمت عليها بعض التصاوير . كما دبغت جلود الافاعي واستخدم بعضها في الكتابة وفي قسم المخطوطات بمؤسسة الاثار رسالة في الادعية كتبت على جلد افعى (مخطوطة الاثار ١٨٣) . وعلى الاغلب فان استعمال جلود الافعى المدبوغة هو وضعها بين الاوراق المزوقة للمخطوطات وهـو ما شاع في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وما بعده والظاهر ان جلد الافعى يمنع احتكاك الصفحات المزوقة ويحافظ على الالوان وتلتصق به ذرات الغبار . وتكون احجام الاوراق الجلدية اما بحجم اوراق المخطـوط ، أو تقطع على حجم الحلية الزخرفية اذا كانت على شكل شريط زخرفي او صورة ضمن المتن . وقد استعملت كذلك اوراق رقيقة بدلا من جلـود الافاعـي المدبوغة للغرض المذكور .

واضافة على ذلك فقد استعمل نوع من الورق الابيض غير الصقيـل تظهر عليه خطوط مائية افقية او عمودية ، واوراق اخرى تحمل رموزا مائية بعضها عبارة عن شعارات على شكل طاووس او طمغات دائريـة او حروف لاتينية . وهذه الاوراق اوربية الاصل استعملت في تركيا وبلاد الشام ولـم تستعمل في العراق الا بشكل محدود .

اما ادوات الكتابة فاهمها :

١ ـ الدواة : وقيل انها ام آلات الكتابة وسمطها الجامع لها وكانـت تصنع من النحاس او خشب الابنوس والصنـدل الاحمر وتحلى بالالـوان والزخارف . وغالبا ما تتكون الدواة من المقلمة والمحبرة . وكذلك تسـمى

الدواة بالمقلمة وهذه التسمية اطلقت على الدواة بشكل عام في الحقب المتأخرة وقد تكون المقلمة منفصلة عن الدواة •

٢ ــ المحبرة : وهي الاداة التي توضع فيها مادة الحبر وتصنع من الزجاج او المعدن المكفت وتكون المحبرة في بعض الاحيان جزءا من الدواة . وتتألف المحبرة من ثلاثة اجزاء هي :

أ ــ الجونة : وهي النقرة او الظرف الذي توضع فيه الليقة والمداد •
ب ــ الليقة : وتسمى كذلك بالكرسف وتتخذ من القطن او الحرير او الصوف•
جـ ــ المداد والحبر وما ضاهاهما •

٣ ــ الملواق : وهو ما تلاق به الدواة أي تحرك به الليقة ويسمى المحراك ويتخذ من الابنوس لئلا يغيره لون المداد •

٤ ــ المرملة : واسمها القديم المتربة • وهي المكان الذي يوضع فيه الرمل الذي يستعمل في الكتابة مع المواد الاخرى • وهو على انواع حسب لونه واماكن استخراجه ويفضل الرمل الاحمر منه • ومحل المرملة بين المحبرة وباطن الدواة وفيها مصفي او شباك يمنع وصول الرمل الخشن الى المحبرة •

٥ ــ المنشاة : وهي التي تتخذ لحفظ اللصاق وتكون كهيئة المرملة في الهيئة والمحل من الدواة من جهة الغطاء ولكن دون شباك او مصفي •

٦ ــ المنفذ : وهي آلة تشبه المخرز تتخذ لخرم الورق وثقبه •

٧ ــ المسقاة : وهي آلة تتخذ لصب الماء في المحبرة وتكون من الحلزون الذي يخرج من البحر او من النحاس • وتستخدم لكي لا يضطر الكاتب لاخراج المحبرة من مكانها في حالة اضافة الماء •

٨ ــ المقط : وهو الذي يوضع عليه رأس القلم اثناء القط • ويتخذ من العاج او الابنوس ويكون مسطح الوجه •

٩ ــ الملزمة : وهي آلة تتكون من دفتين من الخشب او النحاس تمسكان برأس الورق بمحبس لكي لا يرجع على الكاتب اثناء الكتابة .

١٠ ــ المفرشة : وهي قطعة من الكتان او الصوف ونحوه تفرش تحت الاقلام في باطن الدواة .

١١ ــ المسحة : وتسمى الدفتر وتتخذ من صوف او حرير او غير ذلك من نفيس القماش متراكبة ذات وجهين ملونين يمسح القلم بباطنها عند الفراغ من الكتابة لئلا يجف الحبر عليه فيفسده .

١١ ــ المسطرة : وهي آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها ورق الكتابة . ويحتاجها المذهب ايضا . وتتخذ من الورق الثخين او المقوى وتثبت عليها الاسطر بالخيوط التي تمثل السطور والجداول . ويوضع عليها الورق ويضغط فتترك الخيوط آثارها على الورق .

١٣ ــ المصقلة : وهي التي يصقل بها الذهب بعد استخدامه في الكتابة والزخرفــة .

١٤ ــ المهرق : وهو القرطاس الذي يكتب فيه .

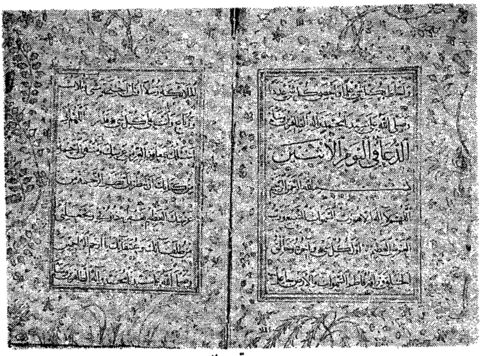
١٥ ــ المسن : وهو الآلة التي تحد بها السكين وتهذب .

١٦ ــ المزبر : وهو القلم الذي يتخذ للكتابة .

١٧ ــ المدية : وهي السكين التي يقط بها القلم .

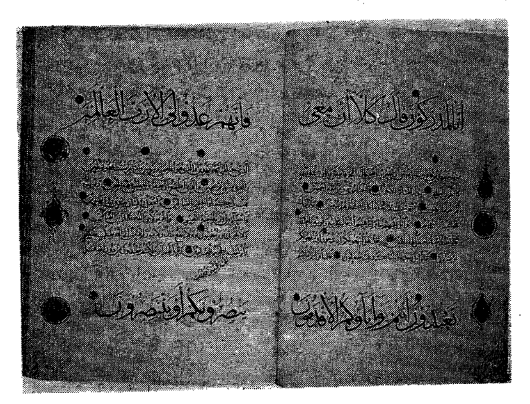
وقد اعتبر بعض الباحثين ان المرفع الذي توضع عليه الدواة من ادوات الكتابة . ومن الادوات التي يمكن اعتبارها من مواد الكتابة هي مواد التحبير الهندسية وادواتها التي أستخدمت في الحقب المتأخرة والميزان الذي توزن فيه بعض مواد الكتابة . والملقط والمقص والختم وما شاكــل ذلك من الادوات المساعدة التي يحتاجها الخطاط والمزوق والمذهب .

استمرت مسيرة الخط العربي في التطور رغم كل ما داهم البلاد من كوارث . وتمكن هذا الفن من البقاء والاستمرار على يد اساتذة كبار عنوا بتجويده وتطويره ، وبقيت بغداد كما كانت قبلة الخطاطين . وكل خطاط يشتهر فيها يتخذ قدوة للخطاطين العرب والمسلمين . لذا لم تقم مدرسة للخط في مصر والشام وتركيا وايران وغيرها منعزلة عن مدرسة بغداد . بل ظلت خطوط بغداد زينة يتغالى باثمانها وتراعى صنعتها وكان على رأس اساتذة الخط في بغداد ياقوت المستعصمي المتوفى سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م الذي أخذ الخط عن استاذه صفي الدين عبدالمؤمن بن يوسف الارموي البغدادي المتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م وأسس مدرسة متميزة للخط لا تقل اهمية عن مدرسة ابن مقلة وابن البواب . وقد كتب باقلام ستة اضافة الى الخط الكوفي واهمل ما عداها وهي : الثلث ، النسخ ، المحقق ، الريحاني ، التواقيع ، الرقاع .وقد سمي الخط الذي كان يكتب به بالخط الياقوتي (صورة رقم ٢) . وسار على



صورة ـ ٢
صفحتان من دعاء الاسبوع بخط ياقوت المستعصمي

نهجه أكابر الخطاطين في مختلف الفترات منهم : عبدالله الصيرفي المتوفى بعد سنة ٧٤٤ هـ/١٣٤٣ م واحمد السهروردي المتوفى سنة ٧٢٠ هـ/١٣٢٠ م (صــورة ــ ٣) وعبدالله ارغــون الكاملي المتوفى سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م



صورة ــ ٣

صفحتان من القرآن الكريم بخط احمد السهروردي

ومبارك شــاه الســيوفي المتوفــى سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م واحمد شــاه المعــروف بزرين قلم وكــان من ابرز الخطاطين في بغداد في عهد الجلائريين لــه خطوط على المدرســة المرجانية وخــان مرجــان كتبها سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م . هــذا اضــافة الــى عــدد كبير مــن الوراقــين والنســاخ المجيدين في كتابة المخطوطات كابن عبدالدائم المقدسي المتوفى سنة ٦٦٨ هـ

١٢٦٩ م الذي كان يكتب في اليوم تسع كراريس او اكثر وابن الفوطي المؤرخ الذي كان يكتب بقلمه السريع الرائق الفائق اربعة كراريس وفاطمة بنت احمد ابن علي البغدادية التي كان خطها حسنا واخذت الخط عن والدها المتوفى سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م والحسن بن احمد الواسطي البغدادي الذي كتب وذهب مفاتيح الغيب للرازي ببغداد سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨ م ٠

لقد استقرت الخطوط في العراق واكتست حلة من الاتقان والابداع والجمال خصوصا في نهاية القرن السابع والقرن الثامن الهجريين واثرت على مدارس الخط في الاقاليم الاخرى كمصر والشام وتركيا وايران ٠ فعند دخول تيمورلنك الى بغداد سنة ٧٩٥ هـ/١٣٩٢ م نقل الكثير من اصحاب المهن والحرف منها الى ايران وممن نقلهم مجموعة من الخطاطين الذين كانوا في بلاط احمد الجلائري في بغداد منهم الامير بدر الدين محمد الذي اخذ الخط عن عبدالله الصيرفي ، فالحقه تيمورلنك به سنة ٧٨٨ هـ/١٣٨٦ م ٠ وقد برع هذا الخطاط بخط النستعليق واتقن خط الثلث والنسخ والمحقق والرقاع والريحاني والتواقيع الى جانب اجادته الخط الكوفي ٠ منهم عبدالقادر غيبي المراغي وهو خطاط ماهر عاش في ايام السلطان محمد الفاتح بن السلطان مراد قبل فتح القسطنطينية وانتهج طريقة ياقوت في الخط اضافة الى اتقانه فن الزخرفة والتذهيب وقد غنمه تيمورلنك وصار مرافقا لابنه ٠ منهم ايضا مير علي التبريزي الذي نشأ في بغداد واخذ الخط عن عبدالله الصيرفي وكان ضمن عصبة الخطاطين في بلاط احمد الجلائري وقد نقله تيمورلنك الى ايران فأسس مدرسة النستعليق وتوفى سنة ٩١٩ هـ/١٥١٣ م ٠ وهكذا فان اولئك الذين تعلموا الخط في بغداد وتتلمذوا على ايدي كبار الخطاطين اصبحوا اساتذة الخط في ايران وما جاورها من البلاد وأجادوا في خط النستعليق الذي انصرفوا اليه والذي اشتق من خطي النسخ والتعليق فخفف وسمي نستعليقا ٠ وقد سمي هذا الخط خطأ بالخط الفارسي ٠ في حين لا يوجد خط باسم الخط

الفارسي او التركي لان نسبة الخط الى المدن والاقوام قد اختفت نهائيا بعد القرن الثاني الهجري ولم يبق منها سوى الخط الكوفي نسبة للكوفة . علما ان اكثر من (٣٦) لغة في العالم تستعمل الحرف العربي والخط العربي ولـم يسم أي خط منها باسم اية امة . وقد اشتق من خط النستعليق خط الشكسته والذي يسمى احيانا (شكسته نستعليق).

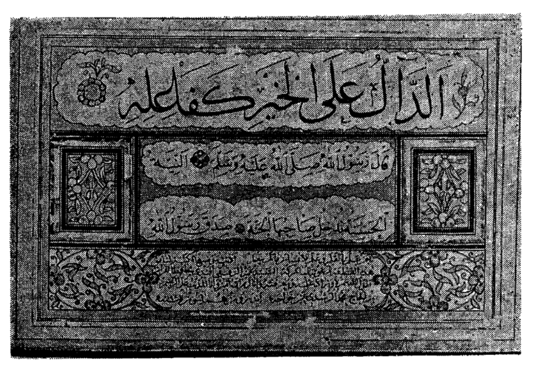
وعندما انتقل الخط العربي الذي جود في بغداد الى مصر والشام وكانتا دولة واحدة تأثرت مدرسة الخط فيهما بهذا الخط واخذته عن اساتذتـــه العراقيين الذين انتقلوا اليها بعد الغزو المغولي للعراق ، فاتقن وجود وظهر هنالك جملة من الخطاطين المبدعين الذين اتصل نسبهم في الاخـــذ بسلسلة عبدالله الصيرفي وياقوت المستعصمي . كابن الوحيد صاحب الخط الفائق الذي سافر الى العراق واجتمع بياقوت وتوفى سنة ٧١١ هـ / ١٣١٢ م وعماد الدين العفيف المتوفى سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م واخوه نورالدين العفيف اخذ عن والده عن ياقوت والنور محمد الوسيمي بغدادي الاصل اخذ عن عبدالله الصيرفي واشتهر بخطي الثلث والنسخ وتوفى سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م .

وأثرت مدرسة بغـــداد كذلك على الخطاطين الاتـــراك فقلدوا طريقـــة ياقوت واتصلوا في سلسلة اخذهم بعبدالله الصيرفي عن ياقوت ومن ابرزهم حمد الله بن الشيخ الذي ابدع في تقليد اوراق ياقوت وخطوطه والبس خطه كسوة جميلة وحسنا وقد اخذ حمد الله الخط عن عدد من الخطاطين منهم خير الدين المرعشـــي الذي يتصل بياقوت المستعصمي وتوفى سنة ٩٢٦هـ / ١٥٢٠ م . ومن مشاهير الخطاطين البغداديين الذين اخذ عنهم في الالف الهجري قطب الدين محمد اليزدي البغدادي الذي كان رئيس اساتذة الخط ويقال ان مصطفى كمال الدفتري الذي كان في بغداد سنة ٩٩٤هـ/١٥٨٥م تمكن من اخذ نماذج من الخطوط من بغداد لخطاطين عراقيين ونقلها الى بلاد الترك ويعزى انتشار خط التعليق في تركيا لهذا الخطاط،واشتهر كذلك الخطاط

الحافظ عثمان المتوفى سنة ١١١٠ هـ /١٦٩٨ م الذي اجاد في انواع الخطوط واشتهر المصحف الذي كتبه بخطه الجميل . ولم تنقطع مدرسة الخط في تركيا عن بغداد رغم اجادة الخطاطين الاتراك وابداعهم بل ظل اولئك الخطاطون ينعتون خط بعضهم اذا كان جيدا بانه خط ياقوتي .

واستمرت مدرسة بغداد في الخط بعد القرن الحادي عشر الهجري وظهر جملة من الاساتذة الخطاطين المبدعين الذين اخذ عنهم الخط منهم اسماعيل المكي وسفيان الوهبي ونعمان الذكائي ودرويش محمد الفيضي وعبد الوهاب نيازي وصالح بن يحيى السعدي الموصلي واسماعيل البغدادي النوري او الانوري وغيرهم ولابد من الاشارة هنا الى الظاهرة التي برزت في هذه الفترة في رسم الحرف العربي وكتابته على مرقعات ولوحات باحجام مختلفة وبادراج وكراسات وهي وان كانت موجودة سابقا الا انها شـاعت وانتشرت علـى نطاق واسـع بين الخطاطـين واصبحت فنا من الفنون الاسـلامية القائمة بذاتها كما برزت في هذه الحقبة ظاهرة كتابة الاجازات وتزويقها التي كانت تمنح للخطاطين شأنهم في ذلك شأن الذين كانـوا يتقنون العلوم والمعارف الاخرى ويجازون عليها ومن شروط الاجازة ان يتصل المجاز بالمجيز اتصالا مباشرا وضمن سلسلة الاخذ او ان يكتب نصوصا بأكثر من نوع من الخطوط تبرز قدرته وملكته في الخط فتمنح له الاجازة ، وقد اتخذت الاجازة اشكالا مميزة وكتبت بصيغ معينة فاصبحت عبارة عن رقعة خطية يكتب الخطاط المجاز سطرا بخط الثلث او المحقق وبقلم غليظ في اعلى الرقعة ثم يكتب اسطرا بخط النسخ الدقيق وتزين بعد ذلك الرقعة بحلة من الزخارف النباتية والازاهير البسيطة والمركبة والاغصان والزخارف الهندسية تستعمل في رسمها الالوان المختلفة التي تنسجم مع طبيعة الخط وحجم الرقعة اضافة للمداين الذهبي والفضي وفي اسفل الرقعة يترك شريط مستطيل او اكثر ابيض تحيط به زخارف ملونة ليتسنى للاستاذ او الاساتذة كتابـة الاجازة لصـاحب

الرقعة وعادة مايكتب نص المجيز بخط الاجازة وبنصوص ذات صيغ معينة منها : (اذنت بوضع الكتبة لنامق هذه القطعة المرغوبة المباركة اعني به ... وانا المذنب ... من تلاميذ ...) و (وقد كتب هذه القطعة المستحسنة ... فاجزت وضع لفظ الكتبة تحت كتابته باستحسان الخطاطين ...) و (اجزت بوضع الكتبة لنامق هـذه القطعة المرغوبة الميمونة المباركة اللطيفة الخـط لصاحبها السيد ... وانا المذنب ... من تلاميذ ...) . (صورة رقم ٤) .

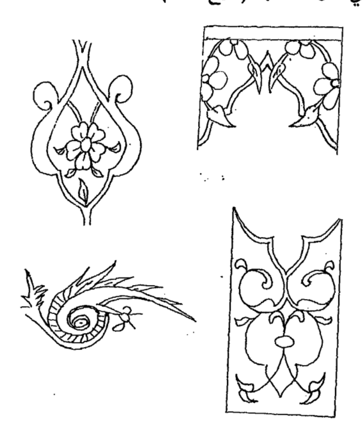


صورة ـ ٤

اجازة الخطاط عمر الدمشقي من المجيز علي الراسم كتبت سنة ١٢٥٧هـ

وهكذا . اما اتصال سلسلة الاخذ فلم تذكر الا نادرا وكان المجيز يقتصر على ذكر استاذه وقد رأينا بعض الاجازات منحت لخطاطين كتبوا رسائل

كاملة بخطوطـهم غاية في الجودة والاتقان دون ان يتقيدوا بالضوابـط او الشكليات التي ذكرناها سابقا (لوح ــ ١) ٠



لـوح ــ ١

نماذج من الزخارف التي زينت بها اجازات الخطاطين

★ ★ ★

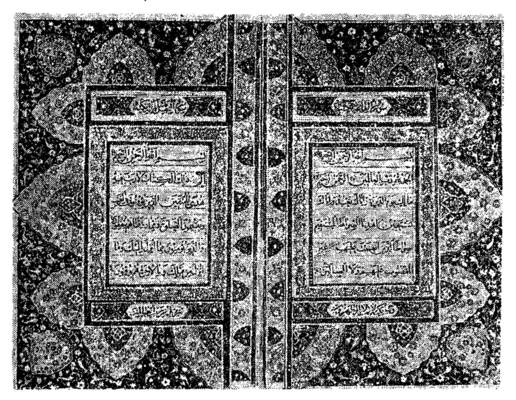
التذهيب والزخرفة

لقد اصبح تذهيب المخطوطات وزخرفتها في هـذه الحقبة فنا ملازما للمخطوط العربي وكانت الصفحات الاولى والاخيرة مجاله المعتاد الذي ركز عليه المزخرفون والمذهبون في اول الامر ٠ ثم امتد الى العناوين والفصول

الفرعية وبعض اجزاء من المخطوط وبما يضفي عليه حلة من الجمال • الا ان التذهيب لم يمتد الى الخط كما كان سابقا الا في نطاق ضيق محدود لا يتجاوز كتابة العناوين الرئيسة وفي احيان اخرى العناوين الداخلية •

ويمكن ان نلاحظ في هذه الفترة انواعا من اساليب الزخرفة والتذهيب تميزت بها بعض المخطوطات دون غيرها •

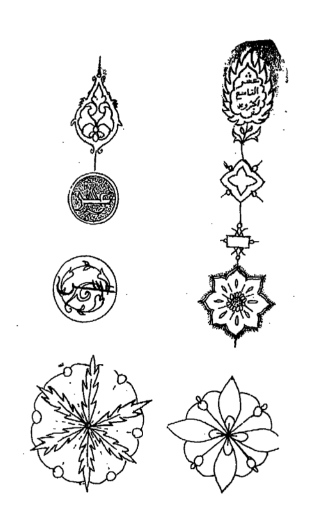
فالمصاحف الكريمة زخرفت وذهبت صفحاتها الاولى والثانية اي فواتحها على النحو الذي كانت عليه في العصر العباسي الا ان الفنان قد بالغ في هذه الحقبة في اتقان الزخرفة والتذهيب (صورة رقم ٥) وكررت الزخرفة



صورة ـ ٥

صفحتان من القرآن الكريم مزوقتان ترقيان الى القرن الحادي عشر الهجري

على صفحات في الوسط والآخر ، كما زخرفت الوقفات والاحزاب والاجزاء واسماء السور . (لوح ٢) وامتدت الزخرفة والتذهيب كذلك لتشـمل الفراغات بين السطور ، وعدة صفحات كاملة في اول وآخر المصاحف .



لـوح – ٢

نماذج من الزخارف التي حليت بها اسماء الاجزاء والاحزاب والوقفات

اما المخطوطات الاخرى فاستقرت اساليب الزخرفة والتذهيب لتشمل الصفحات الاولى او القسم العلوي من بداية المتن واوائل الابواب والفصول وفهارس الكتب التي تكون في اولها او آخرها . وكذلك بالنسبة للمخطوطات الخزائنية فقد افردت لها صفحة كاملة لكتابة العنوان واسم المهدى له واسم المؤلف وتحليتها بزخارف نباتية وهندسية ملونة وتكون النصوص الكتابية داخل مستطيلات للاعلى والاسفل ودائرة او نجمة في الوسط تكتب على ارضيات مزخرفة ومذهبة وحليت بعض المخطوطات المكتوبة في بغداد على وجه الخصوص بكتائب زخرفية تتضمن اشكالا هندسية مركبة يتوسطها المثمن البغدادي وتتخللها زخارف نباتية من الاغصان والاوراق والازهار (لوح ــ ٢) ومن امثلة ذلك الزخارف التي حليت بها نسخة كتاب مفاتيح الغيب للرازي التي كتبها وذهبها الحسن بن احمد الواسطي سنة ٦٩٨هـ ١٢٩٨ م (مخطوطة الاثار ٢٠٩٨٣) والمختار من شعر الصرصري التي كتبها علي بن عمر الشافعي سنة ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م التي زخرفت الصفحتان الاولى والثانية منها كما خصصت صفحة في اخرها زوقت بزخارف هندسية ونباتية تتضمن نجمة ثمانية متكونة من خطوط متقاطعة متصلة بها عناصر هندسية اخرى تتخللها زخارف نباتية ملونة وفي اعلى الصفحة كتب داخل مستطيل عنوان الكتاب وفي اسفلها مستطيل آخر كتب عليه اسم الشاعر . وقد استخدم الخط الكوفي المزخرف في تدوين هذه النصوص على ارضية زخرفية متقنة . (مخطوطة الآثار ٣٦٧) .

استمرت اساليب الزخرفة والتذهيب على المخطوطات وحددت اغلب الزخارف بخطوط رفيعة للتاكيد على الشكل والعنصر الزخرفي كما شاع استخدام الأطر الزخرفية التي تحيط بالمتون والتي كانت على شكل اشرطة نباتية متصلة تتخللها وريدات وازهار وسلاسل متصلة . ومنذ القرن الحادي

عشر الهجري (القرن السابع عشر الميلادي) كثر استخدام المداد الذهبي وبانواع متعددة كالذهبي المائل للخضرة او الحمرة او الصفرة . وطغى هذا المداد على الالوان الاخرى حتى نرى ان بعض المخطوطات تزخرف باغصان واوراق وازهار وتلون جميعها بالمداد الذهبي . او تملأ الفراغات بين سطور الكتابة وحواشي المخطوطات بوريدات واوراق وتلون بالمداد الذهبي وحده . او ينثر هذا المداد على اوراق المخطوط قبل الكتابة .. (صورة رقم ٦) .

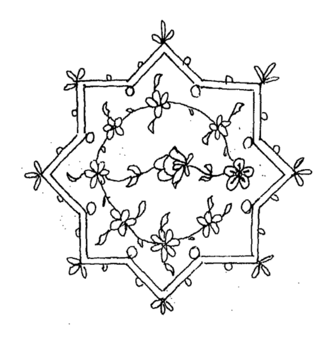


صورة ــ ٦
صفحة مزخرفة بمداد ذهبي

وشاع في هذه الحقبة تذهيب وزخرفة الكتب ذات الابعاد الروحية ككتب الصلوات والادعية والاذكار وذكر شمائل الرسول (ص) وأئمة المسلمين وما شابه ذلك . فقد نالت هذه المخطوطات اهتمام المذهب والمزخرف حتى ملئت هذه الكتب بزخارف مختلفة غاية في الجمال والابداع ومن ابرز تلك الكتب الكواكب الدرية في مدح خير البرية . والحرز الثمين من كلام سيد المرسلين والاربعين النبوية ودعاء الاسبوع والاذكار للنووي ودلائل الخيرات وشوارق الانوار في ذكر الصلاة على النبي المختار للجزولي حيث تميز هذا الكتاب بان جميع نسخه الخطية مذهبة ومزخرفة ورسمت فيها صورتا بيت الله الحرام والمسجد النبوي الشريف .

وعادة ماكان الناسخ او الخطاط يترك فراغا للمزخرف والمذهب ليضيف ما يريد من زخارف كما يفعل الناسخ والخطاط عندما يترك فراغا للمصور . الا اننا وجدنا ان بعض المذهبين يهيئون ورقا مذهبا ومزخرفا ويتركون فراغا للخطاط او الناسخ ليكتب ما يرغب في كتابته . وفي خزانة الاثار ببغداد نماذج لهذا الورق عرض في المتحف العراقي .

ولا يفوتنا ان نشير الى ما حظيت به الرقع واللوحات والادراج الخطية من فن الزخرفة والتذهيب حيث مارسه ياقوت المستعصمي في كتاباته . وكذلك عبدالله الصيرفي تلميذه وفي خزانة الاثار (مخطوط رقم ٤٦٦٠) بعض لوحات الاخير التي كتبها سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م وزينها بنجمة ثمانية الرؤوس حليت بعناصر نباتية وازهار ملونة ومذهبة (لوح رقم٣) وقد كررت هذه النجمة لتكون شريطا زخرفيا يحيط بلوحاته الخطية ومن اللوحات التي نالت عناية المذهبين والمزخرفين حلية الرسول (ص) وهو النص الذي وصف به الامام علي بن ابي طالب (رض) الرسول (ص) حيث اجاد الخطاطون في كتابتها واشتهرت باسم الحلية . وزينها المذهبون بابداعهم في الزخرفة والتذهيب .



لـوح ـ ٣

فيكتب وصف الرسول داخـــل دائرة وسطية او شكل بيضوي وفي اعلاها مستطيل تكتب به البسملة وبخط الثلث او المحقق وفي الاركان الاربعة للدائرة الوسطية تكتب اسماء الخلفاء الراشدين . وتملأ الحلية باشكال رائعة من الزخارف الملونة .

كما ذهبت وزخرفت اللوحات الخطية ذات الاحجام المختلفة والتي تحمل عبارات دينية كالآيات القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة او بعض الحكم والمواعظ وشهد القرن الحادي عشر الهجري وما بعده انتشار كتابة وزخرفة الادراج الخطية والكراريس واللوحات والمرقعات والاجازات التي زينت بزخارف هندسية ونباتية ملونة ومذهبة (لوح ـ ٤) .



لـوح ـ ٤

نماذج من الزخارف النباتية التي زينت بها المخطوطات

التصوير والتزويق

تميزت المدرسة العراقية في التصوير بأساليب فنية عبرت بدقة عن الواقع والاحداث رغم بساطتها واعتمادها على البعدين (الطول والعرض) . فعبر المصور عن المشهد دون ان يحجب قسما منه حيث نستطيع ان نرى كل مكونات الصورة قريبة كانت او بعيدة . ولم تتوقف المدرسة العراقية رغم سقوط بغداد على يد المغول بل استمرت كما هي الى القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) وما بعده واثرت على اساليب ومدارس فنية في اقاليم اخرى ولفترات متلاحقة .

وقد امتازت المدرسة العراقية كما كانت عليه بالمسحة العربية في وجوه الاشخاص ولحاهم السوداء وابراز الشخص المهم برسمه اكبر حجما من الاشخاص الآخرين والتعبير بالاعين واستعمال الاصابع للاشارة ورسم هالة على رؤوس بعض الاشخاص ورسم الثياب بشكلها الساذج البسيط او المزوق الكثير الطيات المذهب والمزخرف . وكذلك رسم الملابس الفضفاضة ذات الاردان الواسعة التي تحيط باطرافها اشرطة زخرفية او كتابية .

واستخدم المصورون في العراق الالوان البراقة المختلفة اضافة للمدادين الفضي والذهبي ، واستخدمت رسوم الحيوانات بكثرة وبصورة قريبة من الطبيعة اما الرسوم العمارية فاستعملت كذلك وبصيغ محورة ولكنها واقعية وتعكس العناصر المعمارية والزخرفية التي كانت سائدة انذاك في العراق ، ولم يستغن المزوقون عن الرسوم النباتية واستخدمت لاغراض زخرفية بالدرجة الاولى . استمرت هذه السمات كاسلوب متميز للمدرسة العراقية رغم كل الظروف التي مر بها العراق حتى القرن الثامن الهجري وتمثل مخطوطة (رسائل اخوان الصفا) المحفوظة في مكتبة جامع السلطان سليمان باسطنبول

برقم (٣٦٣٨) ضمن مجموعة اسعد افندي والتي نسخت في بغداد سنة ٦٨٦هـ ١٢٨٧ م الاسلوب البغدادي في مظاهره المتميزة فهي تضم صورتين تضمنت الاقواس المدنية (المقصوصة) والاشكال الزخرفية المتنوعة والستائر الملفوفة على الاعمدة واسلوب رصف مواد البناء والهالة البغدادية المدورة التي تحيط برؤوس الاشخاص المهمين الموجودين في الصورة والتي رسمت بمداد ذهبي واحيطت بخطوط سوداء ٠ وتمثل هذه الصورة خمسة من الباحثين ، ثلاثة منهم في الطابق الاسفل ويظهر انهم من الشيوخ والحكماء جالسين في نقاش وفي الطابق العلوي اثنان من التلاميذ او رجال من مراتب ادنى في المعرفة ، وخادمان واقفان على جانبي الحكماء الثلاثة وبسبب مكانتهم المتواضعة يظهرون اصغر حجما من الاخرين ، وتظهر لنا هذه الصورة النقاش والنشاط الفكري الحاد في الاشخاص الجالسين والهدوء في الاشخاص الذين ظهروا في الطابق العلوي ، وقد ابدع الفنان في اعطاء هذه الصفات من خلال هاتين الصورتين وكذلك نرى استمرار اساليب المدرسة العراقية على كتاب الحيوان للجاحظ الذي وصلنا بعض اجزائه ويتضمن مجموعة من التصاوير العراقية الاسلوب ويرقى الى نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجريين (١٣ ــ ١٤ ميلادي) وكذلك مخطوطة عجائب المخلوقات للقزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م التي كتبت في العراق نحو سنة ٧٧٢ هـ ــ ٧٨٢ هـ (١٣٧٠م ــ ١٣٨٠ م) والمعروضة في معرض فرير للفن في واشنطن والتي تعتبر نموذجا للمدرسة العراقية في تلك الحقبة من حيث الوانها القليلة المزوجة بمهارة ، والتركيز على الموضوع الرئيس واستبعاد اي شكل من اشكال الخلفية والمظهر الحيوي الذي يبدو فيه اسرافيل رئيس الملائكة وهو يخطو الى امام (صورة رقم ٧) ٠



صورة ــ ٧
صورة من مخطوطة عجائب المخلوقات للقزويني التي كتبت
في العراق نحو ٧٧٢–٧٨٧ هـ (١٣٧٠–١٣٨٠ م)

ومع هذه الميزات العراقية التي استمرت على التصاوير في تلك الفترة ، فقد ظهرت عليها كذلك السحنة المغولية علــى وجــوه الاشخاص بصورة عامــة .

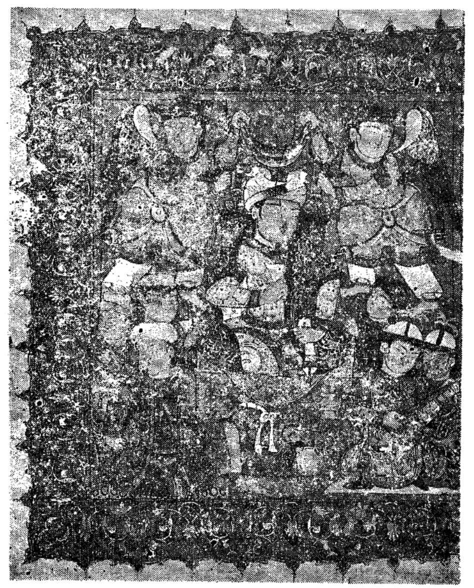
ان المغول رغم وحشيتهم وجهلهم وموقفهم اللاانساني من المؤسسات الحضارية والثقافية العربية الاسلامية عندما احتلوا العراق واجزاء هامة من

الوطن العربي والعالم الاسلامي رغم كل ذلك فان بعضهم اسرته اشراقة الحضارة العربية الاسلامية وقوة شخصيتها الفكرية فاعتنق الاسلام بل ان بعضهم حاول التشبه بالخلفاء المسلمين في العناية بالكتاب والمزوقين الذين بذلوا مجهودا كبيرا في توضيح كتب الادب والتأريخ والعلوم الاخرى بمنمنمات جميلة عبرت عن استمرارية الاسلوب العراقي وعطائه الحضاري في هـذا المجال ، ومما لا شك فيه ان المزوقين العراقيين عرفوا اساليب التزويق وفنونه فجاء نتاجهم استمراراً للمدرسة العراقية مع اخذهم بالتأثيرات الجديدة التي جاءت مـع المغول ومن جاء بعدهم والتي تتناسب مع اذواقهم . لذلك نرى ان اساليب المدرسة العراقية بعد القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) قد امتزجت بصفة عامة باساليب المدارس الاجنبية واثرت فيهـا فظهرت المناظر الطبيعية التي لم يكن لها مكان كبير في رسوم المدرسة العراقية سابقا ، كما دخلت عناصر اجنبية كالسحب الصينية (شي) والتنين والحيوانات الخرافية والسحن المغولية والكتابة على وجوه الاشخاص وتنوع اغطية الرأس واشكال خوذ المحاربين ومجالس الصيد . وقد ظهرت هـذه التأثيرات في تصاويـر كتب الادب والتاريخ والعلوم . كالشاهنامة للفردوسي ومنافع الحيوان وكليلة ودمنة وجامع التواريخ لرشيد الدين والاثار الباقية عن القرون الخالية لابي الريحان البيروني وغيرها .

لقد عاشت المدرسة العراقية في مصر والشام وامتدت تأثيراتها الى بلاد المغرب العربي والى مدارس التصوير في ايران والاقاليم المجاورة ومهدت لقيام مدارس تصوير اسلامية عديدة .

ومن نماذج تأثيرات المدرسة العراقية في مصر والشام مخطوطة رسالة دعوة الاطباء للمختار بن الحسن بن بطلان المتوفى سنة ٤٥٨ هـ/١٠٦٦ م التي نسخت سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م وتتضمن احدى عشرة صورة . والتصويرة المحفوظة في مكتبة جستربتي المرسومة على ورقة واحدة من كتاب (دمعة الباكي) لابن

فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م وقد كتبت سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٥م بدمشق • ونسخة ڤينا من مقامات الحريري التي كتبت سنة ٧٣٤ هـ /١٣٣٤م (صورة رقم ٨) والنسخة الثانية من مقامات الحريري التي كتبت سنة



صورة ـ ٨
صورة من نسخة مقامات الحريري التي كتبت
سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م)

٧٣٨هـ/١٣٣٧م الموجودة في مكتبة بودليان باكسفورد (صورة رقم ٩) .



صورة ــ ٩
صورة من نسخة مقامات الحريري التي كتبت سنة ٧٣٨ هـ
(١٣٣٧ م) محفوظة في مكتبة بودليان باكسفورد

ان ما يلاحظ على هذه المصورات هو ان المدرسة العراقية اثرت على اسلوب المدرسة المملوكية في مصر والشام الذي اصبح يتمشى مع اسلوب المدرسة العراقية في استخدام البعدين وعدم العناية بدقة النسب الطبيعية لابراز الحقيقة الفكرية كما زادت رسوم الاشخاص جمودا وكذلك رسوم الحيوانات وقلة رسوم النباتات والعمائر وظهور السحن المغولية على

الوجوه • واثرت المدرسة العراقية كذلك على المدرسة الايلخانية في ايران ويتمثل ذلك على منمنمات مخطوطة (الاثار الباقية عـن القرون الخالية) للبيروني المتوفى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م المحفوظة في ادنبرة برقم ١٦١ والتي نسخت سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م فمعظم صور الاشخاص وخطوط الارضيات وطيات الملابس والبيئة الداخلية اغلبها تقليد للمدرسة العراقية مع ظهور سحنة مغولية على الوجوه واستخدام عناصر صينية في المناظر البرية ورسم السحب (شي) •

واثرت المدرسة العراقية كذلك على المدرسة التيمورية التي وصل فيها فن التصوير الى اوجه خصوصا في زمن شاه رخ بن تميورلنك واحفاده ومن المصورين الذين اشتهروا واجادوا غياث الدين خليل وكمال الدين بهزاد الذي وقع اعماله بامضاءاته •

اما المدرسة الهندية في التصوير فانها مـع تأثرها بالمدرسـة العراقية وحذوها اسلوب بهزاد الا انها تميزت بخصائص اثرت على المدارس الاخرى • حيث زاد فيها الاهتمام بالحيز واظهار البعد الثالث واستعمال الالوان الداكنة، ورسم الصور الشخصية واتقان رسم اليدين والملابس وزخرفتهـا والعناية برسم المناظر الطبيعية والحيوانات والطيور •

ان تأثيرات المدرسة العراقية على اساليب مدارس التصوير في الاقاليم وفي فترات مختلفة وتأثرها بمدارس اخرى خلق نوعا من التمازج في الرسم يصعب معه وضع حدود اكيدة لتخصص اقليم باسلوب معين دون غيره •

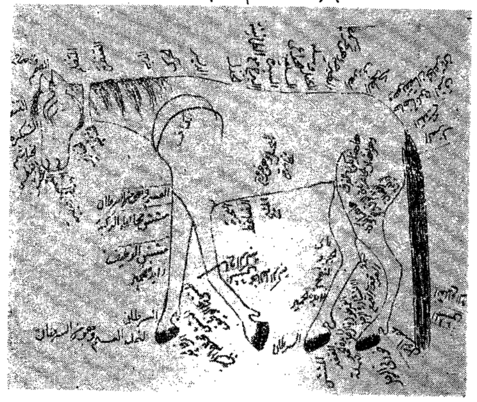
ولم يقتصر توضيح المخطوطات بالتصاوير فقط بل امتد التزويق الـى توضيح مخطوطات اخرى برسوم جغرافية وتخطيطات هندسية ومعمارية ومن ذلك رسم صورة الارض بالالوان على اغلب نسخ كتاب (خريدة العجائب وفريـدة الغرائب) لابـن الوردي المتوفـى سـنة ٧٤٩ هـ / ١٣٢٨ م

ورسم منطقـــة البحيرات والانهار في كتـــاب (حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة) للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ/١٥٠٥ م وتخطيط صومعة التلوي في كتاب (تذكرة الاحباب في مناقب قطب الاقطاب) الذي كتب سنة ١١٨٧هـ ١٧٧٣ م (مخطوطة الاثار ٢٢٣٠) .

كما ان معظم النسخ الخطية لكتاب (دلائل الخيرات وشوارق الانوار في ذكر الصلاة على النبي المختار) للجزولي المتوفى ٨٧٠ هـ/١٤٦٥ م زينت بصور تخطيطية ملونة ومذهبة لمكة المكرمة ويظهر فيها بيت الله الحرام والكعبة المشرفة والابواب والاروقة والقباب وتبدو الجبال والبيوت المحيطة بها في اغلب الصور . وصورة أخرى للمدينة المنورة والمسجد النبـوي الشريف وقبور الصحابة الكرام كما تضمنت بعض النسخ صورا لمراقد الائمة الكرام وقد تفنن المزوقون في مختلف الاقاليم والمدارس الفنية في رسم وتزويـق وتلوين وتذهيب نسخ هذا الكتاب . وظهر على بعضهـا تأثيرات المدارس الاوربية والهندية بشكل واضح . ولو درست نسخ هذا الكتاب التي تعد بالعشرات لامكن الكشف عن جوانب مهمة من اساليب التزويق في المدارس المختلفة ومنها المدرسة العراقية على وجه الخصوص منذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) .

ويلاحظ كذلك ان بعض المخطوطات الادبية والعلمية التي كتبت في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وما بعده قد ازدانت بالصور الملونة منها كتاب المطول في البلاغة للتفتازاني المتوفى سنة ٧٩١ هـ /١٣٧٩ م وفي خزانة الاثار نسختان مزوقتان منه الاولم كتبت سنة ٩٥٠ هـ/١٥٤٣ م (رقمها ٩١١٦) والثانية ترقى للقرن الحادي عشر الهجري (القرن السابع عشر الميلادي ــ رقمها ٧٤٦١) وكتاب البيطرة الرومية في امراض الخيل ليعقوب بن اسحق الخطابي التي رسمت فيها اكثر من صورة للفرس احدهما ملونة وفي

خزانة الاثار نسخة من الكتاب كتبها احمد بن محمود سنة ١٠٢١ هـ/١٦١٢ م (مخطوطة الاثار ١٣٤) (صورة رقم ١٠) .

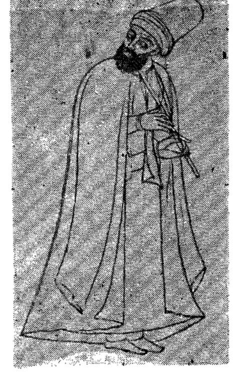


صورة ــ ١٠

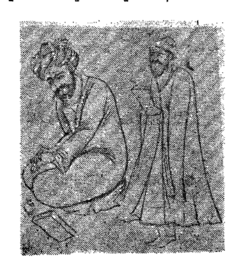
صورة الفرس من نسخة كتاب البيطرة الرومية المحفوظة
في خزانة الآثار المؤرخة سنة ١٠٢١ هـ (١٦١٢ م)

ويمكن لنا قبل ان نأتي على آخر هذا المبحث من ان نتعرف على رسام بغدادي عاش في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) هو نيازى مولوي البغدادي الذي ترك لنا هو وتلميذه عبدالوهاب نيازي نماذج رائعة من التخطيطات والصور التي تظهر الدقة الفائقة في الرسوم التخطيطية والملونة ومن ذلك تخطيط لدرويش باكمام طويلة يعزف بالناي وتخطيط لشخص يركب حمارا والى جانبه بعير عليه حمولة وشخص جالس وامامه دواة

وكتاب وخلفه شخص واقف يحمل كتابا . (صورة رقم ١١) (مجموعة الآثار رقم ٤٦٦٢) .



صورة ــ ١١
نماذج من رسوم نيازي مولوي البغدادي



صورة ــ ١١

التجليد

صناعة تجليد الكتب من صنائع الفنون الجميلة التي لازمت المخطوط العربي منذ نشأته ويعتبر عمل المجلد مكملا لعمل الخطاط والمزوق والمذهب حيث كان لكل منهم اسهام في اخراج الكتاب العربي المخطوط .

وقد كانت صناعة التجليد في بادي الامر سهلة بسيطة غايتها الرئيسة حماية المخطوط وحفظ اوراقه من عوامل التلف والضياع ، واستعملت في صناعتها الواح الخشب والشرائح الجلدية للصق الكعبين او تغليف الـواح الخشب . ثم شاع استعمال الاغلفة وبدأ التفنن في صنعها وزخرفتها وتحليتها بالالوان المختلفة حتى اصبحت صنعة وفناً قائماً بذاته وبصرف النظر عـن مضمون الكتاب نفســه .

وشهدت هذه الصناعة نوعا من التطور في القرن الثامن الهجـري ومابعده وازدهرت في مناطق مختلفة ، وظهرت التحسينات في صنعة دفتي الغلاف واللسان واسلوب حياكة الكعب كما تعددت الزخارف والالـوان التي حليت بها وقد وصلتنا آلاف النماذج من الاغلفة التي تعد من روائع الفن الاسلامي في هذا الميدان . الا ان الذي يلاحظ هو ان أغلب الاغلفة لم يشر فيها الى اماكن صناعتها وعادة ما تحدد وفق اجتهادات الباحثـين وتمييز زخارفها واساليب صنعتها وينسحب ذلك على تأريخ صنعتها فبعض المخطوطات تحمل تأريخ نسخها ولكن الغلاف ربما يكون اقدم من ذلك التأريخ او احدث منه وفي قسم المخطوطات بمؤسسة الآثار ببغداد مخطوط كتب سنة ١١٠٢ هـ /١٦٩٠ م في حين ان تاريخ صنع الغلاف هو ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧ م وقد كرر هذا التاريـخ على الدلايات الاربـع في كـلا الدفتين (مخطوطة الآثار رقم ٣٧٧٨) وتوجد نماذج لاغلفة قديمة استخدمت في تجليد مخطوطات حديثة والعكس صحيح .

كما ان الحقيقة التي لا يمكن اغفالها هي ان فن التجليد مع تميزه بخصائص معينة في كل اقليم او منطقة سواء بصنعته او زخرفته او تذهيبه الا ان هذه الخصائص لم تقف عند حدود جغرافية واقليمية معينة بل نراها سرعان ما تؤثر او تتأثر بمناطق مختلفة فما نجده من فنون التجليد في المغرب العربي نجد ما يشابهه في المشرق • وما نجده في مصر والشام نجده في العراق ومانجده في العراق نجده في تركيا وايران وما تأثرت به الاخيرتان خصوصا الفن الهندي والصيني كاستعمال الالوان الداكنة والتنين والحيوانات الخرافية والسحب الصينية والمناظر الطبيعية تأثرت به مدارس بغداد والشام ومصر • وهكذا لا يمكن ان نحدد بالضبط وبصورة دقيقة ان ذلك الاسلوب او هذه الصفة او تلك الميزة تخص العراق دون تركيا او تخص القاهرة دون بغداد او تخص فاس دون البصرة • وهذا لا يعني عدم وجود خصوصيات فنية لكل بلد او منطقة كما ذكرنا •

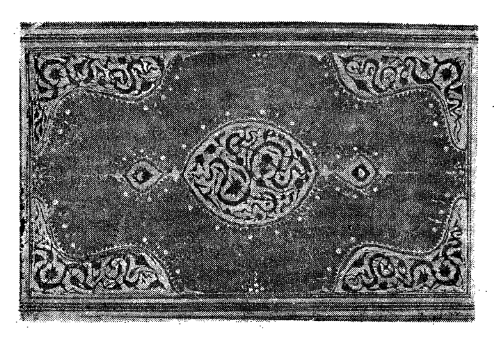
ان اغلب الاغلفة ان لم نقل جميعها تتميز بانها تتكون من دفتين ولسان وكعب ، وكل دفة عادة ما تزين بمتن واطار ، والمتن يتكون من السرة التي تكون على شكل بيضوي او بيضوي مفصص او دائري او دائري مفصص او معيني ، ودلايات عليا وسفلى متصلة او منفصلة عن السرة • واجزاء من السرة في اركان المتن الاربعة او اشكال زخرفية اخرى تتناسب مع الزخارف الموجودة على السرة واطار يحيط بالمتن يتكون من زخارف نباتية كالاغصان والوريدات والازهار او حبل مضفور او سلسلة متصلة ، وكذلك اللسان تتخذ فيه سرة صغيرة او جزء من سرة او شكل زخرفي مناسب • وتزين هذه الاشكال الزخرفية بالالوان المختلفة • هذه الشكليات في صناعة الاغلفة تكاد تكون مشتركة في مختلف المناطق •

ولاعطاء صورة واضحة عن شكل الاغلفة العراقية وزخارفها رأيت

ان اورد بعض النماذج منها والمحفوظة في قسم المخطوطات بمؤسسة الاثار والتراث وهي :

النموذج الاول ـ غلاف مخطوط النجم الوهاج في شرح المنهاج لكمال الدين الدميري كتبه محمد بن علي سنة ٨٨٩ هـ /١٤٠٥ م رقمه ٢٥١٣ . قوام زخارفه سرة دائرية قطرها (٨) سم تتوسط متن الغلاف يتكون محيطها من ثلاثة خطوط متراصفة تحيط بنجمة ذات عشرة رؤوس متكونة من تقاطع حزمة من الخطوط المستقيمة المؤلفة من ثلاثة خطوط ويقاطع اضلاع النجمة شكل هندسي يتألف من عشرة اضلاع فوق كل ضلع ثلاث دوائر في وسط كل منها ثقب . وفي وسط السرة دائرة نجمية تحيط بها مجموعة من الازهار وتتدلى من السرة دلايتان كل واحدة منها تتألف من سبع زهرات واحدة في الوسط والبقية تحيط بها وفي اركان المتن الاربعة مثلثات ملئت باقواس متراكبة تتوسطها ثقوب . اما الاطار فقد ازدان بعدد من الخطوط المتوازية تحيط بالمتن وشريطين زخرفيين احدهما عبارة عن سلسلة من الخطوط المتقاطعة والآخر يتضمن زخارف نباتية وهي عبارة عن مراوح نخيلية مغلوقة وعروق وخطوط منحنية مترابطة مع بعضها . اما اللسان فازدان بزخارف هندسية ونباتية . ان جميع زخارف هذا الغلاف ناتئة مما يدل انها احدثت بالطرق او بالضغط . كما ظهرت على الزخارف ثقوب عديدة لتجميلها ويظهر انها كانت ملونة ومذهبة . اما باطن الغلاف فقد صنع من جلد بني فاتح ازدان ببعض الزخارف النباتية والاغصان التي تكررت على جميع اجزائه وبلون بني غامق .

والنموذج الثاني غلاف مخطوط (شرح القدوري لاحمد بن محمد البغدادي) يرقى للقرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) رقمه (٥٥٢) (صورة رقم ١٢) صنع من الورق المقوى مغلف بجلدة ذات لون

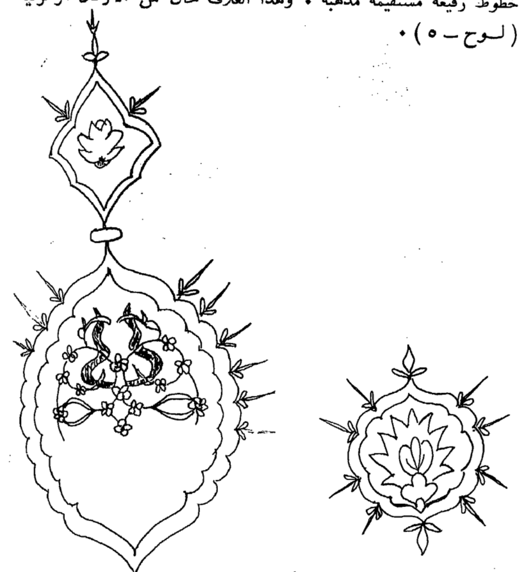


صورة ــ ١٢
علاف مخطوطة (شرح القدوري) المحفوظة في خزانة
الآثار ــ القرن ١١ الهجري (١٧ الميلادي)

بني فاتح ، تتوسط المتن سرة مفصصة تتدلى منها دلايتان وفي اركان المتن استخدمت ارباع زخرفية مقرنصة ويحيط بالمتن شريطان مستقيمان مذهبان تتخللهما خطوط ذهبية مائلة واستخدمت في تزيين هــذه الاشكال زخارف نباتية محورة عبارة عن اغصان وعروق وازهار لونت بالمداد البني علــى ارضية مذهبة وقد الصقت جميع هذه الزخارف المذهبة واستعمل في لصقها الضغط وبرزت الزخارف بشكل ناتيء عدا الشريط الذهبي المحيط بالمتــن حيث رسم بالمداد الذهبي المائي .

النموذج الثالث : غــلاف مخطــوط (الشقائق النعمانية في علمــاء الدولــة العثمانيــة) الــذي كتبــه عبداللــه تلمعــي بــدار الخلافــــة بغداد في اواخر رمضان سنة ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م (مخطوط الاثار ٦٣١٠)

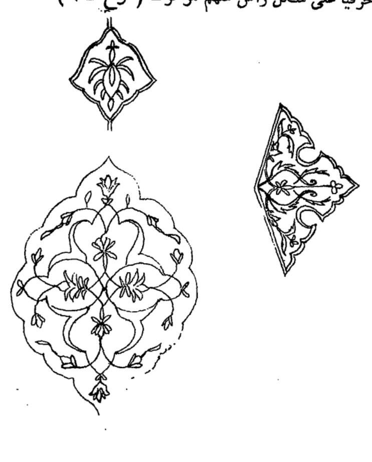
لون الغلاف بني غامق تتوسطه سرة ذهبية تتضمن زخارف نباتية ناتئة رسمت بالمداد الاحمر وتتدلى من السرة دلايتان مزخرفتان ورسمت على اللسان دائرة زخرفية مذهبة رسمت داخلها وردة بالمداد الاحمر • وتحيط باجزاء الغلاف خطوط رفيعة مستقيمة مذهبة • وهذا الغلاف خال من الاركان الزخرفية (لـوح ــ ٥) •

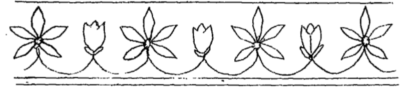


لـوح ــ ٥

العناصر الزخرفية التي حلي بها غلاف مخطوطة الشقائق النعمانية التي كتبت ببغداد سنة ١٠١٨ هـ (١٦٠٩ م)

النموذج الرابع ـ غلاف مخطوطة (بهجة الاسرار ومعدن الانـوار في مناقب الشيخ عبدالقادر الكيلاني) التي كتبها علي بن يوسف الشافعي سنة ١١٣٥هـ /١٧٢٢ م ورقمها ٧٤٦٦ الذي تضمن سرة مفصصة مذهبـة ودلايتين واربعة اركان زخرفية وشريطا زخرفيا نباتيا يحيط بالمتن ولسـانا تضمن شكلا زخرفيا على شكل رأس سهم مزخرف (لوح ـ ٦) ٠





لـوح ـ ٦
العناصر الزخرفية التي حلي بهـا غلاف مخطوطة
بهجة الاسرار التي كتبت سنة ١١٣٥ هـ (١٧٢٢ م)

تتألف اغلب الاغلفة كما ذكرنا سابقا من الدفتين واللسان والكعب والرابط وكانت هذه الاجزاء تصنع من الجلد الثخين او من الورق المقوى الذي يكسى بالجلد او من الخشب المصنع المكسو بالجلد وبالشكل الذي يحافظ على المخطوط ، وبعض الاغلفة كانت تصنع من المعادن او تكسى وتطعم بمعادن ثمينة ، وكانت تلك الاغلفة تصنع للخلفاء والسلاطين وذوي الشأن من علية القوم وهي محدودة وفي المتحف العراقي دفة من هذا النوع معروضة في القاعة الاسلامية ، ولكن الذي شاع استعماله واصبح من الفنون التي لازمت الكتاب هو الغلاف الذي كان يصنع من الورق المقوى، وكانت اساليب صنعه متشابهة وقد وصف لنا احمد بن محمد السفياني في كتابه الموسوم صناعة تسفير الكتب وحل الذهب الذي وضعه سنة ١٠٢٩ هـ طريقة صناعة الاغلفة ، بعد ان قال في ديباجة الكتاب مانصه : (فلما لم نجد لتعليم الصناعة اهلا في زماننا هذا وهو عام تسع وعشرين والف رأيت ان اقيدها في هذه الاوراق لعلني اذا ادركتني المنية يقع خطي في حجر من يتعلم الصناعة ويدعو لنا بالرحمة ورسمتها احتسابا لله سبحانه انه لا يضيع اجر من احسن عملا) . وملخص ماذكره في كتابه هو :

ان نأخذ الكاغد ونلصق كل صفحتين منه على بعضها بعد طلائهـا بالنشاء وتدلك بالكف حتى تمـد وتبسط ولكي لا يظهر فيها انكماشـ ولا رخو ، ثم تؤخذ ورقتان اخريان وتلصقان بنفس الطريقة وهكذا حتى تتجمع عدة اوراق ملصوقة اثنين اثنين ، ثم تترك حتى تجف وتؤخذ مـن هذه الاوراق الملصوقة وتلصق على بعضها بالنشاء الى ان يستكمل الورق الذي يراد لصقه ليعطي الثخن المطلوب ، ثم توضع ورقة يابسة على الورقة الاخيرة الملصوقة وتدلك الورقة اليابسة دلكا عنيفا بلوحة غليضة حتى يخرج النشاء الزائد بين الاوراق الملتصقة . ثم تعمل الدفة الاخرى بنفس الطريقة. وتوضع الدفوف المعمولة بين لوحين من الخشب الصقيل لغرض ضغطهـا

بالمكبس بعد وضع ورقة يابسة بين كل دفة واخرى يزيد قياسها على قياس الدفة ، وتترك الدفوف بالمكبس نحو (٢٤) ساعة ثم تنشر في مواضع مفتوحة بعيدا عن الشمس حتى تجف وبذلك يتم الحصول على الدفوف الجيدة المتناسقة • بعد ذلك يؤخذ قدر نصف دفة الكتاب لعمل اللسان وعادة ما كان يجعل ثلثان منه على شكل مستطيل والثلث الثالث من الجهة السائبة يكون على شكل مثلث رأسه يتوسط مركز الدفة وعادة ما يربط اللسان بالدفة اليسرى وبين اللسان والدفة مستطيل من نفس مادة الدفة وبعرض حافة الكتاب • وقد سمي بالرابط •

وبعد ذلك يغلف الكتاب بالجلد المدبوغ الجيد ويلصق بالنشاء ويدلك حتى يبسط ولا يبقى فيه انكماش او رخو • وقد لاحظنا وجود فواصل جلدية بين الدفتين واللسان والرابط تساعد على حركة اجزاء الغلاف •

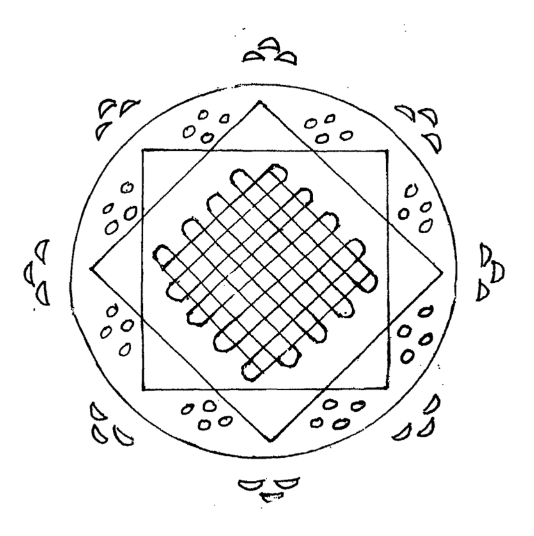
وكانت السرة تثبت على الدفة بعد ان يقطع الجلد الملصق على الغلاف بقدر حجم وشكل السرة ، وتنزل السرة في مكان القطع وتلصق بالنشاء ثم يضرب على السرة بمطرقة صغيرة ضربا بسيطا حتى يخرج النشاء الزائد وينتفخ الجلد من اطرافه ، وكذلك يعمل في الدلايات والاركان الاربعة والاشكال الزخرفية التي تزين اللسان والرابط • واستخدمت الى جانب ذلك طرق واساليب اخرى في تزيين الاغلفة ، وهي اللصق والضغط والحرق والطرق والختم اضافة الى الرسم الاعتيادي على الاغلفة بالالوان والمداد الذهبي سواء كانت الاشكال الزخرفية على هيئة سرة او دلايات او اشكال زخرفية اخرى • وبعض الاغلفة تلصق الزخارف عليها لصقا وتكون الوان جلود الزخارف مخالفة لالوان جلود الاغلفة الاصلية • واستخدمت في هذه الفترة كذلك صفائح رقيقة من الذهب والفضة لرسم الزخارف وتقطيعها ولصقها على الجلود بقوالب ساخنة او تخريم الجلود والاوراق الملونة

والمذهبة باشكال زخرفية مناسبة ومتناسقة وتلصق على الاغلفة على ارضيات ملونة ، واستخدم هذا الاسلوب كذلك في تزيين بواطن الاغلفة ، مع ان بعض الاغلفة تصنع بواطنها من الاقمشة وفي الحقب المتأخرة الصقت اوراق على باطن الدفتين لتقوية ربط الغلاف على المخطوط . وكانت هذه الاوراق تلون وتذهب .

وقد شاع ايضا استعمال الجلود المدبوغة السميكة في تغليف بعض المخطوطات وكان يقتصر في تزيينها بالخطوط المستقيمة المذهبة المتقاطعة او ان تزين بسرة تظهر بالطرق تكون ناتئة او غائرة ثم تذهب او تبقى بدون تذهيب ، ويؤطر المتن بشريط زخرفي بسيط ، ومثال ذلك غلاف مخطوطة القصائد الجليليات التي كتبت سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م (مخطوطة الاثار ٢٢١٤٢) . صنع الغلاف من جلد مدبوغ خال من اللسان والرابط تتوسطه سرة بيضوية الشكل مفصصة مدببة من الاعلى والاسفل تحليها زخارف نباتية مكونة من اغصان واوراق وازهار تتجمع نهاياتها في وسط السرة لتتصل بزهرة ذات ثماني ورقات . ويحيط بالسرة شريط ذهبي تحيط به من الخارج ثماني عشرة زهرة مذهبة في كل جانب ، وتتصل ببعض هذه الزهرات خطوط مذهبة تتجه للخارج . وفي الطرفين الاعلى والاسفل من السرة ثلاث زهرات مذهبة وزهرة اخرى تتوسط المسافة بين الطرفين وحافة الغلاف . وقد ظهرت كذلك ثلاث زهرات في وسط الاضلاع الاربعة للشريط الذهبي الذي يحيط بالمتن وجميع هذه الاشكال الزخرفية احدثت بالطرق ثم ذهبت .

وهناك اغلفة اخرى اقتصر تزيينها على شريط رفيع يؤطر المتن ويكون في

حافة الدفة وسرة مزخرفة خالية من الالوان كما في غلاف مخطوطة كشف المقال في معرفة الرجال (مخطوطة الاثار ١٤٣٧٨) التي كتبت سنة ٩٥٢ هـ/ ١٥٤٥ م (لوح رقم ــ ٧) .



لوح ــ ٧

ومن اساليب تزيين الاغلفة ملؤها بالازهار والاغصان والاوراق والوريدات وصور الاشخاص والمناظر الطبيعية ورسمها بالالوان المختلفة وطلاؤها باللاك وهي مادة صمغية شفافة شبيهة بالورنيش لتمنع تلف الزخارف والالوان وتطلى بها جميع اجزاء الغلاف وفي قسم المخطوطات في مؤسسة الاثار نماذج عديدة لمثل هذه الاغلفة منها غلاف رسمه وذهبه في بغداد نيازي مولوي يحتوي على لسان ورابط موضوع داخل محفظة جلدية •
ولم تكن الاغلفة خالية من الكتابة حيث ازدان بعضها باشرطة كتابية دونت على الشريط المحيط بالمتن او على السرة او الدلايات وتتضمن الكتابة آيات قرآنية او ادعية وتحمل بعض الاغلفة اسم الصانع وسنة الصنع •

ولابد لي قبل ان اختم موضوع التجليد من الاشارة الى الحافظة التي تعتبر غلافا ثانيا لحفظ المخطوط حيث كانت بعض المخطوطات توضع داخل حافظات ، والحافظة على هيئة صندوق يتناسب حجمه مع حجم المخطوط وعادة ما تصنع من الورق المقوى لها رابط ولسان يغطي حافة المخطوط من الجهة المفتوحة من الحافظة • وتصنع الحافظة بنفس طريقة صناعة الاغلفة التي مرّ ذكرها وتزين بعض الحافظات بزخارف غالبا ما تكون على شكل اشرطة زخرفية او خطوط رفيعة مذهبة تؤطر اوجه الحافظة واللسان والرابط ، وبعض الحافظات رسمت على وجهيها سرة مذهبة ومزخرفة وكذلك يزخرف الرابط بالزخارف الملونة ويكتب عليه عنوان الكتاب واسم المؤلف (انظر مخطوطات الآثار ذات الارقام ٥٦٢ ، ٥٨٦ ، ٦٠٣) •

وللحافظة شريط من النسيج المتين يصنع من الكتان او الحرير او

القطن في رأسه مثلث من الجلد ، يبلغ طول هذا الشريط ضعف طول الحافظة ويثبت باحكام في منتصف باطن الوجه الذي يتصل به اللسان ، ويستعمل هذا الشريط لاخراج المخطوط من داخل المحفظة ، حيث يكون الشريط تحت الكتاب ، وطرفه خارج الحافظة بحيث يمكن اخراج الكتاب بسهولة ومن مجرد سحب الشريط .

وبعض الحافظات تصنع من الجلد او النسيج او القماش المطرز والمطعم بالخرز الملونة (النمنم) وفي بعض الاحيان يكون موضع اللسان عند غلقه على الوجه الخارجي وفي طرفه المدبب زائدة جلدية او نسيجية تدخل في حلقة مثبتة على وجه الحافظة تستخدم لاغلاق الحافظة على المخطوط ، وقد استخدمت في الحقب المتأخرة (ابزيمات) معدنية لغلق الحافظات .

المصادر والمراجع

ـــ ادوات ومواد الكتابة في العصر العباسي . نضـــال عبدالعالي رســـالة ماجستير ، جامعة بغداد ١٩٨٢ .

ـــ اصالة الحضارة العربية الاسلامية . د. ناجي معروف ، بغداد ١٩٦٩ .

ـــ اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية . زكي محمد حسن ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٦ .

ـــ انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم العربـي . لعبدالفتاح عبادة ، مصر ١٩١٥ .

ـــ بدائع الخـــط العربي . ناجي زين‌الدين المصرف . وزارة الاعـلام ، بغـداد ١٩٧٢ .

ـــ بدائع المخطوطات القرآنية . مجلة آفاق عربية العدد الاول لسنة ١٩٨٢ .

ـــ تاريخ الخط العربي وادابه . محمد طاهر الكردي . مصر ١٩٣٩ .

ـــ تاريخ الكتاب من اقدم العصور الى الوقت الحاضر . سفنداك ، ترجمة محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٨ .

ـــ التوفيقات الالهامية ، محمد مختار باشا ، مصر ١٣١١ هـ .

ـــ الجوانب الفنية في اخراج المخطوط العربي . د. جابر الشكري ، مجلة المجمع العلمي العراقي الجزء ٢ــ٣ المجلد ٣٣ .

ـــ خصائص الخط العربي . وليد الاعظمي . مجلة المجمع العراقي الجزء ٢ المجلد ٣١ السنة ١٩٨٠ .

ـــ الخط العربي في ايران . عباس العزاوي . مجلة سومر المجلد ٢٥ لسنة ١٩٦٩ م .

ـــ الخط العربي في تركيا . عباس العزاوي . مجلة سومر . المجلد ٣٢ . لســـنة ١٩٧٦ .

— خطاطو جامع مرجان . عباس العزاوي . مجلة سومر . المجلد ٣ لسنة ١٩٤٧ م .

— صبح الاعشى في صناعة الانشا . لاحمد بن علي القلقشندي ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر .

— صناعة تسفير الكتب وحل الذهب . لاحمد بن محمد السفياني ، باريس ١٩٢٥ .

— علم المخطوطات . د. حسين علي محفوظ مجلة المورد ، مجلد (٥) عدد (١) السنة ١٩٧٦ .

— فصول من تاريخ الحركة التشكيلية في العراق . شاكر حسن ال سعيد، الجزء الاول . وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨٣ .

— الفن الاسلامي . ابو صالح الالفى . مصر ١٩٦٩ .

— فن التجليد عند المسلمين . اعتماد يوسف ، بغداد ، المؤسسة العامة للاثار والتراث ١٩٧٩ .

— فن التصوير عند العرب . تاليف ريتشارد ايتنكهاوزن ، ترجمة د. عيسى سلمان وسليم طه التكريتي بغداد وزارة الاعلام ١٩٧٣ .

— مجلة الرواق الجزء (١٥) بغداد ١٩٨٤ .

— مخطوطات الطب والبيطرة والصيدلة في مكتبة المتحف العراقي ، اسامة ناصر النقشبندي بغداد ١٩٨١ .

— مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي.زكي محمد حسن ، بغداد ١٩٧٢ .

— معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة .

— مقامات الحريري المصورة . ناهدة عبدالفتاح ، وزارة الاعلام بغداد ١٩٧٩ .

الفصل الرابع

الموسيقى والغناء

د. حسين علي محفوظ
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

ورثت الموسيقى بعد الاعصر العباسية كنوزا من التجارب والمؤلفات والمعلومات والابكار والافكار اتكأت عليها الاعمال الموسيقية من بعد .

كانت بين ايدي المؤلفين المشتغلين في الموسيقى العلمية والعملية كل التراث الذي تركه العلماء العرب والمؤلفون بالعربية وهو جهد ضخم كبير عامر بالآراء والاضافة والزيادة والبحث والتجديد والتحقيق تمثل في سبعة قرون من عصر التدوين اضافة الى المأثور والمنقول والمروي من المعارف الموسيقية في التراث العربي والعراقي .

وكانت عندهم آثار عشرات المؤلفين الكبار جاوز أحدهم الثلث الاول من القرن الثاني ، وعاش اثنان منهم في المائة الثانية ، وكان تسعة منهم في القرن الثالث وستة في القرن الرابع ، وثلاثة في الخامس ، وثلاثة في السادس ، وأربعة في السابع . وهم جميعا بضعة وثلاثون ، خلفوا مكتبة غنية في المعرفة الموسيقية تبلغ عيونها ستين كتابا من انفس الكتب القيمة أو تزيد غير الكتب

والرسائل والمقالات المنتشرة التي ضاعت او نسيها المؤرخون او تجاهلها الدارسون أو غفل عنها أهل الفن .

لقد كان في مجموع اعمال النخبة من العلماء والمؤلفين بين القرن الثاني والسابع – أمثال يونس الكاتب (١٣٥ هـ /٧٥٢ م) ، والخليل (١٧٤ هـ/ ٧٩٠ م) ، وابن جامع (ح ١٨٧ هـ/٨٠٢ م) ، واسحاق بن ابراهيم الموصلي (٢٣٥ هـ/٨٤٩ م) ، والكندي (+ ٢٤٧ هـ/٨٦١ م) وابي جعفر احمد بن يحيى بن مرزوق المكى (٢٥٠ هـ /٨٦٤ م) واحمد بن الطيب السرخسي (٢٨٦ هـ/٨٩٩ م) ، وثابت بن قرة (٢٨٨ هـ /٩٠٠ م) ، والمفضل بن سلمة (٢٩١ هـ/٩٠٣ م) ، وابن المعتز (٢٩٦ هـ /٩٠٨ م) ، وابن خرداذبه (ح ٣٠٠ هـ /٩١٢ م) ، ويحيى بن علي بن يحيى المنجم (ح ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) والفارابي (٣٣٩ هـ /٩٥٠ م) ، وابي الفرج الاصبهاني (٣٥٦ هـ/ ٩٦٦ م) ، والخوارزمي (ح ٣٧٠ هـ /٩٨٠ م) والبوزجاني (٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) واخوان الصفا (ق ٤ هـ / ق ٨ م) ، والمجريطي (٣٩٨ هـ/ ١٠٠٧ م) ، وابن سينا (٤٢٨ هـ/١٠٣٦ م) وابن زيله (٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م) ، وابن الطحان الموسيقى (ق ٥ هـ / ق١١م) ، وابن الصلت امية بن عبدالعزيز ابن ابي الصلت الاشبيلي (٥٢٠ هـ/١١٢٦) ، وابن باجه (٥٣٣ هـ /١١٣٨ م) ، وفخرالدين الرازي (٦٠٦ هـ /١٢٠٩ م) ، والحسن بن احمد بن علي الكاتب (+ ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م) – مختلف الكتب في النغم ، والايقاع ، وصناعة التأليف ، والاقاويل العددية ، والنسب الزمانية ، والاغاني واخبار المغنين ، واللهو ، والملاهي ، والمصوتات ، وصفه المغني وما يجب ان يكون عليه ، وأسرار الغناء ، وأدب الغناء . وهي أهم الاثار في علم الموسيقى . واولئك هم اعمدة هذا العلم وأركان تلك الفنون . وكفى بالكندي والفارابي وابن سينا ثم الحسن بن احمد بن علي الكاتب وصفي الدين الارموي وممدود ابن عبدالله الواسطي الربابي – الذي مات ببغداد في ذي القعدة سنة

٦٣٨ هـ/١٢٤٠ م ويضرب به المثل في معرفة الموسيقى بالرباب ــ من اساطين هذا النمط الجميل الدقيق من المعرفة •

ضم تراث العراق في القرون الستة من تاريخه الحديث بين القرن الثامن وأوائل القرن الرابع عشر الهجري (اوائل العشرين الميلادي) بضعة عشر من اعلام التأليف والنغم واللحن يجمعون الشمال والجنوب ويمثلون مختلف المدن والبلدان عاصروا زهاء عشرين من الافاضل في العلوم الموسيقية فـي الوطن العربي والعالم الاسلامي •

وتعتبر أواخر حياة صفي الدين الارموي « البغدادي » في بغداد بداية الموسيقى العربية في تاريخ العراق الحديث • وتعد آراؤه وآثاره وقواعده وموضوعاته اساس الموسيقى البغدادية والمقام العراقي • وهـو الموسيقار الاول الذي بلغ من المعرفة والعلم مايتيح له تحليل اقوال القدامى ونقـد مؤلفات الاقدمين والمحاكمة بين آراء الفارابي وابن سينا من فطاحل الموسيقيين• ولم يجترىء على انتقادهما أحد قبله •

وكانت ولادة صفي الدين عبدالمؤمن بن يوسف بن فاخر الارموي البغدادي الموسيقار الكاتب ببغداد (ظ) في حدود سنة ٦١٣ هـ /١٢١٦ م • وتوفي بها يوم الاثنين ١١ صفر ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م عن نحو من ثمانين سنة •

كان صفي الدين الارموي موسيقارا كبيرا ، منشئا بارعا ، شاعرا رقيقا اضافة الى علوم العربية والتاريخ والخلاف وغيرها • وكان علما في الخط • ويعد من أفضل كتاب عصره • ومنه تعلم ياقوت المستعصمي الخطاط والمشهور المتوفى سنة ٦٩٨ هـ /١٢٩٨ م •

بلغ صفي الدين غاية النهاية في الصناعة الموسيقية • وله اليد الطولى في ضبط الانغام والادوار ، وتقييد قواعد الفن • ولعله أول مـن دون النوطة Note باتقان •

وقد كان أوحد زمانه في الضرب بالعود واللعب به. ويروى بعض الادباء من أهل اواسط القرن الثامن الهجري (اواسط القرن الرابع عشر الميلادي) من القصص ما يشير الى منتهى براعته وبالغ تأثير عزفه .

قربه المستعصم في أواخر خلافته ، وجعله من خواصه ، وسلم اليه مفاتيح خزانة كتبه الحافلة العامرة ، وفوض اليه نسخ مايريد . ولما علم الخليفة بمعرفته بالموسيقى والعزف والضرب امره بملازمة مجلسه وأزلفه . وما كان المستعصم يعرف منزلة صفي الدين في التلحين والتطريب والعمل والعلم ، وانما كانت في بغداد مغنية بارعة جميلة تدعى (لحاظ) غنت ذات يوم بين يديه ، فأعجبه لحنها ، وسألها عنه ، فقالت : انه لمعلمي صفي الدين فأحضره وعزف عنده فأعجب به .

ولقد استطاع فن صفي الدين الارموي ان ينفذ الى هولاكو ونجا جانب من مدينة السلام بغداد بسببه ولاجله . كما قربه عطا ملك الجويني واخوه شمس الدين . وولي في زمنهما كتابة الانشاء ببغداد . وبه تخرج شرف الدين هارون (٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م) ابن شمس الدين المذكور في الموسيقى .

اخترع صفي الدين الارموي آلتين موسيقيتين هما : النزهة وهي نوع من القانون ، والمغني وهو عود مقوس .

وترك — ايضا — كتابين جليلين يحويان — رغم صغرهما — كل مايحتاج اليه في العلوم الموسيقية من قواعد وضوابط ومعلومات واصطلاحات وتعريفات . وفيهما من الجداول والدوائر والرسوم والخطوط مايعد من طرائف الابتكار في علم التأليف .

يحتوي الكتاب الاول وهو « الشرفية في علم النسب التأليفية والاوزان الايقاعية » — الذي الفه برسم خزانة تلميذه شرف الدين هارون ونسبه الى لقبه — على خمس مقالات تشتمل على الكلام في الصوت ، وحصر نسب

الاعداد ، واستخراج الابعاد ، ونسبها المستخرجة من نسب مقاديرها .
ومراتبها في التلاؤم والتنافر واسمائها الموضوعة لها ، واضافة الابعاد بعضها
الى بعض ، وفصل بعضها من بعض ، واستخراج الاجناس من الابعاد الوسطى،
وترتيب الاجناس في طبقات الابعاد العظمى ، وذكر نسبها واعدادها ، والايقاع
ونسبة ادواره ، وكيفية استخراج الالحان بالصناعة العلمية . وهي ابحاث
تعالج اعماق العلوم الموسيقية .

ويحوى الكتاب الثاني وهو « الادوار من معرفة النغم ونسب ابعادها
وادوار الايقاع » خمسة عشر فصلا في تعريف النغم وبيان الحدة والثقل ،
وتقسيم الدساتين ونسب الابعاد، والاسباب الموجبة للتنافر، والتأليف الملائم،
والادوار ونسبها ، وحكم الوترين ، وتسوية اوتار العود واستخراج الادوار
منه، واسماء الادوار المشهورة، وادوار الطبقات، والاصطخاب غير المعهود ،
وادوار الايقاع ، وتأثير النغم ، ومباشرة العمل .

ويعد هذا الكتاب من طرائف الرسائل الفنية في التعريفات والمواصفات
الموسيقية التي يدعو مس الحاجة الى اختيار بعضها بازاء ما يغص به التقدم
الموسيقي من اصطلاحات جديدة في أنواع الضرب والعزف ، والوان النقر
والنغم ، واصناف الغناء واللحن . وهو حافل بطائفة نادرة من قواعد الانغام
ومفاتيح علومه .

يعتبر صفي الدين هذا نقطة متميزة ـ بعد الكندي والفارابي وابن
سينا ـ في تاريخ الموسيقى العراقية والعربية والشرقية والعالمية جميعا .فهو
نموذج الموسيقار العالم المحقق الناقد المجدد المبتكر الانسان . وكانت
مدرسته ذات خصائص بارزة واضحة في العمل والعلم.وهو استاذ الموسيقيين
الكبار من بعد . وقد اعتمد طلاب الموسيقى على كتبه . وكل من جاء بعده
عيال على مؤلفاته ولا سيما (الشرفية) و (الادوار) .

وقد ظفر كتابه (الادوار) خاصة باهتمام الشراح وعناية المختصين ورعاية الدارسين وعليه تدور الاعمال الموسيقية والمؤلفات المهمة في هذا العلم في القرون اللاحقة • ولم يشتهر كتاب كما اشتهر هذان الكتابان المختصران الفريدان • وهما في الموسيقى بمنزلة (الاجرومية) و (الالفية) في اللغة العربية والنحو • والعجب كل العجب اجماع المختصين ان المؤلفين لم يصنفوا امثل هذين الكتابين بعد الارموي وان المحابر والاقلام عقم باشباه الشرفية ونظائر الادوار •

والحق ان مؤلفات الكندي والفارابي وابن سينا والارموي هي آساس هذا العلم في طول تاريخ الموسيقى العربية• وللارموي — بعد — فضل التجديد، وتفتيح العقول والفهوم ، والخروج من التقليد الجامد ، وابتكار الدوائر والجداول ، وتعزيز الكتب بالرسوم ، والسعي لتوضيح والتيسير والتسهيل، والجرأة على مناقشة اقطاب الفلسفة والمعرفة والعلم والفن من القدماء ، وظهور الشخصية العراقية في الموسيقى والتأليف •

واشتهر بعد احتلال بغداد «سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨ م» زين الدين ابو عبدالله الحسين ابن البرهان الموصلي الموسيقار النقاش الصباغ، نزيل بغداد الذي جمع بين الموسيقى والزخرف والرسم والصبغ • كان فريدا في علم الموسيقى في عصره • وله مصنف معروف في الموسيقى • وتنسب اليه اصوات مطربة • وقد توفى سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٨ م • وكانت سيرته تمثل التقاء الفنون الجميلة في العراق •

وظهر — ايضا — فخرالدين ابو محمد يوسف بن سعيد الشهراني المطرب المجيد•كان معروفاً بطيب الغناء واللحن غير الملحون•وكانت نغمته تجري مع العود ، ويُتَعجَب من طيبها وحنينها •

وكان ياقوت المستعصمي — المتوفى سنة ٦٩٨ هـ /١٢٩٨ م — مجيدا في

الموسيقى والغناء كما كان مجيدا في الشعر والخط . وكانوا يقولون انه اذ غنى قتل وتلك غاية المبالغة في الوصف .

وقد كان لشرف الدين عيسى بن محمد السهروردى الصوفي الواعظ المتوفى سنة ٧٢٩ هـ/١٣٢٨ م معرفة بالالحان والانغام .

ونظم بدرالدين ابو المعالي محمد بن علي الخطيب الاربلي ارجوزة الانغام) . وقد نشرت باسم (جواهر النظام في معرفة الانغام) . وهـي منظومة موجزة في (١٠١) بيت تشتمل على مقدمة واثني عشر فصلا ووصية وخاتمـة .

تناول الاربلي في ارجوزته معرفة اصول الانغام ، والمناسبة بين الاصول والاركان والاخلاط ،وذكر ابحر الانغام الاصولية الاربعة ، والابحر الثمانية المفرعة عن الاصول الاربعة ، وكيفية ترتيب الانغام الاثنى عشر ، والاوازات الستة ، والشواذ « الشازات » الثلاثة المفرعة عن الاوازات الستة ، وترتيب الانغام الاثنى عشر ، والانغام الزوائد ، ووصية استاذه له وبيان تأثير الانغام في الامزجة من الاخلاق ، وبيان الضروب السبعة ووجوب مراعاتها .

وبلغ شمس الدين السهروردي ــ المتوفى سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م ــ في علم الموسيقى وعمله الغاية القصوى . واعترف الفضلاء باتقانه واحرازه قصب السبق . وقد انتشرت آثاره الموسيقية في الشرق والغرب .

واشتهر كذلك كمال الدين ابن البرهان الموصلي البغدادي ، الصوفي المتوفى سنة ٧٤٢ هـ/١٣٤١ م . فقد بلغ في هذا العلم مبلغا كبيرا يقصر عن وصفه من ارخوا سيرته .

ويعد شهاب الدين عبدالله الصيرفي الخطاط المشهور ــ المتوفى سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م ــ من اعلام المؤلفين في الموسيقى. فقد صنف كتاب (خلاصة الافكار في معرفة الادوار) وبين فيه تأثير الانغام في النفس والاخلاق ووضح مـا

يبعث الشجاعة ، ويحرك الفرح والسرور ، وما يفعل الارتياح الذي يشوبه الغم ، وما يؤثر الفتور والكدورة ، ومايحزن ، ومايقوي الافراط في المسرة أو الاغراق في الضحك ، ومايدعو الى الاجهاش والعويل والبكاء وهي مباحث تشير الى تعمق الموسيقيين في الدراسات النفسية ، وتوميء الى دقة الموسيقار وبسطته في التفنن ومشاركته في المعارف .

واشتهر ابن زاده الكردي الديسني ـ المتوفى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م ـ في هذا العصر بالغناء .ولقد اجهد نفسه حتى فاق في الطرب.وقد تعلم فنون الموسيقى من سبعة من علمائها واعلامها . وقد كان فيهم امراء المطربين وندماء الحضرة . والف الكردي كتاب (الكنز المطلوب في علم الدوائر والضروب).

والمظنون ان ابن كرالبغدادي في مصر نحانحو (الكنز المطلوب) في تسمية كتابه (غاية المطلوب في علم الانغام والضروب) الذي سمع الصفدي مقدمته منه في سنة ٧٤٥ هـ/١٣٤٤ م .

وحفظ ابن الاكفاني ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن ساعد الانصاري السنجاري ـ المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م ـ في كتابه الموسوعى الصغير (ارشاد القاصد) خلاصة موجزة جدا فيها اهم ما يحتاج اليه الاديب من الاصطلاحات الموسيقية المعروفة في زمانه .

ومن الموسيقيين الافاضل شاعر العراق والعرب الاكبر في القرن الثامن الهجري صفي الدين الحلي، ابو المحاسن عبدالعزيز بن سرايا بن ابي القاسم الحلي السنبسي الطائي (٦٧٧ـ٧٤٩هـ/١٢٧٨ـ١٣٤٨م).وهو أديب لغوي، كاتب كبير ، مؤلف بارع . اتقن علوم الشعر معنى ولفظا ونظم في كل البحور، وتعاطي انواع القوافي، وعالج مختلف موضوعات الشعر . فقد تناول الحماسة والفخر ، والمدح والثناء ، والادب والشكر ، والغزل والنسيب والتشبيب ، والمراثي والتعازي ، والشكوى والعتاب،والاعتذار والاستعطاف والاستغفار،

والهدايا ، والاخوانيات ، والطرديات ، والخمريات ، والزهريات ، والزهديات والالغاز والملح والاهاجي والاحماض وهو شعر جيد كثير • اضافـة الى الرسائل مثل رسالة الدار ، والرسالة المهملة ، وحل المنظوم وامثالها • وله كذلك ـ (الكافية البديعية في المدائح النبوية) وهي قصيدة فخمة طنانة عدتها مائة وخمسة واربعون بيتا في بحر البسيط تشتمل على مائة وواحـد وخمسين نوعا من محاسن البديع•وهي نتيجة سبعين كتابا باهى الصفي الحلي فيها بغزارة الجمع والرياقة في السمع • وشعره ـ كـــما قال الفيروزابادي الذي اجتمع به في بغداد وأطراه ـ « كالدر في الاصداف » •

كان الصفي موسيقي الطبيعة ، رقيق الطبع ، مرهف الحس ، فياض الشعور ترك عدة كتب ودواوين ورسائل ومنظومات من العلم والادب واللغة والبلاغة والموسيقى غير الديوان والبديعية •

وله في العروض مشاركة تشير الى براعته في الموسيقى واللحن • وكتابه (العاطل الحالي والمرخص الغالي) في الفنون الاربعة « الزجل والمواليا والكان وكان والقوما » ـ التي لحنها البغاددة وغنى بها الناس وصوتوا ـ يدل على طبعه اللطيف ، ومعرفته الباسطة بالغناء ، ودقته الفائقة في تشخيص الاوزان والانواع ، والاحاطة بالنكت والاصطلاحات والمشكلات •

وفي اثنـاء الكتابات اشارات الى مالطفه البغداديون ونقحوه ورققوه ودققوه من فن المواليا الذي اخترعه اهل واسط وسموه (صوتا) ومنهم من سماه (بيتين) • وقد شاع في الامصار وتداوله الناس في الاشعار •وتعلمه متسلمو عمارة البساتين والفعول والمعامرة والاباررون • وكانوا يغنون به في رؤوس النخيل وعلى سقى المياه •

وكذلك الكان وكان الذي اخترعه البغداديون ـ ايضا ـ ثم تداوله الناس في البلاد •

وهكذا القوما ومخترعوه البغداديون ــ كذلك ــ في دولة الخلفاء من بني العباس برسم السحور في شهر رمضان ، كان ينشده المغنون للتسحير ويغنون ويسحرون الناس بصوت رقيق .

وهذا الكتاب ــ على كل حال ــ وثيقة مهمة في تاريخ ادب العامة وتراث الشعب . وهو مدخل نفسي في علم الفولكلور ، وسجل قيم لانواع الشعر العامي التي كانت تغنى في العراق . وقد حفظت شواهده (نمط البغاددة) في الزجل ، وطريقهم في (البليق) .وبغداد هي نزهة المتنزهين ، وهي الدنيـا والناس ، جمعت طيب الهواءين ولم ير مثلها منزلا ولا مثل أهليهـــا ارق شمائل . هي الدنيا بأجمعها وسكانها هم الناس .

وفي ديوان صفي‌الدين الحلي المطبوع شذرات تشير الى احاطتـــه بالموسيقى ومعرفته بالانغام . فقد وصف في شعره العود « عود الطرب » ، ووصف المطرب بالعود ، والغلام الزامر ، والمغنية بالعود التي تشجي بالتغريب في التغريد ، كما وصف مجالس الانس والنايات ، والشيزات . ونظم عــدد شندود انغام الموسيقى الاثنى‌عشر وضبط الاوازات الستة .

وكان نظام الدين يحيى بن عبد الرحمن الحكيم الجعفري الطياري البغدادي الخطاط الكاتب المنشيء الموسيقار ــ المتوفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨مـ استاذا في علم الموسيقى . أتقن اللحون ، واحاط بالانغام ، وله في الموسيقى أقوال وأعمال ينقلها عنه ارباب هذا الفن في الشام ومصر . وكان أذا خلا بمن يحب من أصحابه اندفع وغنى من غير آلة بما يعجب ويدهش ويطرب .

وكان ينظم الشعر ــ ايضا ــ ويجيد الخط ، ويصنع الزخرف والنقوش

وانتهت الرئاسة في الموسيقى وضرب العود الى شمس الدين محمد بن محمد المعروف بابن السوري العماري الموصلي المغني العواد وهو صاحب

التصانيف المائلة في علم الموسيقى كما عبر عنه • سكن القاهرة ونقل علـوم الموسيقى في العراق الى مصر • وتوفى سنة ٧٨٣ هـ/١٣٨١ م •

ومن معارف علمـاء الموسيقى المشاهير في هذه الفتـرة جمال الديـن (غيبي) والد عبدالقادر بن غيبي واستاذه • وكانت له في انواع العلوم اليد الطولي والمرتبة الاعلى • قال ابنه : « لم يصل احد الى مرتبته في هذا العلم والعمل ولا يصل » •

واستمرت العناية بالموسيقى في القرن التاسع والعاشر للهجرة ، وبلغت غاية النهاية في عهد عبدالقادر الغيبي ـ المتوفى سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م ـ وهو ـ والحق أقول ـ مجدد الموسيقى ـ بعد صفي الدين الارموي ـ فقد ألف عدة كتب فائقة بارعة في العلوم الموسيقية أشارت المصادر الى خمسة منها • ولعـل اهمهـا :

١ ـ جامع الالحان •
٢ ـ مقاصد الالحان •
٣ ـ زبدة الادوار •
٤ ـ شرح كتاب الادوار •
٥ ـ كتاب الموسيقى •
٦ ـ كتاب آخر في الموسيقى •
٧ ـ كنز الالحان في علم الادوار •

عالج الغيبي في مؤلفاته ـ ولاسيما « مقاصد الالحان » ـ سلسلة من الابحاث أوسعها تحقيقا وتدقيقا ونقدا ودراسة • ومن اهم موضـوعاته : تعريف الموسيقى والصوت والنغمة ، وكيفية حدوث الصوت والنغمة ، والبعد والجمع ، واسباب الحدة والثقل ، وكل يتصل بموضوع هذا الفن ومباديه •

وفصل القول في تقسيم الدساتين على الاوتار ، ونسب ابعادها واعدادها •

وبين اسباب التنافر ، وقاعدة اضافات الابعاد بعضها الى بعضها ، وفصل الابعاد بعضها من بعض ، وتنصيف الابعاد ، وطريقة الاصطخاب المعهود في الآلات ذوات الاوتار •

وشرح اقسام بعد ذي الاربع وبعد ذي الخمس ، وترتيب الدوائر ، والبحور والانواع •

وذكر الادوار المشهورة ــ وهي المقامات الاثنا عشر ــ واشار الى طبقاتها • وابان اعداد نغمات الدوائر ، وطريقة استخراج الادوار من تقسيم الوتر ، واوضح الاوازات الستة واستخراجها من الوتر ، والشعبات الاربع والعشرين وطريقة استخراجها من دساتين الوتر • وبين اشتباه الابعاد ببعضها، واشتراك نغم الادوار ، ومناسبات المقامات والاوازات والشعب مع بعضها •

ويحتل بيان اصناف الانتقالات الجزئية في مباني ذي الكل الاحد، والادوار الايقاعية ، والاصابع الستة ، والطريقة القديمة ، والدخول في التصانيف ، وتأثير نغم الادوار وطريقة المباشرة في العمل ، وصنعة التصانيف وايجاد الترجيعات على الاوتار ، وتعليم الغناء ، والتركيبات المتفقة والمخالفة، والترنم بالنثر ، والشدود ، وطريقة عمل اصناف الاجناس ، واستخراج نغمات الاوتار من الوتر في الجمع الكامل والجمع التام واسامى النغمات في الجمع التام بالعربية واليونانية ، واسامى آلات الالحان ومراتبها واسامي المباشرين ومايتبغي للمباشر في هذا الفن من معرفة بآداب المجالس ورعايتها وأمثال هذه حيزا بارزا في كتب عبدالقادر الغيبي •

وتمتاز كتب الغيبي بالجداول الموضحة ، والدوائر المتقنة ، والرسوم الشارحة ، والمعلومات المفصلة ، ويعتبر كتابه (مقاصد الالحان) نمطا بارعا في التأليف الموسيقي يعيد ذكر الارموى ويذكرنا العلم والايجاز والاتقان في التدوين •

وقد الف ابنه نورالدين عبدالرحمن كتاب (مقاصد الادوار) اواخر القرن التاسع ، وكان حفيده عبدالعزيز من مشاهير الموسيقاريين في القرن العاشر وهو مؤلف رسالة (نقاوة الادوار) .

وبلغت الموسيقى في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) في عهد موسيقار العراق في ذلك العهد ابن رحمة الحويزي مايؤكد منزلته في التجديد والابداع .

جمع ابن رحمة انواع المعارف والفنون . فقد بلغ الغاية العليا في الادب ، وأتقن اللغة ، واحكم التصنيف ، واجاد الانشاء ، وجود الشعر ، وبرع في العروض ، وبرز في النحو ، وفاق في الحكمة ، وشأى في المنطق ، وبذ في التصوف ، وسبق في التفسير ، وتقدم في الفقه ، وتعمق في البديع ، وتبحر في المعاني ، وتوسع في البيان ، ونبه في الموسيقى ، واشتهر في الغناء وابدع في التلحين . واوشكت مؤلفاته ان تبلغ الاربعين .

اتصل ابن رحمة الحويزي بحاكم البصرة ولا سيما واسطة عقدهم علي — الذي زين الامارة — حقا — بفضل جم ، وادب وضيء ، ومروءة سنية ، واريحية فياضة ، وذكاء بارع ، وبديهة باهرة عدعن الموسيقى والقريض وكان عبدعلي بن ناصر بن رحمة المتوفى سنة ١٠٧٥ هـ/١٦٦٤ م شاعره المجواد ، وبلبله المطراب ، ونديمه المغبوط . وقد هب ذكره في زمانه هبوب الريح في كل بلدة فبلغ سوريا والحجاز ودخل الشرق .

ابدع الحويزي في معارضة الطائي ، وطاول المتنبي ، وجارى ابن الفارض وجرى مع مهيار . وقرض الشعر العامي وأرخه ودرسه . ويده مبسوطة في نظم الموال . وله فيه طرائف معروفة .

كان ابن رحمة رجل الدنيا في الموسيقى في عصره . وله اغان سارت مسير الشمس في زمنه واكثرها من شعره المطرب .

ومن اصواته ماابدعه في نغمة السيكاه من الثقيل ، ومن نغمة الحجاز والضرب مخمس ، ومن نغمة الحجاز ــ ايضا ــ والضرب دارج •

وابتدع من الالحان الشرقية صوت (مسرت آباد) اي مدينة السرور أو دارة السرور ، ومعنى كلمة (آباد) في اللغات الشرقية : الثناء والتحية ومرحى والمدينة والبلدة والمسكن والاطراب • وقد تشبه الحويزي بمعبد المغني الذي سمى اصواته (دارات) و (حصون) و (مدن) و (قصور) •

و (مسرت آباد) هذا الذي اخترعه الحويزي في نغمة العراق وضربه ثقيل •

ومن الحانه ــ كذلك ــ (جام جم) في نغمة الحسيني ، وضربه خفيف• ومعنى جام جم كأس جم • وجم في الألسنة الشرقية بمعنى الملك الكبير وانسان العين والمطهر والمنزه والذات والطبيعة والاسكندر وسليمان •

وانا اميل الى نسبة المقام الحويزاوي الى ابن رحمة الحويزي ولعله أول من صنعه •

والحق ان ابن رحمة هو موسيقار العراق العظيم في القرن الحادي عشر • وهو مجدد الموسيقى العربية في العراق بعد الغيبي طول القرون الستة وهو ثالث الأربعة الكبار من اعلام الموسيقى العربية في تاريخ العراق الحديث •

ويشتهر في النصف الاول من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) احمد بن عبدالرحمن (المسلم) الموصلي صاحب كتاب (الدر النقي في علم الموسيقى) وهي رسالة صغيرة مستطرفة رتبها على مقدمة وثلاثة ابواب وخاتمة •

عالج المسلم في (الدر النقي) اشياء متفرقة تتعرف بأطراف علم الموسيقى وأصل المقامات السبعة ، ودائرة المقامات الاثني عشر وتعلقاتها بالبروج والافلاك

والساعات والايام • وطبائع المقامات وما يوافقها من الاحرف حال القــراءة ، والمجالس وما يوافق كل مجلس من المقامات بحسب طبائع المستمعين وكيفية القراءة والتنقل من مقام الى مقام •

وقد الحق بكتابه دائرة موضحة ، ولوحا مفصلا ، أما الدائــرة فهــي ذات ست حلقات تقسمها ستة اقطار • واما اللوح فيشتمل علــى جدول ذي (١٢٦) بيتا مرتبة على الليالي والايام والكواكب والاوقات •

ونبغ مهذبالدين احمد بن عبدالرضا الحليالبصري (١٠٨٣هـ/١٦٧٢م) بعد ابن رحمة في البصرة • وله (رسالة في الغناء) والمظنون انه من تلاميذ ابن رحمة •

ولمحمد هاشم بن محمد كاظم الحسني النجفي من اعلام هذه الفترة فــي الموسيقى كتاب اسمه (فواتح العرفان) يدل على استمرار التأليف في هــــذا العلـــــم •

هذا ويحيط الغموض بتاريخ القرون الاخيرة الثلاثة من تاريخ الموسيقى الحديث في العراق • وتخفى المؤلفات الموسيقية ولاتبرز اسماء معروفة لولا بعض المشتهرين بالمقام من المغنين في القرنين الثالثعشر والرابع عشر • امــا القرن الثاني عشر فان المصادر لاتجود بأخبار الموسيقى فيــه •

تشير المراجع الى عناية الدين احمد القبولي الذي ولد بعد وفاة ابــــن رحمة بسنة • وتوفى سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٤م وتصفه بكونه من مشاهير رجال الموسيقى فضلا عن العلم والادب •

وتشير أيضا الى ملا سعد الموصلي ــ المتوفى بعد ســنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م ، وكان اديبامقرئا عالما بالقراآت السبع والشواذ ، عارفا بالموسيقى • قرأ على والده شيخ القراء المجود محمد امين • ودخل بغــداد حتى حــل الطاعون سنة ١٢١٧ هـ/١٨٠٢ م •

وتذكر كذلك ــ ملا ولي من اهل كفري المتوفى سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م فقد ورد بغداد وتعلم منه بعض مغنيها ومنهم شلتاغ • كما تتلمذ عليه علي بن صفو شيخ قراء الموصل وكبير مغنيها •

وقد لمع ضوء احمد بن الخلفه المغني المعروف في زمن عبدالباقي العمري الشاعر ، وقد أطراه العمري والأخرس • وقالا فيه من الشعر مايدل على براعته في الغناء ، واللحن والانشاد والشدو •

ويعتبر رحمةالله بن سلطان خليل الملقب (شلتاغ) ــ المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ /١٨٧١ م من المجيدين في الموسيقى والغناء في العراق • وهو من تلاميذ ملا ولي وآخرين • وقد اخذ عنه عدد كبير من المغنين والمطربين ، منهم احمد زيدان ، ورباز ، وابو حميد ، وملا عثمان الموصلي •

وقد اخذ عنه عدد كبير من المغنين والمطربين ، منهم احمد زيدان ، ورباز ، وابو حميد ، وملا عثمان الموصلي •

ويليه (ابو حميد) وهو حمد بن جاسم ــ المتوفى سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨٠ م الذي يتميز غناؤه بالاسلوب البدوي والنمط الاعرابي • وتنسب اليه آثار بارعة في المقام والغناء •

وقد اشتهر خليل بن ابراهيم (رباز) في أوائل القرن الماضي فقد جمع بين التتلمذ على (شلتاغ) و (ابو حميد) • وهو استاذ عدة من مغنى بغداد وموسيقييها وتوفى سنة ١٣٢٢ هـ/١٩٠٤ م •

ومن كبارهم ــ أيضا ــ أحمد زيدان المتوفى سنة ١٣٣١ هـ /١٩١٢ م فهو تلميذ شلتاغ وابو حميد وغيرهما • وقد أحيا الغناء ، العراقي ويعتبر من مشاهير اساتذة المدرسة البغدادية في المقام • واسلوبه مما يحفظه المغنون في القراءة والالقاء والاداء •

ثم تستعيد الموسيقى شيئا من مكانتها القديمة في العلم والعمل أيام

ملا عثمان الموصلي المكفوف الذي يعتبر طفرة في الاداء والغناء ، والمعرفة بالنغم واللحن ، والاحاطة بالقراءة والتجويد ، مع الادب والشعر والتأليف . وهو استاذ عدة من المقرئين والمغنين المشاهير .

ختم العصر الحديث بالصوفي الحافظ المقرىء الموسيقار الشطرنجي المغني الشاعر الخطيب الثائر ملا عثمان الموصلي المولوي ــ المتوفى سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢١ م .

كان شيخ القراء في جامع المرادية ببغداد . وكان في العراق مثل عبده الحمولى (١٣١٩ هـ/١٩٠١ م) في مصر . . وقد تتلمذ الحمولى على ملا عثمان وقرأ عليه وتعلم منه الموشحات . ومن تلاميذه ايضا ــ كامل الخلعي (١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م) استاذ شيخ الملحنين زكريا احمد .

ومن تلاميذ ملا عثمان الموسيقار الشيخ سيد درويش (١٣٤٢ هـ/ ١٩٢٣ م) ، والشيخ احمد ابو خليل القباني (١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م) في دمشق ، والموسيقار التركي سامي بيك . واليه ينسب (طرز حافظ عثمان الموصلي) في الغناء التركي .

كان اسلوب ملا عثمان في الغناء (اسلوب الالقاء والتعبير) الذي يجسد معنى الكلمة بصورة الغناء .

ترك ملا عثمان أربعة مؤلفات في الادب والشعر . ونشر ديوان عبد الباقي العمري وثلاثة كتب معتبرة من تآليف الآخرين .

المصادر والمراجع

احصاء العلوم ــ الفارابي (مصر ١٩٤٨) .
اخبار العلماء بأخبار الحكماء ــ القفطي (مصر ١٣٢٦ هـ) .
الادوار في معرفة النغم والادوار ــ صفي الدين الارموي تحقيق د. حسين علي محفوظ (بغداد ١٩٦١) .
ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ــ ياقوت الحموي (مصر ١٩٢٣ ــ ١٩٣١) .
ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد ــ السنجاري (بيروت ١٣٢٢ هـ) .
الاغاني ــ ابو الفرج الاصفهاني (مصر ١٣٢٣ هـ) .
الف ليلة وليلة (المطبعة العثمانية المصرية) .
الامتاع والمؤانسة ــ التوحيدي (مصر ١٩٣٩ ــ ١٩٥٣) .
أمل الامل ــ محمد بن الحسن الحر العاملي (طبعة الحجر ١٣٠٢ هـ) .
انوار الربيع في أنواع البديع ــ ابن معصوم المدني (طبعة الحجر ١٣٠٤ هـ) .
الانوار النعمانية ــ السيدالجزائري (طبعة الحجر ١٣٤١ هـ) .
انيس المسافر وجليس الخاطر ــ الشيخ يوسف البحراني (بمبي ١٢٩١هـ) .
ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ــ اسماعيل باشا البغدادي (تركية ١٩٤٥ ــ ١٩٤٧) .
برهان قاطع ــ محمد حسين بن خلف المدعو برهان (١٣٣٦ ش) .
بغداد القديمة ــ عبدالكريم العلاف (بغداد ١٣٨٠ هـ) .
تاج العروس ــ السيد محمد مرتضى الزبيدي (مصر ١٣٠٦ هـ) .
تاريخ العراق بين احتلالين ــ عباس العزاوي (بغداد ١٣٥٣ ــ ١٣٧٦ هـ) .
تاريخ الموسيقى العربية ــ فارمر ــ ترجمة د . حسين نصار (مصر ١٣٧٥ هـ) .
تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام ــ السيد حسن الصدر (بغداد ١٣٧٠ هـ) .
تجزية الامصار وتزجية الاعصار ــ وصاف الحضرة (بمبى ١٢٦٩ هـ) .
تحفة الموعود بتعليم العود ــ محمد ذاكر بك (مصر ١٣٢١ هـ) .
تراث الاسلام ــ ترجمة جرجيس فتح الله (الموصل ١٩٥٤) .
التراث الموسيقى في الموصل ــ محمد صديق الجليلي (الموصل ١٩٦٤) .
تكملة اكمال الاكمال ــ ابن الصابوني ــ تحقيق د . مصطفى جواد (بغداد ١٣٧٧ هـ) .
جوامع علم الموسيقى ــ ابن سينا (مصر ١٣٧٦ هـ) .
حكاية ابي القاسم البغدادي (هيدلبرج ١٩٠٢) .
الحوادث الجامعة ــ ابن الفوطي ؟ (بغداد ١٣٥١ هـ) .

حياة الانسان في ترديد الالحان ــ محمد ذاكربك (مصر ١٣١٢ هـ) .
خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ــ المحبى (مصر ١٢٨٤) .
دائرة المعارف الاسـلامية
درة التاج لغرة الدباج ــ قطب الدين محمود بن مسـعود (مطبعة المجلس ١٣٢٤ ش) .
الدرالنقي في علم الموسيقى ــ المسلم الموصلي (بغداد ١٩٦٤) .
دستور الوزراء ــ خوندمير (١٣١٧ ش) .
ديوان صفى الدين الحلي (النجف الاشرف ١٣٧٥) .
الذريعة ــ الرازي (١٣٥٥ ــ١٣٨١ هـ) .
رجال كتاب حبيب السير ــ عبد الحسين نوائي (١٣٢٤ ش) .
رسائل اخوان الصفا (بيروت ١٣٧٦ هـ) .
رسائل الكندي
الرسالة الجامعة ــ المجريطي (دمشق ١٣٦٧ هـ) .
رسالة طبقات المغنين ــ الجاحظ (مصر ١٣٢٤ هـ) .
رسالة يحيى بن المنجم في الموسيقى ــ تحقيق زكريا يوسف (مصر ١٩٦٤) .
روضات الجنات في احوال العلماء والسادات ــ السيد محمد باقر الخوانساري (طبعة الحجر ١٣٦٧ هـ) .
الروضات البهية في أوزان الالحان الموسيقية ــ محمد ذاكربك (مصر ؟) .
ريحانة الادب ــ المدرس (١٣٢٦ ــ ١٣٣٣ ش) .
زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر ــ فتح الله بن علوان الكعبي (بغداد١٣٤٢ هـ) .
سفينة الملك ونفيسة الفلك ــ شهاب‌الدين محمد بن اسماعيل الحجـازي (مصر ١٢٧٣ هـ) .
سلافة العصر ــ ابن معصوم المدني (مصر ١٣٢٤ هـ) .
شرح عينية ابن سينا ــ السيد الجزائري ــ تحقيق د . حسين على محفوظ (١٩٥٤) .
صبح الاعشى ــ القلقشندي (مصر) .
ضبط الاعلام ــ احمد تيمور باشا (مصر ١٣٦٦ هـ) .
طبقات الامم ــ ابن صاعد الاندلسي (بيروت ١٩١٢) .
الطرب عند العرب ــ عبد الكريم العلاف (بغداد ١٣٨٢ هـ) .
العقد المفصل ــ السيد حيدر الحلي (١٣٣١ هـ) .
الفهرست ــ ابن النديم (مصر ١٣٤٨ هـ) .
فوائد الرضوية ــ صاحب الكني والالقاب (١٣٢٧ ش) .
فوات الوفيات ــ ابن شاكر الكتبي (مصر ١٩٥١) .
قاموس الموسيقى العربية ــ الدكتور حسين علي محفوظ (بغداد ١٩٧٧) .
الكافي في الموسيقى ــ ابن زيله (مصر ١٩٦٤) .
كتاب مؤتمر الموسيقى العربية ١٣٥٠ ــ ١٩٢٣ (مصر ١٩٣٣) .

كتاب الملاهي واسمائها من قبل الموسيقى ـ المفضل بن سلمة .
كتاب الموسيقى الشرقي ـ محمد كامل الخلعي (مصر ١٣٢٢ هـ) .
كتا بالنغم ـ يحيى بن علي بن يحيى المنجم (بغداد ١٣٦٩ هـ) .
كشف الحجب والاستار ـ السيد اعجاز حسين الكنتوري (كلكتة ١٣٣٠ هـ).
كشف الظنون في اسامى الكتب والفنون ـ حاجي خليفة (استانبول ١٩٤١ ـ ١٩٤٣) .
كمال ادب الفناء ـ الحسن بن احمد بن علي الكاتب ـ تحقيق غطاس عبدالملك خشبة (مصر ١٩٧٥) .
الكنى والالقاب ـ صاحب الفوائد الرضوية (صيدا ١٣٥٨ هـ) .
اللهو والملاهي ـ ابن خرداذبه .
مؤلفات الكندي الموسيقية
مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ المسعودي (مصر ١٣٦٧ هـ) .
مسالك الابصار ـ ابن فضل الله العمري .
مصادر الموسيقى العربية ـ فارمر ـ ترجمة د . حسين نصار (مصر ١٩٥٧) .
مصفى المقال في مصنفي علم الرجال ـ الرازي مؤلف الذريعة (١٣٧٨ هـ) .
معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحاله (دمشق ١٣٧٦ ـ ١٣٨١ هـ) .
مفاتيح العلوم ـ الخوارزمي (مصر ١٣٤٢ هـ) .
المقام العراقي ـ الحاج هاشم محمد الرجب (بغداد ١٩٦١) .
معجم الموسيقى العربية ـ الدكتور حسين علي محفوظ (بغداد ١٩٦٤ م) .
مقاصد الالحان ـ عبد القادر الغيبي (١٣٤٤ ش) .
المقامات ـ شعوبي ابراهيم خليل (بغداد ١٣٨٢ هـ) .
مقدمة ابن خلدون
موجز الاغاني العراقية ـ السيد عبدالرزاق الحسني (بغداد) .
الموسوعة التيمورية ـ احمد تيمور باشا (مصر ١٩٦١) .
الموسيقى العراقية ـ عباس العزاوي (بغداد ١٣٧٠ هـ) .
كتاب الموسيقى الكبير ـ الفارابي ـ تحقيق غطاس عبد الملك خشبة (مصر) .
الموسيقى والغناء عند العرب ـ احمد تيمور باشا (مصر ١٩٦٣) .
الموسيقيون والمغنون خلال الفترة المظلمة ـ الحاج هاشم محمد الرجب (بغداد ١٩٨٢) .
نجوم السماء ـ مولوى محمد علي (لكهنو ١٣٠٣ هـ) .
نزهة الجليس ـ السيد عباس المكي (مصر ١٢٩٣ هـ) .
نهاية الارب ـ النويري (مصر) .
هدية العارفين ـ اسماعيل باشا البغدادي (استانبول ١٩٥١ ـ ١٩٥٥) .
وفيات الاعيان ـ ابن خلكان (مصر ١٣٦٩ هـ) .
يتيمة الدهر ـ الثعالبي (مصر ١٣٦٦ هـ) .

الفصل الخامس

حركة التربية والتعليم والنشر

د . ابراهيم خليل احمد
كلية التربية ـ جامعة الموصل

المبحث الأول

التربية والتعليم

ظلت الكتاتيب والمساجد والمدارس الدينية والربط او التكايا ، باعتبارها مؤسسات دينية وثقافية، تقوم بدور كبير في تشكيل شخصية الانسان العراقي حتى في اعقاب سقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، فقد احجم الغزاة الاجانب عن التعرض لهذه المؤسسات خوفا من ردود الفعل الشعبية وكان من نتائج ذلك، كما يقول المؤرخ عباس العزاوي «الاحتفاظ بالمعارف والعلوم، فكانت خير واسطة للم الشعث ، واستيفاء الحضارة » ويضيف « ان القطر العراقي بعد ان فقد استقلاله .. وصار نهبا بيد الغزاة لم يبق بيده ما يعول عليه ، او يركن الى قوته سوى الاوقاف .. ومنها المدارس التي لم يهمل شأنها ، ولا اودعت الى ما هو غريب او اجنبي عنها ، فكانت خدماتها كبرى وفوائدها عظمى ، سواء في الحضارة او في الثقافة العامة او الخاصة ، والسياسة

لم تعارضها ولم يؤثر في سيرها ضياع الكتب وبعض المكتبات او الذهاب بها الى مراغه ، وانتزاعها من العراق فلا تزال بقية باقية تغذى العقول وتحجب العلوم وتمكنها من البلد ودون حاجة الى مناصرة من حكومة ، والحكومة آنئذ اجنبية » •

لقد مارست تلك المؤسسات رسالتها الدينية والتعليمية كما كانت مراكز لالتقاء مختلف فئات الشعب وطبقاتهم من اشدهم فقرا الى اعظمهم ثروة ومكانة • واضطلعت بدور يشبه ما تقوم به اليوم النوادي والجمعيات في اشباع دافع حب الاجتماع عند الناس والترفيه النفسي عنهم ، وتعريف بعضهم بمشاكل بعض ، وتكوين راي عام في القضايا الدينية والسياسية وغيرها والتقليل من آثار الفوارق الطبقية بين الناس ، كما انها استخدمت اماكن يأوى اليها الفقراء والمعوزون والمتعطلون والجائعون والمرضى واليتامى وغيرهم فيصيبون فيها المأوى والطعام والكساء ويدفن فيها بعضهم عند وفاته ، هذا فضلا عن انها كانت بمثابة دور ضيافة وفنادق يلجأ اليها الكثير من الرحالة والزوار خاصة من الفقهاء وطلاب العلم • وكان الناس يعدون هؤلاء مواطنين مثلهم فيرحبون بهم ويحلونهم المكانة اللائقة وليس من شك في ان كثرة واجبات هذه المؤسسات القى على عاتقها عبئا كبيرا وكان ذلك سببا من اسباب تبعثر وضياع كثير من جهودها الاجتماعية والتعليمية في بعض الاحيان •

المؤسسات التعليمية الشعبية

لقد تمثلت المؤسسات التعليمية الشعبية بالكتاتيب والمدارس الدينية والربط والتكايا • وقد قامت هذه المؤسسات بدور مهم في حياة المجتمع العراقي ، وخاصة قبل نشوء المؤسسات التعليمية الحديثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر • فأما الكتاتيب فقد كانت منتشرة في انحاء مختلفة من العراق انتشارا كبيرا ، ومما ساعد على ذلك ان السلطات انذاك لم تكن تعد الخدمات التعليمية من اختصاصاتها وانما من اختصاص الافراد والجماعات

وكان التعليم في هذه المؤسسات مجانا ، الا ان الآباء عادة كانوا يسهمون في تقديم بعض الاموال الى المعلمين (الملالي) الذين يعلمون الاطفال القرآن الكريم والكتابة ، والحساب . كان الكتاب يدار من قبل معلم (الملا) ولا يشترط في هذا المعلم سوى ان يكون من حفظة القرآن الكريم وما يتطلب ذلك من معرفة القراءة والكتابة ويتم التدريس في حجرة صغيرة في مسجد او في دار الملا او في دكانه ، حيث يجلس الاطفال على الحصر واضعين بين ايديهم القرآن الكريم او احد اجزائه ، ويحمل كل طفل معه الى الكتاب ريشة او قلما ، وحبرا ولوحا يستعمله في كتابة (الالف باء) او العمليات الحسابية البسيطة . وكان هناك نوع من التعاون بين المعلم ووالد الطفل فكان القول المشهور اذا اودع الوالد ولده عند المعلم ان يقول له « لك اللحم ولي العظم » ويقصد بذلك ان للملا صلاحية واسعة في تربية الولد ، وقد يستعمل القسوة في معاملة الولد الذي يشذ في سلوكه او يقصر في دراسته ومن هنا فقد كان بعض الاطفال ينفرون من الكتاب . والتعليم في هذه المؤسسة حر لا يخضع لنظم او قوانين فالملا لا يلتزم بعدد السنوات في تربية الاولاد لانهم يومئذ يتقدمون حسب قابلياتهم فكانوا يختمون القرآن في فرص متفاوتة ، كل حسب ذكائه واجتهاده . وعملية التعليم تتم بتحفيظ الاطفال القرآن واصول الدين بتكرار مطرد وطريقة التعليم فردية اذ يعد كل طفل صفا قائما بنفسه . وهنا يمكن القول بان مبدأ مراعاة الفروق الفردية في عملية التعلم والتعليم من المبادىء التي تنادي به التربية الحديثة اليوم .

بالرغم من ان معظم المعلمين كانوا يعدون عملهم جزءا من واجباتهم الدينية الا انها كانوا يتسلمون اجورا من اولياء امور الاطفال وتسمى تلك الاجور (الخميسية) لانها تعطى كل يوم خميس ولم تكن الاجور محددة بل يقدم ذوو التلميذ ما تجود به انفسهم وقد يدفعون للمعلم اشياء عينية . ويمكث الطفل في الكتاب من مطلع الشمس حتى غروبها باستثناء فترة الغداء الذي كان

يتناوله في بيته ، وللملا مساعد يسمى (خلفه) واجبه الاشراف على الاطفال الجدد وحملهم على انجاز واجباتهم واخبار الملا بذلك ليعطيهم درسا جديدا ، وهكذا يستوعب الطفل القسم المطلوب منه لينتقل الى القسم الاخر .

ذلك بالنسبة الى البنين الذين ينصرفون بعد اكمالهم التعليم في الكتاب الى الحياة العملية لاكتساب حرفة من الحرف وقد يتجه قليل منهم الى المدارس الدينية ليكمل تعليمه . اما البنات فكن يرسلن الى الملاية او (الخوجة) وتعنى المعلمة بتعلمهن القرآن الكريم وواجبات الدين الحنيف وقد يكون الكتاب الذي تديره المعلمة مختلطا .

لم تقدم الحكومة اية مساعدات مالية الى هذه الكتاتيب التي ظلت تعمل وفق اساليب تعليمية متخلفة . ولكن التجارب وشكاوى الاهالي المتكررة ادت الى لزوم مراقبتها بقانون صدر في السنوات المتأخرة من عهود الاحتلال العثماني

لا توجد احصائية دقيقة عن عدد الكتاتيب في العراق خلال تلك المرحلة من تاريخ العراق الحديث ، الا ان ثمة احصائية تخمينية تشير الى انها كانت في ١٣٣٢–١٣٣٣هـ/١٩١٣–١٩١٤م لا تقل عن (٤٠٠) كتاب وكان للمسيحيين مؤسسات تعليمية دينية تشبه في الغرض الذي من اجله انشئت كتاتيب المسلمين ومدارسهم . وقد لعبت المدارس الدينية المنتشرة في الكنائس والاديرة دورا كبيرا في التعليم . ومعظم معلمي هذه المدارس من القسس والرهبان الشمامسة. وقد يتلقى تلاميذ هذه المدارس دروسهم باللغة العربية او باللغة السريانية .

اما المدارس الدينية التي وجدت في العراق خلال هذه الفترة فلم تكن سوى امتداد للمدارس العربية في العصور الوسطى الاسلامية وقد تنافس السلاطين والولاة وابناء الاسر الثرية في انشاء المدارس الدينية بدافع الاخلاص للدين . فكانوا يوقفون لها ما يلزم ويسهلون للناس تلقي العلوم النقلية منها وجعلوا في كل مدرسة خزانة كتب . كما كانوا يقدمون التسهيلات للطلاب

وكانت الدراسة في تلك المدارس خلوا من العلوم العملية التي تفيد صاحبها في مواجهة الحياة ولم تستطع ان تساير العصر بل بعكس ذلك تقهقرت الى الوراء خلال العهود الاخيرة من العهد العثماني لانها تجردت ، بالتدرج عن جميع العلوم العقلية وصارت تكاد لا تهتم بشيء غير العلوم النقلية . ولم تكن هناك مؤهلات ومتطلبات علمية تؤهل صاحبها للالتحاق بهذه المدارس ، وليس لها مدراء ولا اساتذة دائمون ولا اجور دراسية ، كما انه ليس للمدرسة موازنة ولا مدة معينة من السنوات للتخرج . والتعليم في هذه المدارس يمتاز بالحرية الواسعة النطاق ، فالطالب حر في اختيار الاستاذ الذي يريد ان يتلقى عليه موضوعا من المواضيع والدراسة فيها تستمر طوال السنة . اما الهدف من التعليم في هذه المدارس فلم يكن يعني اكتساب معرفة جديدة بل التمكن الى اقصى حد ممكن من المادة التي انتجتها الاجيال السالفة .

لقد كان المنهج التعليمي في المدارس الدينية ينظم على ثلاث مراحل وهي السطوح والفضلاء والخارجية (البحث الخارجي) . فالمرحلة الاولى تشمل دروس اللغة العربية والبلاغة والمنطق والكتب المعتمدة في دروس هذه المرحلة الاجرومية . اما المتقدمون من الطلبة فيدرسون العربية في جامع « المقدمة » والفية ابن مالك ومغني اللبيب والمطول للتفتازاني والحاشية للملا عباس . امـا مساق الدروس في المرحلة الثانية ، فيركز على درس المنهج والفقه وعلى الطالب ان يدرس مختلف المناهج التي توصل الى معرفة الادلـة والثبوت والاصول والشرائع والفروض . والكتب المعتمدة في دروس مختلف المناهج هي (المعلم) و (القوانين) و (الرسائل) و (الكفاية) اما الكتب المعتمدة في درس الفقه فهي كتاب « التبصرة » والشريعة و... والملمع والمكاسب والعروة الوثقى . ثم ينتقل الطالب بعد انهاء هاتين المرحلتين الى المرحلة الثالثة: الخارجية وليس في هذه المرحلة كتب خاصة معتمدة ، انما يحضر الطلاب دروسا ومحاضرات عامة يلقيها علماء كبار لهم شهرة دينية وفكرية بعدها يمنح الطالب الاجازة العلمية التي تجيز له التدريس مستقبلا بما اجيز فيه .

قامت المدارس الدينية وخاصة في بغداد والبصرة والنجف والموصل وسامراء بدور كبير في الحفاظ على اللغة العربية والتراث العربي الاسلامي . كما انها استطاعت ان تلبي احتياجات المجتمع العراقي حتى القرن التاسع عشر ، حيث برز من خريجي هذه المدارس عدد من العراقيين الذين لعبوا دورا كبيرا في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية انذاك .

اما ابرز المدارس الدينية التي كانت لها شهرة معروفة في العراق خلال عهود الغزاة الايلخانيين والجلائريين : المدرسة المستنصرية التي بقيت تمارس رسالتها التعليمية في بغداد حتى النصف الاول من القرن السابع الهجري / القرن الثالث عشر الميلادي والمدرسة النظامية التي تأسست سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م وبقيت حتى منتصف القرن الخامس عشر وكانت تسمى بـ (ام المدارس) والمدرسة الوفائية والمدرسة العلائية ومدرسة العاقولي والمدرسة السعودية والمدرسة البشيرية والمدرسة المرجانية ومدرسة الوزير اسماعيل والمدرسة المغيثية . اما في الموصل فقد استمرت المدرسة النورية والمدرسة النظامية والمدرسة البدرية بممارسة نشاطها العلمي . وفي واسط برزت المدرسة الشرابية ومدرسة الشيخ تقي الدين عبدالمحسن الواسطي ومدرسة ناصر الدين الصاحبي ، وفي اربيل كانت هناك مدرسة خفتيان ، هذا الى جانب بعض المدارس الدينية التي وجدت في النجف وكربلاء منها مدرسة النجف ومدرسة الروضة المقدسة في كربلاء ، ومن مدارس بغداد في عهد الحكم العثماني مدرسة الامام الاعظم والمدرسة المرادية ومدرسة جامع الاحمدية والمدرسة السليمانية ومدرسة جامع الخاتون والمدرسة القادرية . اما ابرز المدارس الدينية في الموصل خلال هذه الفترة فهي المدرسة الاحمدية ومدرسة يحيى باشا والمدرسة اليونسية ومدرسة الجامع النوري والمدرسة الخزامية والمدرسة الامينية والمدرسة الجرجسية . ومن مدارس البصرة الدينية : المدرسة الحللية والمدرسة الرحمانية والمدرسة السليمانية وفي النجف استحدث مدرسة الملا عبدالله والمدرسة الغروية ومدرسة المعتمد ومدرسة

القزويني ومدرسة الشيخ مهدي ال كاشف الغطاء، كما انتشرت المدارس الدينية في السليمانية وكركوك واربيل والحلة وغيرها من المدن العراقية .

لكن المؤسسات التعليمية الدينية فقدت اهميتها ، بعد تأسيس المدارس الرسمية الحديثة ، على النمط الاوربي ، فقلّ اقبال الطلاب عليها ، وصار عددها يتناقص وتأثيرها يضعف في المجتمع .. ومع هذا فقد ظلت تعمل جنبا الى جنب مع مؤسسات التعليم الرسمي الحديثة . وتشير الاحصائيات الى ان عددها في العراق اواخر العهد العثماني بلغ (٤٩) مدرسة دينية .

اما الربط والكتايا ، فهي مؤسسات دينية وتعليمية ، كان يلجأ اليها عادة المتزهدون من الصوفية وتحبس لها اوقاف عديدة من قبل مؤسسيها واصحابها ومريديها وتقوم في كثير من الاحيان بوظائف المسجد والمدرسة الدينية نفسها.. كما قد تتخذ فندقا للمسافرين من الطلبة والمتزهدين حيث تقدم الطعام لهم في اوقاتها الخاصة ، واصبحت في بعض الاحيان تؤوي الكسالى والعاطلين من الناس وقد كثرت الربط والتكايا في هذه الفترة لانتشار روح التصوف والزهد بين الناس بسبب سوء الاوضاع العامة التي كانوا يعيشونها . ولعل من ابرز الربط والتكايا في العراق، رباط الشيخ محمد بن السكران (ت٦٦٧هـ/١٢٦٨م) ورباط الشيخ عبدالقادر الكيلاني ورباط العميد بالجانب الغربي ورباط الخلاطية والرباط الجاكري بسامراء ورباط مالك بن دينار في البصرة . وقد انتشرت التكايا ، بكثرة في العراق خلال العهد العثماني ، منها ، التكايا النقشبندية والتكايا البكتاشية والتكايا القادرية .

المؤسسات التعليمية الحديثة

ظهرت في الدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، محاولات اصلاحية عديدة تناولت اجهزة الحكم والمؤسسات المختلفة وفي مقدمتها الجيش لذلك فان اقدم المدارس الحديثة التي تأسست ، كانت المدارس العسكرية ثم ظهرت بعد ذلك المدارس الملكية اي المدنية ، مما يدل على ان

انشاء المدارس الحديثة لم يتم وفق ترتيب منطقي بل تم وفق ترتيب عملـــي ينبثق عن تطورات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية •

تؤرخ بدايات التعليم الرسمي الحديث في الدولة العثمانية بالفترة الواقعة بين سـنتي ١٢٠٨ ــ ١٢١٠ هـ / ١٧٩٣ ــ ١٧٩٥ م حين انشـأ السلطان سليم الثالث (١٢٠٤ ــ ١٢٢٢ هـ / ١٧٨٩ ــ ١٨٠٧ م) عددا من المدارس العسكرية تدرس فيها العلوم الحديثة • وفي عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣ــ١٢٥٥ هـ /١٨٠٨ــ١٨٣٩ م) انشئت مدرستان عسكريتان عاليتان احداهما للطب والاخرى للهندسة•وفي حقل التعليم المدني اسس السلطان عددا من المدارس الابتدائية والثانوية كما حدثت عدة تغييرات في بنيان التعليم العثماني استهدفت تحديثه وانتزاعه من ايدي رجال الدين ووضعه تحت اشراف الدولة، كما صدرت سلسلة من الاجراءات المؤدية الى نشر التعليم الا ان المشاكل السياسية والعسكرية والمالية التي واجهت الدولة انذاك لم تسمح الا بانشاء عدد قليل من المدارس لهذا افسحت السلطات العثمانية المجال للارساليات التبشيرية الاجنبية المختلفة في الولايات العثمانية ومنها الولايات العراقية لانشاء مدارس خاصة لها •

ان حركة الاصلاحات العثمانية لم تترك اثارا واضحة في العراق الا في عهد الوالي مدحت باشا (١٢٨٦ ــ ١٢٨٩ هـ/١٨٦٩ ــ ١٨٧٢ م) ، ويعد من ابرز رواد الاصلاح المتنورين في الدولة العثمانية انذاك • فقد بدأ باصلاح الادارة الحكومية وذلك بتطبيق قانون الولايات لسنة ١٢٨١ هـ /١٨٦٤ م • كما حاول القيام باصلاحات العمل على ربط الولايات العراقية الثلاث بعضها مع البعض الاخر واقامة نظام حكومي مركزي •

ان اول مدرسة أنشأها مدحت باشا في بغداد هي المدرسة الرشدية العسكرية وذلك سنة ١٢٨٦ هـ/١٨٦٩ م ، ويمثل تأسيس هذه المدرسة خطوة اولى في تخريج ضباط عراقيين للجيش ، وقد قبل فيها التلاميذ المتخرجون من الكتاتيب

وكانت مدة الدراسة فيها أربع سنوات يدرس في اثنائها الطلاب : التركية والعربية والتاريخ والجغرافية والدين والحساب وكان معظم المدرسين فيها من الضباط الاتراك . ولكون المدرسة داخلية ومجانية ولعوامل اجتماعية تتعلق بالمركز الذي يحتله الضابط انذاك فان اقبال العراقيين على الدخول فيها كان كبيرا . ويمكن ان نضيف الى ذلك عاملاً آخر يتعلق برغبة الشباب العراقيين الذين كانوا ينفرون من الاوضاع السيئة التي يعيشونها ابان العهد العثماني في امتلاك اسباب القوة التي قد تساعدهم في تغيير هذه الاوضاع وخدمة قضيتهم العربية القومية . وتساعدنا هذه المسألة في تفسير الدور العظيم الذي قام به الضباط العراقيون من خريجي هذه المدارس في تشكيل الجمعيات والاحزاب السياسية العربية القومية في اواخر العهد العثماني وفي المسؤوليات التي تولوها عند بدء تكوين الدولة العراقية الحديثة سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١م .

اما خطوة مدحت باشا الثانية فكانت موجهة نحو تأسيس المدارس الرشدية الملكية اي المدنية . ففي سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م باشرت المدرسة الرشدية في بغداد تدريساتها . ولم تلق حركة التعليم باللغة التركية وهي لغة غريبة عن سكان العراق اهتماما كبيرا من عامة الناس ، على الرغم من محاولة السلطات الحكومية تشجيعهم على الدخول في المدارس لذلك اقتصرت المدارس الحكومية في البداية على ابناء الموظفين الاتراك وابناء الوجهاء ولقد شكلت هذه المسألة عائقاً امام تقدم المدارس وازدهارها في العراق .

كما أظهر مدحت باشا اهتماما بالتعليم المهني كمحاولة لاعداد عمال فنيين للمشاريع التي كان يزمع تأسيسها في العراق . وقد انشأ بعضها ولعل في مقدمتها معمل لتقشير الرز في بغداد ومصفاة للنفط في بعقوبة ومعمل لاصلاح السفن في البصرة ، بالاضافة الى مشاريع النقل المختلفة . وقد فتحت في بغداد مدرسة الصنائع في اوائل سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م وكان فيها فروع متعددة منها الحدادة والنسيج وصناعة الاحذية . وجهزت المدرسة بالمكائن والالات واستقدم

لها مدرسون فنيون . كما استعانت ببعض الحرفيين المهرة ويتلقى الطـلاب بالاضافة الى الدروس العملية دروسا تثقيفية عامة ابرزها التاريخ والجغرافية. وقد نجحت ادارة المدرسة في تغطية نفقاتها من عائد انتاجها وخاصة من الاقمشة والاحذية ، .

هذا وقد تأسست مدارس مماثلة للصنائع في الموصل وكركوك وكانت جميعها مدارس مهنية انتاجية الا ان العناية بهذه المدارس اخذت تقل بعد مغادرة مدحت باشا العراق بحيث اهملت وانخفض عدد طلابها وقل الاقبال عليها .

لم تكن خطوات مدحت باشا التعليمية سوى البدايات الاولى لوضـع اسـس نظـام التعليـم الرسـمي الحديث في العـراق ، ففـي سـنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م اسـس خلفـه الوالـي رديـف باشـا (١٢٨٩ ـــ ١٢٩١ هـ / ١٨٧٢ ـــ ١٨٧٤ م) اول مدرسـة اعدادية زودت بالمدرسـين ومعظمهم من ضباط الجيش . اما المدارس الابتدائية فانها لم تنل من السلطـة العثمانية الاهتمام الكافي . وقد يرجع ذلك الى قلة الامكانات الفنية والمالية لنشر هذا النوع من التعليم على نطاق واسع كما ان نقص المعلمين كان سببا اخر . وقد واجهت سياسة اهمال المدارس الابتدائية انتقـادات عنيفة على صفحات الجرائد المحلية اذ شعر العراقيون بان مافتح في بلادهم من مدارس ليس كافيا لذلك ظلت الكتاتيب تقوم انذاك بمهمة التعليم الابتدائي (جريدة الزوراء ١٠ جمادى الاخرة ٢٨٨ هـ/١٨٧١م)، اما مدارس البنات فلم تنل من الحكومة في هذه الفترة اي اهتمام يذكر فقد كانت العادة ان تقبل البنـات الراغبات في التعليم في مدارس البنين الابتدائية .

لقد حظي التعليم منذ سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م باهتمام ملحوظ . اذ تأسست بضعة مدارس رسمية خارج مدينة بغداد، وتأسست مجالس للمعارف تضم مديرا للمعارف وبضعة موظفين بينهـم المحاسـب والكاتب وامـين الصندوق . كما تألفت لجان للمعارف في بعض الالويـة والاقضية .

لم يكن معظم الموظفين الذين ارسلتهم وزارة المعارف العثمانية لادارة شؤون المعارف في الولايات العراقية من ذوى الكفاية والمقدرة بل كانوا على حظ قليل من المعلومات والثقافة ، وقد اثر ذلك بدون شك على حسن سير العملية التعليمية اذ لم تكن دوائر المعارف جديرة بتحمل ما يتطلبه التعليم من عظم الواجب والمسؤولية .

كما ان ميزانيات المعارف في الولايات العراقية ظلت تشكو من نقص وعجز في امكاناتها المالية فقد كانت تشكل جزءا ضئيلا من ميزانية الولاية وكانت لميزانية المعارف بالاضافة الى المبالغ المخصصة من الميزانية العامة والاجور التي تستحصل من الطلاب في المرحلة الاعدادية جهتان مهمتان اولاهما كل وقف زال عنه الشرط ، والثانية ان يخصص ثلث عن العشر المستحصل من الزراع للمعارف ، كما كانت تضاف ضريبة قدرها ٥٪ على الاملاك والاراضي باسم (اعانة المعارف) ، لذلك قاد بعض الولاة حملات لجمع التبرعات من الاهالي بقصد انشاء او تمشية امور المدارس .

لقد شهدت الفترة التي تبدأ بسنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م اهتماما بانشاء المدارس الابتدائية خاصة بعدما ادرك المسؤولون بان هذه المدارس هي الاساس في نظام التعليم الرسمي لذلك فتحت اربع مدارس ابتدائية في بغداد هي مدارس : الحميدية ، جديد حسن باشا ، العثمانية ، الكرخ . وتأسست بضعة مدارس ابتدائية في الموصل والبصرة .

كما تأسست في هذه الفترة مدارس خاصة (اهلية واجنبية) منها المدارس التي انشأتها المؤسسات التبشيرية . وازداد الاقبال على هذه المدارس بعد ان دخلت اللغة العربية والعلوم الحديثة ضمن برامجها الدراسية المقررة وكانت هذه المدارس تتلقى مساعدات مالية من بعض الحكومات الاوربية وخاصة بريطانيا وفرنسا . وعلى الرغم من بعض الجوانب السلبية في تلك

المدارس والمتمثلة بالارتباطات السياسية الاوربية الا انها اسهمت في دفع الحركة التعليمية في العراق • كما كانت حلقة وصل بانجازات الحضارة الغربية الحديثة •

لقد شهدت الحركة التعليمية في العراق قبيل الانقلاب الدستوري العثماني في ٢٣ جماد الثاني ١٣٢٦ هـ / ٢٣ تموز ١٩٠٨ م احداثا مهمة لعل في مقدمتها تأسيس اول مدرسة رشدية حديثة للبنات سنة ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م في بغداد • وقد سجلت فيها عند افتتاحها (٩٥) طالبة ثم فتحت بعد ذلك مدارس مماثلة في الموصل والبصرة • اما منهج هذه المدارس فكان يتألف من تعليم اصول الدين ، والقرآن الكريم ، الحساب ، الجغرافية ، التاريخ ، اللغات التركية والعربية والفرنسية هذا فضلا عن تدريبهن على النقش والتطريز وحسن الخط ، وقد وجدت السلطات التعليمية صعوبة كبيرة في تهيئة المعلمات لهذه المدارس فاستفادت من زوجات الضباط والموظفين الاتراك وزوجات بعض الاجانب وخاصة في تدريس اللغات والموضوعات العلمية • ان فتح مدارس ابتدائية للبنات لا شك يعد خطوة متقدمة تتميز بالجرأة خاصة اذا فهمنا وضع المجتمع العراقي في اواخر القرن التاسع عشر اذ كان الموقف تجاه تعليم البنات سلبيا في البداية •

اما الحدث الثاني ، فهو فتح دور للمعلمين في بغداد والموصل والبصرة وذلك اثر التوسع الذي حدث في التعليم الابتدائي وظهور الحاجة الى ملاكات تعليمية ، وكانت مدة الدراسة في هذه الدور ثلاث سنوات بعد المرحلة الرشدية ثم زيدت الى اربع سنوات ، وابرز الدروس في دور المعلمين اصول التدريس والرياضيات والتاريخ والعلوم الطبيعية وثمة حدث ثالث يتعلق بفتح مدرسة (كلية) للحقوق في الاول من رمضان ١٣٢٦ هـ / ايلول سنة ١٩٠٨ بعد ان شعرت السلطات بحاجتها الى حقوقيين واداريين مؤهلين علميا •

وبعد الانقلاب الدستوري في ٢٣ جماد الثاني ١٣٢٦ هـ / ٢٣ تموز ١٩٠٨ م ، شهد العراق حركة محدودة النطاق على الصعيدين الرسمي والشعبي لانشاء المدارس الحديثة • فعلى الصعيد الرسمي اظهر الاتحاديون اهتماما بشؤون التعليم واتخذوا من المدارس وسيلة لنشر افكار ومباديء جمعية الاتحاد والترقي (الحزب الحاكم انذاك) • وقد صدرت الاوامر من وزارة المعارف بتعيين حسين رفيق مديرا لمعارف ولاية بغداد بعد ان بقي هذا المنصب شاغرا منذ سنة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م وكان يشغل بالوكالة • كما تم فتح العديد من المدارس الابتدائية والرشدية • وقد شهد تعليم البنات توسعا اذ فتحت مدارس ابتدائية للبنات في مناطق عديدة منها بغداد وعنه والسماوة والكاظمية وخانقين وكربلاء والنجف والحلة والديوانية وفي عهدهم حظيت قضايا الاشراف التربوي بالاهتمام كما دخل النشاط اللاصفي الى المدارس الرسمية في العراق لاول مرة وبعد سنة ١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م دخلت مادة الرياضة البدنية الى المدارس الرسمية • وقد عرف العراقيون الكشافة سنة ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م •

وعلى الصعيد الشعبي ادرك العراقيون حاجة بلدهم الملحة الى المدارس • لذلك ارتبطت حركة الدعوة الى نشر التعليم بحركة اثارة الوعي القومي العربي ذلك ان هذه الحركة تهدف الى تحقيق امرين اولهما احياء تراث العرب الثقافي وخاصة اللغة العربية وثانيهما بعث كيانهم السياسي ولقد لعبت طبقة المثقفين العراقيين التي نمت في العقدين الاخيرين من الحكم العثماني وتألفت من بين الضباط والموظفين والمحامين والاطباء والمعلمين وطلبة المدارس العالية ورجال الادب والثقافة دورا كبيرا في هذا الاتجاه الذي يبرز بشكل واضح في تأسيس مدرستي « تذكار الحرية » في البصرة و «الترقي الجعفري العثماني» في بغداد •

افتتحت المدرسة الاولى في البصرة في ٢ ذي القعدة ١٣٢٦ هـ / ٢٧ تشرين الثاني ١٩٠٨ م وكان مؤسسها سليمان فيضي وهو محام موصلي يعمل في الصحافة ويستوطن البصرة يهدف الى جعلها على غرار المدارس الاهلية العربية في بيروت وهي اول مدرسة اعدادية اهلية يكون التدريس فيها باللغة العربية • وقد لاقت المدرسة اقبالا طيبا من الطلاب الا ان السلطات الاتحادية في البصرة قامت بالسيطرة عليها وتوجيهها وجهة اخرى لا تنسجم مع رسالتها القومية والتعليمية، اما المدرسة الثانية فقد اسسها جماعة من المثقفين امثال جعفر ابو التمن ومهدي الخياط ورؤوف القطان وعلي البازركان وتكمن وراء انشاء هذه المدرسة فضلا عن الاهداف التعليمية عوامل سياسية واغراض تجارية تتعلق بتهيئة كتاب ومحاسبين من ابناء الوطن يتقنون اللغات الاجنبية وعلم المحاسبة الحديثة • وقد فتحت المدرسة في ١٧ ذي القعدة ١٣٢٦ هـ / ١٢ كانون الاول ١٩٠٨ م وابتدأت الدراسة فيها بصفوف ابتدائية ثم رشدية وتوسعت الى اعدادية وقد قامت المدرسة بدور بارز في تنوير الاذهان ونشر الوعي السياسي حينما اصبحت فيما بعد منتديا سريا تجتمع فيه العناصر الوطنية العاملة من اجل التخلص من النير الاجنبي •

اتسعت حركة المطالبة الشعبية بتأسيس المدارس وجعل لغة التدريس فيها العربية وقد اتخذت هذه الحركة من الصحافة والمجالس العمومية للولايات ومجلس المبعوثان (النواب) ميادين لاثارة هذه المطالب الحيوية وقد اضطرت السلطات التعليمية الى اتخاذ بعض الخطوات لرفع مستوى كفاءة الجهاز التعليمي في العراق وتحقيق بعض الانجازات في مجال تنظيم التعليم ، لكنها اطلقت العنان امام المؤسسات الاجنبية لتأسيس المدارس واشترط فقط عليها الحصول على الرخصة الرسمية وقد تأسست في هذه الفترة بضع مدارس

اجنبية (فرنسية وايرانية والمانية واميركية) في مناطق مختلفة من العراق •
كما التفتت الى الكتاتيب فأمرت باغلاق معظمها على اساس ان « اماكنها مغايرة لقواعد حفظ الصحة والتعليم فيها ليس على اصول مرعية ودعت الى نقل تلاميذ تلك الكتاتيب الى المدارس الابتدائية وشكلت لجنة تتولى اجراء امتحان للراغبين في فتح كتاتيب لتعليم الصبيان القرآن الكريم والخط والحساب •

عين ناظم باشا واليا على بغداد في جمادى الاولى ١٣٢٨ هـ / نيسان ١٩١٠ م ومنح صلاحيات واسعة شملت ولايتي الموصل والبصرة وفي عهده تنامت الدعوة الى نشر التعليم وجعله في المدارس الابتدائية باللغة العربية وتحملت الصحف عبء المطالبة بذلك ونذكر من هذه الصحف جريدتي الرقيب وصدى بابل في بغداد وجريدتي نينوى والنجاح في الموصل • ولم يبق ناظم باشا في منصبه طويلا اذ استدعى الى استانبول في ربيع اول ١٣٢٩ هـ/شباط ١٩١١ م وعين جمال بك واليا على بغداد في ٤ رمضان ١٣٢٩ هـ /٣٠ آب سنة ١٩١١ م •

نشر جمال بك بيانا حول الوضع في العراق واشار الى التعليم مؤكدا عزم حكومته على اصلاح المدارس الرسمية وتطويرها• وفي اوائل ١٣٣١ هـ/ ١٩١٢م اصدرت وزارة المعارف قرارها بالموافقة على ان يكون التدريس في المدارس الابتدائية باللغة العربية الا انها سرعان ماتراجعت عن قرارها• عندئذ ازدادت حدة المعارضة لجمعية الاتحاد والترقي ولفلسفتها القائمة على المركزية وتتريك العناصر التي تتألف منها شعوب الدولة العثمانية وقد اكتشفت السلطات المحلية سنة ١٣٣١هـ/١٩١٢م نشاطا سياسيا سريا بين طلاب كلية الحقوق، لذلك قرر الوالي جمال بك غلق الكلية لكن محاولته هذه واجهت معارضة شديدة فقد احتج عدد من مثقفي بغداد وطلاب الكلية الذين الفوا باسم (جمعية حقوق بغداد)

للدفاع عن مستقبل كليتهم كما ارسلوا برقيـات احتجاج الى المسؤولين في استانبول •

كشف الاتحاديون سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى عن سياستهم التركية المتعصبة الرامية الى محو الشعور القومي غير التركي وقد اثارت هذه السياسة ردود فعل معاكسة عند العرب اذ نبهتهم الى كيانهم الثقافي والسياسي واتخذت ردود الفعل تلك اشكالا عديدة ومنها تأسيس تنظيمات وعلى الصعيد التعليمي ظهرت في احدى الصحف سلسلة من المقالات التي تنتقد السياسة التعليمية العثمانية • فقد كتب سليمان فيضي مقالات عديـدة في جريدة الدستور البصرية سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م اشار فيها الى بعض الجوانب السلبية في التعليم ومنها عدم العناية بتدريس اللغة العربية وارهاق الطلاب بكثرة الدروس المعطاة باللغة التركية وزيادة عدد المعلمين الاتراك وترجيح المحسوبية في اختيارهم على الكفاءة وكثرة الكتب في المرحلة الابتدائية اذ تبلغ احد عشر كتابا مدرسيا هذا بالاضافة الى عدم كفاية تلك المدارس من ناحية العـدد لمواجهة الحاجات المحلية ، كما استفادت المعارضة من اصدار الاتحاديين قانون الولايات الجديد سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م لتوضيح عدم موافقتها عليه ومطالبتها باعطاء المجلس العمومي صلاحيات واسعة لتطوير الولاية اقتصاديا واجتماعيا وتعليميـا وعندمـا وزعـت حركـة المعارضـة منشـورات عدائية ضـد الاتحاديين ، حذرت الحكومة المعلمين من الطعن باعمال الحكومة واجراءاتها•

استجاب الاتحاديون لبعض مطالب المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس بـين ١٢ ــ ١٨ رجب ١٣٣١هـ / ٢٣ حزيران ١٩١٣ اذ اصـدر الباب العالـي في رمضـان ١٣٣١هـ / آب ١٩١٣ م قرارا يقضي بان يكون التدريـس في دور المعلمـين وكليـة الحقـوق والمـدارس الاعداديـة باللغة العربية اما دروس التاريخ والجغرافية فتدرس باللغة التركية • ولكن السلطات المحلية لم تكن جادة في تطبيق القرار وعندما دعت الصحف الوالي

حسين جلال الى الاهتمام بالامر تعلل بقلة المعلمين الذين يستطيعون التدريس باللغة العربية وبقلة الكتب المدرسية المؤلفة بالعربية لذلك تألفت لجان لانتقاء الكتب المدرسية منها كتاب (مختصر التاريخ الاسلامي) الذي الفه محيي الدين الناصري وكتاب (مفتاح الهندسة) لحمدي الاعظمي .

كما قررت وزارة المعارف في صفر ١٣٣٢هـ/كانون الاول ١٩١٣م تحويل المدرسة الاعدادية في بغداد الى مدرسة سلطانية ، والمدرسة السلطانية تشبه المدارس الثانوية الفرنسية المعروفة بالليسيه لكن التدريس فيها باللغة التركية وقد ضمت المدرسة (١٤) صفا . وهكذا أصبح في العراق مدرستان سلطانيتان الاولى في بغداد والثانية في كركوك ، كما فتحت مدرسة اعدادية للبنات في ٢٧ صفر ١٣٣٢ هـ /كانون الثاني ١٩١٤ م وفي مطلع السنة الدراسية ١٣٣٣ - ١٣٣٤ هـ / ١٩١٤ - ١٩١٥ م صدر قانون ينظم عملية التدريس في المدارس الابتدائية وفي اواخر ١٣٣٤ هـ/١٩١٥ م عين حكمت سليمان مديرا لمعارف بغداد وهو أول عراقي يعين بهذا المنصب ، وكان في الوقت ذاته عميدا لكلية الحقوق ، وقد نجح حكمت سليمان بجهوده الشخصية في تأمين الموارد المالية لتمشية امور المعارف اذ أن الحكومة العثمانية لم ترصد للمعارف خلال هذه الفترة اية مبالغ بسبب ظروف الحرب العالمية الاولى ودخولها فيها في ٨ ذي الحجة ١٣٣٢ هـ /٢٩ تشرين الاول ١٩١٤ م ومع هذا فقد حرص حكمت سليمان على استمرار النشاط التعليمي حتى ١١ آذار ١٩١٧ حين احتل الانكليز بغداد .

اما مدارس البصرة فقد اصبحت بعد الاحتلال البريطاني لها في ٣ محرم ١٣٣٣ هـ / تشرين الثاني ١٩١٤ م تحت سيطرة السلطات المحتلة والتي استعانت بـ (جون فان ايس) مدير مدرسة الرجاء العالي الامريكية للبنين والتي فتحتها البعثة العربية التبشيرية الاميركية (Arabian Mission) سنة ١٣٣١ هـ/١٩١٢ م لادارة شؤونها .

وواصلت مدارس الموصل نشـاطها التعليمي وسـط ظروف الحرب القاسية بعد احتلال البصرة وبغداد وكانت الظاهرة المميزة في تلك المدارس خلال هذه الفترة هي تنامي النشاط القومي العربي وخاصة في دار المعلمين ، ومدرسة دار العرفان الابتدائية فلقد أتخذ المعلمـون القوميون مـن هاتين المؤسستين مكانا لنشر الفكرة العربية وبث الشعور المعادي للاتحاديين وقد استمرت هذه النشاطات السياسية حتى احتلال الانكليز للموصل في صـفر ١٣٣٧ هـ/تشرين الثاني ١٩١٨ م .

كان النظام التعليمي في العراق مركزيا حيث كانت وزارة المعارف هي المسؤولة عن مفردات المنهج لكل مدرسة وعن جداول الدروس الاسبوعية والكتب المدرسية ، وتعيين مدراء المدارس ومعلميها وتهيئة ميزانية المعارف ولم يكن لمجالس المعارف الا الاسم ، ومما يلاحظ عليها ان معظم اعضائها كانوا من رجال الدين او من الشخصيات المحافظة ، بأستثناء بعض الفترات التي كان فيها من اعضاء المجالس رجال متنورون امثـال جميل صـدقي الزهاوي وفهمي المدرس وحكمت سليمان ، لذلك لم تتح لتلك المجالـس ممارسة وظيفتها في ترقية المعارف في العراق وفقا لما تقتضيه تطورات العصر ، وقبل تأسيس دور المعلمين في العراق كان معظم المعلمين من الاتراك ومنهم من ذوي القابليات العلمية المحدودة فضلا عن كونهم لا يحسنون غير اللغة التركية ، لذلك حدثت النفرة بينهم وبين تلاميذهم فقل اقبال الاهالي على المدارس الرسمية التي كانت تدرس باللغة التركيـة وازداد الاقبـال على المدارس الاهلية والاجنبية لعنايتها آنذاك باللغة العربية وارتفاع المستوى التعليمي فيها ، هذا من جهة ومن جهة اخرى لم يطرأ على الواقع التعليمي في العراق الا تغييرات بسيطة ومحدودة ذلك أن المؤسسات التعليمية الحديثة ، على قلتهـا حيث لـم تـزد فـي السـنة الدراسـية ١٣٣٢ ــ ١٣٣٣ هـ/ ١٩١٣ ــ ١٩١٤ م عـن (١٦٨) مؤسسـة فيهـا ٧٩٨٨ طالبا و (٤٠٢)

مدرسـا ، ظلـت متركـزة فـي المـدن الكبـيرة والمراكـز الحضـرية التـي لـم يشكل سكانها سـنة ١٣٢٣ هـ /١٩٠٥ م الا ٢٤٪ من سـكان العراق البالغ عددهم آنذاك (٢٫٢٥٠٫٠٠٠) نسمة في حين يشكل سـكان القرى والارياف ٧٦٪ من سكان العراق وهكذا حرم هـؤلاء من التعليم حرماناً كبيرا • فضلا عن ذلك ان المناهج والكتب المدرسية السائدة لم تكن تمت بصلة الى واقع المجتمع العراقي ، كما ان الصفة النظرية الادبيـة غلبت عليها ، اذ ظل الهدف من التعليم خلال العهد العثماني هو اعـداد موظفين للدولة ولم يكن للتعليم في هذه المرحلة فلسفة تربوية واضحة كما ان مساهمة الدولة في مجال نشر التعليم بين السكان كانت ضعيفة ، ليس من حيث انتظام الدراسة والمستوى التعليمي اذ كانت المدارس الرسمية أقل انتظاما ومستوى عما كانت عليه المدارس الخاصة وانما من حيث تفوق عدد تلاميذ المدارس الخاصة على مجموع تلاميذ المدارس الرسمية فقد ضمت المدارس الابتدائية الخاصة مثلا سنة١٣٣٣هـ/١٩١٤م(٨٠٢٠) تلميذا و(٢١٦٣) تلميذة ، ولم يكن عدد تلاميذ المدارس الرسمية بمختلف مراحلها يزيد عن (٧٣٧٨) تلميذا و (٦٠٠) تلميذة ، وهذا يكشف مدى تقصير واهمال السلطات العثمانية في مجال التعليم ويمكن ان نشير كذلك الى ان أغلب المدارس الرسمية على قلتها يتركز في مراكز المـدن وهي في الغالب كذلك مخصصـة للبنين دون البنات • فعلى سبيل المثال كان قبيـل الحرب من بين الـ (١٦٠) مدرسـة ابتدائية (١٣) مدرسة للبنات ، منها (٧) في بغداد و (٤) في الموصـل و (٢) في البصرة •

هذا ولم يكن للعراقيين خلال هذه الفترة نصيب ملحوظ من البعثات العلمية فبين سنتي ١٣١٨ ــ ١٣٣٦ هـ /١٩٠٠ ــ ١٩١٧ م لـم يتخرج من الجامعات الاجنبية سوى (١١) طالبا فقط تخصصوا في حقـول الطـب والصيدلـة والقانـون لذلـك اتجـه الاثريـاء من السـكان الى ارسـال اولادهـم

الـى الخـارج لاكمـال تحصيلهم العالـي • وقد بلـغ عـدد العراقيـين المتخرجين من الكليـات العثمانية غير العسكرية ، في استانبول بين ١٣١٨ ــ ١٣٣٦ هـ / ١٩٠٠ ــ ١٩١٧ م (٦٠) متخرجا تخصص (٢٧) منهم في الطب و (٢٥) في القانون و (٥) في الادارة و (٣) في الهندسة •

وبالرغم من تعدد قنوات التعليم في العراق فان عدد المتعلمين في العراق لم يزد على ١٪ من مجموع السكان عند انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وهذه النسبة الضئيلة جدا استطاعت نتيجة عوامل داخلية وخارجية ان تكون مع بعض الضباط في مجتمع متخلف ، النواة التي تجمعت حولها الحركة العربية القومية في العراق قبيل الحرب العالمية الاولى وفي السنوات اللاحقة • كذلك ان مواطن الضعف والقصور والنقص التي كان عليها الجهـاز التعليمي في العراق أبان عهود الاحتلال العثماني ، واستمرت خلال الاحتلال البريطاني ١٣٣٣ ــ ١٣٣٧ هـ /١٩١٤ ــ ١٩١٨ م وهذا خلف تركة ثقيلة ، كان علـى المسؤولين الوطنيين العراقيين بعد تشكيل الدولةالحديثة اواخر سنة١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠ ، ان يواجهوها وان يبذلوا جهودا عظيمة من أجل بناء مؤسسة تعليمية وطنية متطورة تلبي احتياجات السكان وترتفع بمستواهم التعليمي والثقافي •

المصـــادر

١ ــ جعفر خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ، (بغداد ، ١٩٦٨) .

٢ ــ د . ابراهيم خليل احمد ، تطور التعليم الوطني في العراق (١٨٦٩ ــ ١٩٣٢) (البصرة ، ١٩٨٢) .

٣ ــ د . عماد عبدالسلام رؤوف ، الموصل في العهد العثماني (النجف ١٩٧٥)

٤ ــ د . عبدالوهاب القيسي ، حركة الاصلاح في الدولة العثمانية وتأثيرها في العراق ١٨٣٩ ــ ١٨٧٧ ، بغداد ، ١٩٦١

٥ ــ د. عبدالعزيز سليمان نوار ، الشعوب الاسلامية بيروت ١٩٧٣) .

٦ ــ ساطع الحصري ، مذكراتي في العراق ، جـ١ ، ١٩٢١ ــ ١٩٢٧ بـيروت

٧ ــ غانم سعيد العبيدي ، التعليم الاهلي في العراق ، بغداد ١٩٧٠ .
١٩٦٧) .

٨ ــ عبدالله فهد النفيسي ، تطور العراق السياسي الحديث ، (بيروت ١٩٧٣)

٩ ــ بدري محمد فهد ، تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ، (بغداد ١٩٧٣)

١٠ــ عباس العزاوي ،تاريـخ العــراق بين احتلالـين ، جـ١ ــ ٤ (بغـداد ١٩٣٥ ــ ١٩٤٩).

١١ــ سليمان صايغ ، تاريخ الموصل ، جـ٢ ، (بيروت ١٩٢٨)

١٢ــ محمد فاضل الجمالي ، وجهـــة التربية والتعليم في العالـم العربي ، (بغـداد ١٩٣٥) .

١٣ــ محمد فاضل الجمالي (التعاون بين المدرسة والاهلين) مجلة المعلم الجديد السنة ٤ ، العدد (١٦) كانون الاول ١٩٣٩ .

١٤ــ سعيد الديوهجي ، (المكاتب في العصر المظلم) مجلة المعلم الجديد السنة (١٠) العدد (٦) كانون الاول ١٩٤٦

١٥- سعيد الديوه‌جي (مدارس الموصل في العهد العثماني)، (الموصل ١٩٦٤).
١٦- سعيد الديوه‌جي ، مدارس الموصل في العهد الاتابكي بغداد ١٩٥٨ .
١٧- مجلة المعرفة العدد ٣ ، كانون الاول ١٩٧٨
١٨- عبدالرزاق الهلالي ، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ - ١٩١٧ (بغداد ، ١٩٥٩) .
١٩- عبدالرزاق الهلالي ، معجم العراق جـ ١ ، بغداد ١٩٥٣ .
٢٠- سليمان فيضي ، في غمرة النضال ، (بغداد ١٩٥٢)
٢١- صبيحة الشيخ داود ، اول الطريق الى النهضة النسوية في العراق (بغداد ١٩٥٨)
٢٢- نصير الجادرجي (ناشر) من اوراق كامل الجادرجي (بيروت ١٩٧١)
٢٣- ابراهيم الدروبي ، البغداديون ، اخبارهم ومجالسهم (بغداد ١٩٥٨)
٢٤- محمود شكري الالوسي ، تاريخ مساجد بغداد واثارها (بغداد ١٢٤٦ هـ)
٢٥- داود الجلبي ، مخطوطات الموصل ، جـ١ (بغداد ١٩٢٧)
٢٦- د . يوسف الدين ، الشعر العراقي الحديث واثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه (القاهرة ١٩٦٥)
٢٧- ابراهيم الوائلي ، (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ، (بغداد ، ١٩٦١)
٢٨- صالح فليح حسن ، جغرافية التعليم الابتدائي في العراق ، (بغداد ١٩٧٩) .
٢٩- جاسم محمد حسن ، العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الاداب / جامعة بغداد ١٩٧٦) .
٣٠- جاسم الحياني ، التعليم الصناعي في العراق (بغداد ١٩٦٨) .
٣١- حنان عيسى الجبوري ، مشكلات ادارة المدرسة الثانوية في العراق (بغداد ١٩٧٠) .
٣٢- سلمى محمد علي اليوزبكي ، مشكلات تعليم المراة على المستوى الجامعي، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الاداب في جامعة بغداد ١٩٧٠.
٣٣- عبدالمنعم الغلامي ، اسرار الكفاح الوطني في الموصل ١٩٠٨ - ١٩٢٥ ، جـ١ (بغداد ١٩٥٨) .

٣٤ـ عبدالله الفياض ، الثورة العراقية ، (بغداد ١٩٦٣)

٣٥ـ علي البازركان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية ، (بغداد ١٩٥٤)

٣٦ـ عبدالرزاق الدراجي ، جعفر أبو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق ١٩٠٨ ـ ١٩٤٥ ، (بغداد ١٩٧٨)

٣٧ـ د . نافع توفيق عبود ، مدارس المدن العراقية خارج بغداد في عهد الاحتلال الايلخاني مجلة دراسات التاريخ والاثار ، العدد ١ ، ١٩٨١ .

٣٨ محمدبن عبدالله بن ابراهيم اللواتي الطنجي (ابن بطوطة) تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (بيروت ، ١٩٦٠) .

٣٩ـ ياسين بن خيرالله الخطيب العمري ، منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء (النجف ١٩٦٥) .

٤٠ـ عبدالامير هادي العكام ، تاريخ حزب الاستقلال العراقي (١٩٤٦ ـ ١٩٥٨)

٤١ـ د . مصطفى جواد ، تاريخ المدرسة النظامية ، مجلة سومر ، المجلد ٩ ، بغداد ١٩٥٣ ـ ص ٣١٧ .

٤٢ـ د . مصطفى جواد و د . احمد سوسة دليل خارطة بغداد قديما وحديثا (بغداد ١٩٥٨) .

٤٣ـ غسان عطية « التنظيم الحزبي في العراق قبل الحرب العالمية الاولى » مجلة دراسات عربية ، بيروت السنة ١٢ تشرين الاول ١٩٧٢

٤٤ـ حميد احمد حمدان التميمي ، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني (بغداد ١٩٧٩).

٤٥ـ علاءالدين جاسم البياتي « انماط الحياة الاجتماعية في العراق » مجلة العلوم الاجتماعية السنة (١) العدد (٢٢) تموز ١٩٧٨ .

٤٦ـ فؤاد حسن الوكيل ، جماعة الاهالي في العراق ١٩٣٢ ـ ١٩٣٧ بغداد ١٩٧٩.

٤٧ـ Falih A. Al-Shaikhly, Education and Development in Iraq, a dissertation Unpublished, University of Massachuestts, April, 1974.

٤٨ـ Carl Brookelman, History of the Islamic Peoples (tr) by Carmichael and Perlmann, (London, 1952).

٤٩- John J. Diskin, The Genesis of the Government Educational System in Iraq. A thesis Unpublished. University of Pittsburgh, 1971.

٥٠- Abdul Wahhab Al Qaysi, The Impact of Modernization on Iraqi Society during the ottoman Eva, 1869 - 1917. A dissertation ... Unpublished, University of Michigan, 1958.

المبحث الثاني

الطباعة

نشأتها وآثارها

شهد العراق تأسيس عـــدد من المطابـــع منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد سجل تطور الطباعـــة الصحفية في اوربا انجازا تاريخيـــا مدهشا ، الا أن ذلك التطور لم يصل الولايات العثمانية والولايات العراقية الا متأخرا ، واذا علمنا ان اول مطبعة استخدمت الحروف العربية أنشئت في روما سنة٩٢٠هـ/١٥١٤م ادركنا كم من الوقت احتاجته الطباعة لكي تصل الى العراق . ويعزى تأخر ظهور الفن الطباعي في العراق الى تدهـــور اوضـــاعه العامة خلال السيطرة العثمانية . كما ان السلطة العثمانية حرصت على فرض العزلة على الولايات العربية ومنها العراق في كل ما هو حديث ، خشية ان يهب العربي الرازح تحت سيطرتها مطالبا بالحريـــة والاســـتقلال والحيـــاة الكريمة ، فكان ان تأخرت الاقطار العربية ثقافيا ، وبقيت خالية من الطباعة فترة طويلة رغم انتشارها في الاقطار الاخرى .

ويتفق مؤرخو الطباعة في الوطن العربي على ان سنة١٠١٩هـ/١٦١٠م كانت

فاتحة عهد المنطقة بالطباعة حين انشئت اول مطبعة في ديرمار قزحيا بلبنان ، كما ظهرت الطباعة في حلب بصورة مبكرة اذ تأسست فيها اول مطبعة سنة ١٧٠٢ولم تعرف مصر الطباعة الا اثناء الغزو الفرنسي لها سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، حين أسس نابليون بونابرت اول مطبعة فيها قامت بطبع المنشورات والكتب والاوامر الرسمية وقد ظل العراقيون يتحرقون شوقا للطباعة بالنظر لما لمسوه من فوائدها ولانتشار الاخبار عن وجودها في بلاد الشام ومصر ... ويرى بعض المؤرخين ان اول مطبعة دخلت العراق كانت في عهد الوالي داود باشا (١٢٣٣ ـ ١٢٤٧هـ/ ١٨١٧ ـ ١٨٣١م) وهو معروف بحبه للعلم والثقافة ورغبته في تطوير العراق آنذاك وان اول كتاب طبع فيها كان سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م وعنوانه « دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء » لمؤلفه الشيخ رسول حاوي الكركوكي الا ان سقوط داود باشا وتدهور الاوضاع بعده ادى الى أهمال تلك المطبعة التي كانت تسمى (مطبعة دار السلام) فأندثرت ولم نجد أو نسمع بكتب اخرى طبعت فيها . وقد رجح الدكتور عبدالعزيز نوار ، المؤرخ المصري المعروف باهتمامه بتاريخ العراق الحديث ، عدم وجود هذه المطبعة باعتبار ان طبع كتاب واحد فقط وهو « دوحة الوزراء » أمر يثير الشك ولا يستبعد ان يكون الكتاب المذكور قد طبع في بعض المطابع الحجرية خارج العراق .

لقد ارتبطت حركة الطباعة في العراق بنشاطات الارساليات التبشيرية المختلفة ولعل الآباء الدومنيكان الذين قدموا الموصل سنة ١١٦٤هـ/١٧٥٠م كانوا من اوائل المهتمين بأدخال الطباعة الآلية الحديثة اليه . ففي ٩ تموز ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م وصل الموصل هنري اماتتون الدومينيكي قاصدا رسوليا على العراق وفارس وارمينيا . وقد اصطحب معه شاباً كلدانياً من ماردين اسمه (يوسف)

ليساعده في نصب المطبعة وكان هذا « صفافا بارعا قادرا على تصفيف الحروف من أي لغة كانت » وقد تم تأسيس مطبعة الدومنيكان بالموصل سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م • وفي سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م وجد الدومنيكان ان مطبعتهم هذه غير كافية ولا تفي بالغرض لذلك عملوا على توسيعها بشراء معدات طباعية كاملة من باريس بستة الاف فرنك • كما جلبوا مجاميع من الحروف العربية والسريانية والفرنسية من المطبعة الاهلية بباريس ، وقد الحق بالمطبعة المذكورة مسبك لصب الحروف وقسم لتجليد الكتب وتذهيبها بالطرق الحديثة •

تولت مطبعة الدومنيكان مهمة طبع عدد من الكتب بلغات مختلفة منها العربية والتركية والفرنسية • كما تولت كذلك عملية طبع الاوراق والسجلات الرسمية قبل مجيء مطبعة الولاية الرسمية سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م • وفي سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م • اخرجت المطبعة أول كتاب هو « رياضة درب الصليب » ومؤلفه الخوري يوسف داؤد الموصلي •

لم تقتصر المطبعة الدومنيكية على طبع الكتب العربية بل تبنت طبع الكتب المدرسية لتعليم اللغة العربية وغيرها من اللغات ومن مطبوعاتها في هذا المضمار كتاب « مبادىء التهجئة لتدريس الصبيان » الذي طبع سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م، باللغتين العربية والسريانية• وقد اسهمت في توجيه النشىء الى التاريخ وخاصة الديني منه بما نشرته من الكتب التي تتناول موضوعات من التاريخ القديم والوسيط والحديث • ومن هذه الكتب «مختصر في التواريخ القديمة» للقس لويس رحماني والمطبوع سنة١٢٩٣هـ/١٨٧٦م و « مختصر في تواريخ القرون الوسطى» للمؤلف نفسه والمطبوع سنة١٢٩٤هـ/١٨٧٧م وكتاب «جني الثمار من لطائف الاخبار لتمرين الصبيان في المدارس مجموع من احسن كتب العرب » لمؤلفه اقليمس يوسف داود، وقد طبع سنة١٢٨٠هـ/١٨٦٣م وكتاب

«اسطاخيوس القائد الروماني الشهير في القرن الثاني» المطبوع سنة١٣١٧هـ/١٨٩٩م وكتاب «أحسن الاساليب لانشاء الصكوك والمكاتيب» لمؤلفه نعوم فتح الله سحار والمطبوع سنة ١٨٨٨ وكتاب « الاجوبة الشافية في الصرف والنحو والتهذيب» لمؤلفه سليم حسون والمطبوع سنة١٣٢٤هـ/١٩٠٦م وكتاب «الذهب لتهذيب احداث العرب» والمطبوع سنة١٣٢٩هـ/١٩١١م للمؤلف نفسه وكتاب « ابهى القلائد في تلخيص انفس الفوائد » لمؤلفه السيد احمد فائز بن السيد محمود افندي البرزنجي المطبوع سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م وهو دراسة في العقائد الاسلامية وعلم الكلام .

كما أنصرفت المطبعة لطبع بعض التقاويم العثمانية المعروفة بالسالنامات لسنوات متعددة باللغة التركية . وقد بلغ عدد مطبوعات الدومنيكان حسب بعض الاحصائيات (٢٩٣) مطبوعا علما ان من بين هذه الكتب ماأعيد طبعه مرات عديدة حتى وصل بعضها الى الخمس عشرة مـرة ، فضلا عن كـون القسم الاكبر منها متكوناً من عدة اجزاء مما يدل على نشاط هـذه المطبعة الكبيرة في نشر الثقافة والادب في العراق .

استمرت مطبعة الدومنيكان في النشر حتى الحرب العالميـة الاولى عندما أصدرت السلطات العثمانية اوامرها بمصادرة المطبعة بدعوى تبعيتها لدولة معادية وقد نقل الى مطبعة الحكومـة كثير من ادوات تلك المطبعـة وحروفها ولما أحتل الانكليز الموصل في تشرين الثاني ١٩١٨م اعادوا الى الآباء الدومنيكان بعض ما حفظ في المطبعة الرسـمية من محتويات مطبعتهم ولم تمتد اليه يد التلف او السرقة وقد واصلت المطبعة نشاطها فطبعت الكثير من الكتب والكراريس والمنشورت الحكومية ولعل ابرز ما طبعته خلال هذه الفترة « منهج التعليم الابتدائي » سنة ١٣٣٨هـ /١٩١٩م و «نظام بلديـة الموصل » سنة ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م و « ايضاحات في تدريس اللغة العربية في المدارس » سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١م .

وبالرغم من الارتباطات الاوربية ، للمسؤولين عن مطبعة الدومنيكان الا ان لها اثرا كبيرا على تنامي الوعي القومي في العراق والموصل خاصة بما نشرته من كتب باللغة العربية ، فقد كانت ، كما يقول ، روفائيل بطي مؤرخ الصحافة العراقية ، عاملا من عوامل النهضة الفكرية ذلك انها عاشت اكثر من خمسين سنة •

اما في كربلاء فقد ظهرت الطباعة بصورة مبكرة كذلك الا أنها لم تستمر طويلا• فمنذ سنة١٢٧٣هـ/١٨٥٦م جلبت اليها مطبعة حجرية• وقد قامت هذه المطبعة بطبع منشورات تجارية وكتب ورسائل دينية• ثم طبع فيها كتاب «مقامات ابن الالوسي » لمؤلفه ابي الثناء الالوسي من رواد حركة النهضة الفكرية في العراق انذاك والمتوفى سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م ويقع في ١٣١ صفحة ويبدو ان المطبعة تركت او أهملت لخلل ظهر فيها او في ادارتها •

كما تأسست في بغداد مطبعة حجرية سنة١٢٨٠هـ/١٨٦٣م بأسم «مطبعة كافل التبريزي» وقد باشرت اعمالها سنة١٢٨٠هـ/١٨٦٣م بطبع كتاب مهم الفه ابو الفوز محمد امين البغدادي الشهير بالسويدي وعنوانه « سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب » ويقع في ١١٨ صفحة من القطع الكبير وقد كتب على صفحته الاولى وبوضوح « طبع هذا الكتاب في مدينة السلام بغداد في اواخر شهر رمضان المبارك من سنة ١٢٨٠ هـ /١٨٦٣ م » ويبدو ان هذه المطبعة تركت واهملت حال وصول مطبعة الولاية التي أسسها مدحت باشا والي بغداد (١٢٨٦ ــ ١٢٨٩هـ / ١٨٦٩ ــ ١٨٧٢م) • ومن ابرز الكتب التي طبعت في هذه المطبعة كتاب « اخبار الدول واثار الاول » للقرماني وكتاب « الظرائف واللطائف للشيخ ابي النصر احمد بن عبدالرزاق المقدسي » وكتاب « المقامة الطيفية » لجلال الدين السيوطي ومعظم هذه الكتب طبعت على نفقة الثري الحاج محمد امين •

وفي الموصل لم تتحمل المطبعة الدومنيكية وحدها عبء النهضة الفكرية بل شاركتها المطبعة الكلدانية التي تأسست سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م فقد اسهمت هذه المطبعة في نشر الوعي الثقافي بين فئات السكان المختلفة وخاصة المسيحيين • وقد الحق مؤسسها روفائيل مازجي بها مسبكا للحروف العربية والكلدانية والفرنسية ويعد كتاب «مزامير داؤد النبي» الذي صدر سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م أول ما طبع فيها ، وقد طبع باللغة الكلدانية مع مقدمة باللغة العربية •

نشرت المطبعة الكلدانية عددا من الكتب المدرسية والتاريخية ، ولعل اهم ما طبعته كتاب « روضة الصبي الاريب في اصول القراءة والتدريب » باللغتين العربية والفرنسية سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م • وقد عمد مؤلفه المطران جرجي عبد يشوع الموصلي الى تحليته بفقرات من التاريخ العربي • وبعد وفاة روفائيل مازجي اغلقت المطبعة ثم استأنفت العمل سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م ثم تعطلت سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م وبيعت ادواتها لمطبعة الحكومة في الموصل ، ولكنها عادت الى العمل سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م لتواصل نشاطها في طبع الكتب الدينية والمدرسية ، وقد نقلت الى المدرسة الكلدانية ثم جاءت الحرب العالمية الاولى فتوقفت للمرة الثالثة ثم احياها البطريرك عمانوئيل الثاني بعد الحرب وابتاع آلة طباعة صغيرة اضافة الى آلاتها القديمة •

تعد مطبعة الولاية في بغداد والتي أسسها الوالي المصلح مدحت باشا (١٢٨٦ ــ ١٢٨٩هـ / ١٨٦٩ ــ ١٨٧٢م) اول مطبعة آلية تأسست في بغداد• وقد جلب معداتها من باريس بعد وصوله العراق مباشرة • وقد اخذت هذه المطبعة فور تشغيلها تتولى طبع جريدة « زوراء » التي صدر عددها الاول في ٤ ربيع الاول ١٢٨٦هـ/١٥ حزيران سنة ١٨٦٩ بثمان صفحات وباللغتين العربية والتركية • وقد وصفها ، احد الكتاب من معاصري تلك الفترة بانها « مطبعة راقية فاخرة تدار بالبخار كانت اعجوبة زمانها وفريدة اوانها » وبعد نقل مدحت باشا اهملت المطبعة وحين جاء حازم بك

واليا على بغـــداد جلب مطبعة جديدة سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م ولم يكتب لهذه المطبعة النجاح التام • غير ان صحفيا بارزا هو محمد رشيد الصفار صاحب جريدة الزهور تضمنها من الحكومة بمبلغ (١٥٠) ليرة تركية سنويا ، ثم سعى الى تطويرها وجلب لها مسبكا جديدا وحروفا متنوعة من استانبول والشام • وقد بدأت العمل وقامت بطبع بعض الصحف والكتب واستمرت حتى الحرب العالمية الاولى • ولعل من ابرز مطبوعاتها سالنامة ولاية بغداد لسنـوات متعددة ، وقوانين الاراضي ترجمة احمد عزة الفاروقي و « نشوة الشمول في السفر الى اسلامبول » لابي الثناء الالوسي ويحكي في ٥٤ صفحة ما صادف اثناء سفره الى استانبول من احداث ويعرف بالبعض من الادباء والعلماء الذين التقى بهم اثناء سفرته التي استمرت واحدا وعشرين شهرا وخمســة ايام • وكتاب « نشوة المدام في العود الى دار السلام » للمؤلف نفســه ويقع في (١٣١) صفحة يروي فيها ما صادفه اثناء عودته الى بغداد بعد سفرته الطويلة الى استانبول وكتاب « تحفة الكرام في جند الاهرام » للسيوطي وكتــاب « السيف البارق في عنق المارق » للشيخ محمد سعيد النقشبندي • وكتــاب « احسن الاجوبة عن سؤال احد علماء اوربة » لمؤلفه عبدالله وليم كويليام الانكليزي . وكتاب « الهدية المصرية للخطة العراقية » لمؤلفه عبدالرحمـن ابراهيم المصري • وكتاب « الدر والياقوت في محاسن السـكوت » الذي جمعه ورتبه علي ظريف الاعظمي وكتاب « قانون الولايات المؤقت ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م » بالعربية والتركية • كما طبعت في مطبعة الولاية صحف عديدة فضلا عن الزوراء منهـا جريدة الزهور ومجلة سبل الرشـاد التي صدرت سـنة ١٣٢٩هـ / ١٩١١م •

كما جلب مدحت باشا مطبعة حجرية خاصة بطبع المنشورات والاوامر العسكرية سميت بمطبعة الفيلق • وكانت مطبوعاتها ذات طابع سري ومحدود ومن ابرزها « خارطة بغداد » وهي رسم مصور لمدينة بغداد كما كانت عليه

قبيل الاحتلال البريطاني رسمه محمد رشيد بك البغدادي المعروف بعدئذ بـ (رشيد الخوجه) سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م وكان رئيسا ركنا في الجيش العثماني. ويعد هذا المصور من الوثائق الدقيقة المهمة في تاريخ خطط مدينة بغداد .

وتأسست في الموصل مطبعة للولاية سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م اسسها تحسين باشا وجلب معداتها وادواتها من استانبول العاصمة وكانت تقوم بطبع الاوراق الرسمية والدفاتر مع قيامها بطبع جريدة الموصل التي كانت تصدر اسبوعيا وقد وضعت مطبعة الموصل تحت اشراف مكتوبجي الولاية «مدير التحريرات» وفي سنة ١٨٩٣ الحقت بمطبعة الولاية ، تسع مطابع واحدة تدور بالبخار واثنتان تدوران باليد واربع حجرية وآلة لتحسين الاقمشة واخرى لعمل الاغلفة . واختصت احدى هذه المطابع بالجيش وسميت بالمطبعة العسكرية او مطبعة الفيلق لتقوم بطبع ما يحتاج اليه الجيش من المنشورات والاوامر والكتب الفنية العسكرية وكانت مطبوعاتها سرية لا يطلع عليها الا كبار الضباط خشية تسرب الاسرار العسكرية الى الخارج . وقد تولت مطبعة الولاية كذلك طبع القوانين التجارية وقوانين الاراضي والكتب التاريخية والتقاويم العثمانية المعروفة « موصل سالنامة » ولم تكن هذه المطبعة مقصورة على طبع المطبوعات الحكومية وانما كانت تطبع كل ما يقدمه اليها الاهالي من مطبوعات. ومن الذين تولوا ادارة هذه المطبعة رؤوف افندي الشربتي وعلي بك كاتب مجلس الادارة والمكتوبجي طاهر بك واحمد افندي رئيس كتاب المحاسبة الخصوصية ونظمي بك وحسن فائق بك رئيس بلدية الموصل وخيرالدين العمري .

اما في كركوك فقد تأسست في عهد الوالي فيضي باشا مطبعة تابعة للحكومة سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م وقد طبعت فيها الكتب القليلة والمنشورات الرسمية وكافة صحف مدينة كركوك التي صدرت خلال هذه الفترة ومنها «الحوادث»

و « المعارف » و« مجلة كوكب معارف » . وتأسست في البصـرة في اول مطبعةفيعهد الوالي«هدايت باشا»سنة١٣٠٧هـ/١٨٨٩م وكانصاحبها جلبيزادة محمد علي وهو موظف بغدادي الاصل تولى رئاسة كتاب الاملاك السنية في البصرة . وقد طبعت في هذه المطبعة جريدة البصرة الرسمية والتي صدرت في ٧ شوال ١٣٠٧هـ/٢٦ ايار ١٨٨٩ وكان يشرف عليها مؤسس المطبعة نفسه الا انه عندما نقل فيما بعد الى بيروت تبنت الحكومة هذه المطبعة ووسعتها .

وفيسنة١٣١٠/١٨٩٢م انشأ ابراهيمباشا مطبعةدارالسلام في بغداد وابراهيم باشا هذا كانيعملمديرا للاملاك المدورة وقد وصفت هذه المطبعة بانها «كبيرة الادوات فيها حروف حسنة وجميلة تضاهي احسن المطابع في سوريا في اتقان طبعها » . وقد عملت هذه المطبعة فترة ليست بالقصيرة في طبع بعض الكتب الادبية، ومن اهم الكتب التيطبعت فيها كتاب «الفوائد الالوسية علىالرسائل الاندلسية » لمؤلفه عبدالباقي سعدالدين بن محمود الالوسي ، وهو كتاب في علم العروض وكتاب «بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب» لمحمود شكري الالوسي المتوفى١٣٤٣هـ/١٩٢٤م ويقع في ثلاثةاجزاء وكتاب (المختصر) لمحمد مهدي البصير وفيه ثلاث قصائد مع عدة كلمات من نظم المؤلف وكتاباته . كما اصدرت تقويما سنويا جيدا باسم (دار السلام تقويمي) باللغة التركية . وتولت كذلك طبع القانون الاساسي العثماني (الدستور) .

وبين سنتي ١٣١٨ و ١٣٣٣ هـ / ١٩٠٠ و ١٩١٤ م تأسست في العراق مطابع اخرى كان لها دورها في الطباعة ونهضة الصحافة . ولعل من ابرزهـا مطبعة الشابندر التي اسسها محمود الشابندر احد التجار المعروفين في بغداد سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م ونينوى التي اسسها عيسى محفوظ بمشاركة فتحالله سرسم في الموصل سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م .

فاما المطبعة الاولى فقد كانت كاملة الادوات فيها آلتان بخاريتان تطبع

كل منهما ٣٠٠٠ نسخة في الساعة وآلة اخرى تدار بالارجل وجهزت بحروف عربية وتركية وفرنسية جميلة،وتمثل كما يبدو لبعض مؤرخي الطباعةالعراقية « طفرة بالنسبة للمطابع » التي وجدت في العراق ويتضح هـذا من تصفح الكتب والمجلات التي طبعت فيها . وقد قامت هذه بطبع الكثير من الكتب الادبية والتراثية . ومن اهم مطبوعاتها كتاب (غرائب الاغتراب ونزهة الالباب في الذهاب والاقامة والاياب) لابي الثناء الالوسي ويتضمن الكتاب رسائل كتبها الالوسي بنفسه ورسائل كتبت اليه . وكتاب « عنوان المجد في تاريخ نجد » لعثمان بن بشر وكتاب (الفوز بالمراد في تاريخ بغداد) للاب انستاس ماري الكرملي ويبحث في تاريخ بغداد منذ سقوطها سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م وحتى سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م وقد جمعه مؤلفه من عدة كتب مخطوطة ومطبوعة عربية واجنبية وكتاب « مختصر تاريخ الاسلام » لمؤلفه محيي الدين الناصري وهو من رواد التعليم الحديث في العراق . وكتاب (المحفوظات) للمؤلف نفسه من ثلاثة اجزاء ، ويضم نصوص اناشيد وطنية وضعت لطلبة المدارس ويمثل الكتاب حالة من البعث القومي والوطني في تلك الفترة التي غلبت عليها نزعة التتريك التي لاقت معارضة قوية بين صفوف العراقيين .

اما مطبعة نينوى فقد تبنت مهمة نشر عدد من الكتب التي عالجت موضوعات لغوية ودينية منها « بدائع الافكار ياخود الحكمة والادب للترك والعرب » لمؤلفه فاضل الصيدلي وذلك سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م وتضمن الكتاب المذكور « شذرات عربية ادبية مشروحة باللغة التركية » .

لقد صادف تأسيس مطبعة نينوى انتشار الافكار العربية وبداية شعور عرب الموصل بقوميتهم ، لذا كانت مساهمتها في النهضة الفكرية ونشر الوعي اكثر من غيرها . اذ لجأ اليها عدد من العاملين في الحركة القومية في الموصل ، فساهمت في طبع مؤلفاتهم ووضعها بين ايدي القراء ولعل كتاب « الاناشيد الموصلية للمدارس العربية » الذي نشره محمد سعيد الجليلي سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٥م

من اكثر تلك الكتب اهمية وانتشارا، ذلك ان اعضاء جمعية العلم السرية في الموصل « تأسست سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م » ارادوا الوقوف ضد نزعة التتريك وكان محمد سعيد الجليلي احد المعلمين في مدرسة « دار العرفان » الرسمية التي اتخذها القوميون مركزا للنشاط السري ، وقد اسندت اليه مهمة تدريس الاناشيد وهي مادة ادخلت حديثا في منهج المدارس الابتدائية وكان الهدف منها تدريس اناشيد « الحماسة التركية » وصادف حينذاك موافقة الحكومة العثمانية على ان يكون التدريس في المدارس الابتدائية باللغة العربية اثر المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م فاغتنم القوميون هذه الفرصة للعمل على قلب الاناشيد التركية الى اللغة العربية وكلفوا عددا من الادباء والشعراء الموصليين بوضع اناشيد عربية حماسية لها صبغة قومية تتغنى بمجد العرب التاريخي واذكاء الحماسة في افئدة النشىء العربي • وممن استجاب للدعوة محمود الملاح الذي كان متبرعا بالقاء دروس التاريخ العربي والاسلامي في المدارس المذكورة بصورة غير رسمية بدون مقابل من اجل بث الفكرة القومية مدة سنة كاملة وقاسم الشعار واسماعيل حقي فرج وداود الملاح وتوفيق آل حسين وغيرهم • وكان لتلك الاناشيد اثر كبير في تحفيز الشباب الموصلي على التخلص من الحكم العثماني والدعوة الى مقاومته بالقوة للحصول على الحقوق العربية •

لذلك اقدمت سلطات الولاية خلال الحرب العالمية الاولى على مصادرة مطبعة نينوى واخذت تطبع فيها جريدة « حقي طوغرو » اي دعوة الحق وذلك من اجل الدعاية للحكومة العثمانية وحلفائها •

كما تأسست في البصرة ، ثلاث مطابع اهلية خلال هذه الفترة لتلبي حاجة الصحف التي كانت تصدر انذاك وهذه المطابع هي مطبعة الاتحاد لصاحبها يوسف ذياب والمطبعة المحمودية ومؤسسها محمود باشا العبدالواحد والمطبعة الاحمدية لصاحبها احمد حمدي ملا حسين واخيه •

وفي راوندوز تأسست سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م مطبعة «زارى كرمانجي»٠٠ثم نقلت الى اربيل حيث ظلت تحمل هذا الاسم حتى وفاة صاحبها الاديب العراقي الكردي حسين حزني موكرياني سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م وقد تولت هذه المطبعة طبع الكتب والصحف الكردية ٠

هذا وقد توالى انشاء المطابع في العراق بعد ذلك وكان لنهضة الطباعة وتطورها اثر كبير في تطور الصحافة ونهضتها ٠ كما لعبت الطباعة عن طريق ما قدمته من كتب ونشرات وصحف ومجلات دورا مهما في تنامي الوعي القومي العربي في العراق ٠

المبحث الثالث

الصحافة

نشأة الصحافة العراقية حتى ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م

ينعدم وجود الصحافة في العراق تقريبا قبل سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م وهي السنة التي شهدت تأسيس جريدة الزوراء • ويتطرق بعض مؤرخي الصحافة العراقية الى جريدة صدرت في عهد الوالي داود باشا سنة ١٢٣٢هـ / ١٨١٦م باسم « جورنال العراق » الا ان الدلائل التاريخية غير كافية للجزم بصحة وجود مثل هذه الجريدة حيث لم يعثر لحد الان على اية نسخة منها لذلك تظل جريدة الزوراء التي صدر عددها الاول في ٤ ربيع اول ١٢٨٦ هـ/١٥ حزيران ١٨٦٩م تمثل باكورة الصحافة العراقية•وقد استمرت الزوراء في الصدور مدة تسع واربعين سنة حتى ١٣٣٦هـ/١٩١٧م حين احتجبت اثر الاحتلال البريطاني لبغداد في ١١ اذار ذاتها وبلغت اعدادها خلال هذه الفترة ٢٦٠٧ • وقد صدرت الجريدة باربع صفحات : صفحتان باللغة العربية وصفحتان باللغة التركية • ومما جاء في ترويستها انها « تطبع في الاسبوع مرة يوم الثلاثاء وهي حاوية لكل نوع من الاخبار والحوادث الداخلية والخارجية » وتعد مقدمة الزوراء المفتاح الاساسي لدراسة الصحافة

العراقية لانها توضح اسباب صدور الجريدة ودوافعها . هذا فضلا عن ان مؤسسها الوالي المصلح مدحت باشا ، كان يهدف الى التغيير ووضع العراق على عتبة العصر الحديث . جاء في المقدمة : « من المعلوم انه وان تميز الانسان بشرف القوة النطقية التي شرفه الله بها على سائر المخلوقات فبحسب قابليته الطبيعية وحسن استعمالها يعلو مقامه ومرتبته بمسابقته بني نوعه .

فالانسان مع استعداده وقابليته الطبيعية غير مقتدر في حد ذاته على تحصيل شيء من الاشياء من تلقاء نفسه والقوة النطقية التي يمتاز بها الانسان مع كونها من خواصه الطبيعية فانها تحتاج الى مرب يربها ومرشد الى منهاج الصواب يرشدها ويهديها ونوع الانسان جل استعداده وتوقي قابليته الطبيعية يحتاج الى معين وهو التجربة ، وانا اذا امعنا النظر وتدققنا في حال عالمنا هذا يتصحح لنا ان التجربة لها مدخل عظيم وتأثيرات عجيبة في توسيع قابلية الانسان وفي ترقي احوال العالم ومن اراد الوقوف على صحة ذلك فلينظر الى حال سكان اوربا الذين قد انجلت لهم الحقايق وانكشفت لهم الغوامض والدقايق فانهم لما علموا ان استعداد الانسان وقابليته معولان على التجربة اخذوا يبذلون المساعي في تحصيلها وناهيك ان الدرجة التي وصلوا اليها من التمدن والكمال هي شاهد قوي على كيفية قوة الانسان وقابليته . ونحن نسلم بالامر لما نشاهده من اثار التجربة العجيبة ونتايجها الغريبة اذا تأملنا في مسير السفن في البحار وحركة طرق الحديد من اقطار لاقطار بواسطة البخار والمخابرة بسلك التلغراف الممتد من اطراف الاطراف في لحظة واحدة من مشرق الارض الى مغربها وذلك بواسطة قوة الالقتريقية والطيران في جو السماء بواسطة قوة الغاز وانشاء الكراخين والمعامل وغير ذلك من التسهيلات المفيدة التي نشأت من التجارب العديدة .

ثم ان سكان الممالك المتمدنة المجاورة لاوربا من كونهم لم يصرفوا

اوقاتهم صرفا (بليغا) في التجارب ومن كونهم لم يصلوا لما وصلوا اليه اهالي اوربا في التجربة التي حصلوها على قدر استطاعتهم قد كشفوا طرق التجارة والصنايع المتنوعة وبهذه الصورة يقضون حوايجهم المطلوبة بصرف نظرهم عن كل صعوبة ويعيشون بالفرح والرفاهية في هذه الدنيا التي يزعم الجهلاء الاغبيا انها دنيا دنية لعدم ذوقهم حلاوة التمدن الشهيد فيها ومن لم يذق لم يعرف .

ثم اننا اذا نظرنا الى الاهالي الذين هم ابعد ارضا من هؤلاء نرى انهم لم يجربوا ولم يذوقوا لذة التمدن ولهذا لا يجدون حظا وراحة في عالمهم ويقضون حوايجهم الضرورية ولوازمهم البشرية بعناء جزيل ونصب ليس له مثيل وعلى الخصوص اننا لو نظرنا الى احوال متوحشين افريقا وامريقا لعلمنا ان استراحتهم هي اقل درجة من الصنف الثالث السابق ذكره وان هؤلاء (المتوحشين) يعيشون حسب عادتهم كالوحوش الضارية بعضهم يفترس بعضا .

فيتصحح لنا مما تقدم من الكلام ان التجربة لها مدخل تام في توسيع قابلية الانسان وينتج من هذا ايضا ان اول مرب حقيقي ومغنم معنوي للانسان هو التجربة فلعمري من اين تنشأ التجربة .

الجواب انه وان امكن للانسان ان يحصل تجربة جزؤيه في مدة حياته اما بمصادفته للوقوعات بذاته واما بواسطة استماعه من الاطراف ومن جيرانه ولكون ان هذه التجربة لا تكون كافية ومع عدم كفايتها لا يستطيع الانسان ان يستفيد منها شيئا لعدم تحمل حياته وبناء عليه لما كان تحصيل التجربة امر مهم يقتضي له مدة طويلة فلاجل تحصيلها واقتطاف ثمار الفوائد منها قد وجدوا طريقا سهلا كعلم التاريخ وغيره من العلوم المساعدة لتحصيل التجربة ونظير ذلك قد استنبطوا جرائد الاخبار (غزتات) ونشروها في سائر الاقطار وفي قضية تحصيل التجربة للجرائد المذكورة فوائد كثيرة ومنافع غزيرة .

والمراد بالغزته هو الكلام المسطور المفيد لعامة افراد الناس الذين يعلمهم ما حدث من الوقايع وما اشتهر في العالم من الغرائب والصنايع ومن جملة فوائد الغزته ايضا انها تعلن احوال العالم وتخبر عن السياسة (بولتيقه) الجارية بين الدول المعظمة الذين يقبضون بيد ادارتهم زمام سياسة العالم ثم انها فضلا عن اشاعتها المخترعات الجديدة والصنايع المفيدة فانها تتحف مطالعيها الالباء وقارئيها الادباء امثلة تتعلق بارشادهم واصلاحهم ثم انها باعلانها ما حدث في خمس قارات وخطط الارض من الوقائع الممدوحة والمذمومة وتبسطها تحت نظر الامعان والمحاكمات والمشاجرات تساعد على انتشار الفنون والمعارف وبحسب اللزوم تساعد ايضا على التربية وتحصيل الاداب وما عدا ذلك انها بواسطة نشرها الحوادث وبسط انواع المباحث تدل ابناء وطنها واعزائها على الترقيات المادية والمعنوية وتهديهم الى طريق ازياد الثروات والنجاح وعمران المملكة التي قامت على ساق خدمتها في المساء والصباح فهي ترجمان الاحوال ومبلغة الامال بين الحكومة والاهالي بواسطة ما يندرج فيها من التدبيرات والمساعي المشكورة وهي اما رسمية او شبه رسمية .

والغزته المذكورة التي هي منبع التجربة كما شرحنا ذلك قد اخترعت في القرون السابقة في ديار اوروبا ومنذ خمسة وثلاثين او اربعين سنة قد احدثت في دار السلطنة السنية حفظها رب البرية ولاجل رغبة العامة في مطالعتها وحصول الفوائد الكثيرة من طبعها ونشرها اخذت تترقى يوما فيوما حتى دخلت في اصول الولاية التي اسسها مولانا السلطان خلد الله ملكه مدى الدوران حيث تعلق مقصده العالي بسرعة استحصال اسباب عمران البلدان وبناء عليه قد نشأت في كل ولاية جريدة وسميت اسما يناسب محل طبعها ونشرها ومملكتها ونحن امتثالا لهذا الامر قد باشرنا بطبع الجريدة واستخرنا الله نشرها موقتا في كل اسبوع مرة مشتملة على كل ما شرحناه سابقا وقد سميناها (الزوراء) المناسبة ولاية بغداد وها نحن نرجو من مطالعيها وقارئيها

وراغبيها ان يغضوا الطرف عما يجدوه من النقصان فيها لان كل شيء ناقص في بدايته وبالتدريج يصل الى الكمال كحالات الهلال وهذا هو من اقتضاء الطبيعة كما لا يخفى » .

نشرت جريدة الزوراء في عددها الاول صورة (الفرمان) الذي عين بموجبه مدحت باشا واليا على بغداد . كما تضمن العدد نفسه ، خطاب مدحت باشا الذي القاه في الاحتفال الذي اقيم بمناسبة توليه الحكم ويكاد الخطاب يكون اشبه بالمنهاج الوزاري في عهدنا الحاضر . وقد تولت الجريدة نشر مختلف شؤون الولاية والاخبار الرسمية والمعاهدات والمتصفح لاي عدد من اعدادها يجده مرتبا على هذا النحو :

(اخبار داخلية ، فاخبار خارجية ، واوامر سلطانية وثناء واطراء على سياسة السلطان كما انها لم تهمل السياسة الدولية وما يحدث فيها من تغييرات ومن ذلك قولها في عددها الصادر في ١٢٨٧هـ / ٨ آذار ١٨٧٠م :

« نظرا للاخبار الماخوذة بواسطة التلغراف ان الماسكين طرف الحكومة في باريس قد غلبوا على الجمعية الاشتراكية والنفوس التي قد قبض عليها منهم اليوم وهم في السجن مغلولين يتجاوز عددهم عن ستين الف نفس ، فاذا كانت هذه الاخبار صحيحة فيكون امن فرنسا قد عاد والاختلال الظاهر قد اندفع وارتفع » .

كما تضمنت اعدادها ارشادات عامة ومقالات صحية تنبه الجمهور الى الاهتمام بالصحة العامة واتخاذ الاحتياطات اثناء انتشار الاوبئة . وكانت تراقب الموظفين واعمالهم وتحذرهم من مغبة التماهل في وظائفهم . ففي عددها الصادر في ١٢٨٧هـ/١٦ آذار سنة ١٨٧٠م هاجمت المسؤولين عن تنظيف « محلات مدينة بغداد » واتهمتهم بعدم العناية بالنظافة وقالت ان هذا الامر « حاصل على عدم دقة المأمورين » . وحوت

الجريدة الكثير من اخبار العراق واحواله السياسية والثقافية والتاريخية ، الامر الذي جعلها تشكل مصدرا من مصادر تاريخ العراق الحديث ، والى شيء من هذا القبيل يشير مؤرخ الصحافة العراقية رزوق عيسى فيقول « وفيها من النبذ التاريخية النفيسة ما لا توجد في مصحف من مصاحف التاريخ العراقي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين (الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين) والمتصفح لاعداد الزوراء في ايام صدورها الاولى يجد انها اتخذت الحق ديدنها ، والمصلحة العامة رائدها غير انها غيرت لهجتها بعد مغادرة مدحت العراق واصابها ما أصاب الصحافة في العهد الحميدي من الضغط والتشديد عليها وخنق حريتها . وعندما اعلن الدستور العثماني في ٢٣ جماد الثاني ١٣٢٦هـ / ٢٣ تموز ١٩٠٨م طوى قسمها العربي وصارت تكتب باللغة التركية وحدها ، فاحتج على ذلك فريق من العراقيين من ذوى النزعة العربية القومية فاذعنت الحكومة، وعادت تنشر باللغتين اعتبارا من العدد الصادر في ١٧ رجب ١٣٣٢هـ/١٢ تموز سنة ١٩١٣م . وقد حرر فيها اول الامر بعض موظفي الولاية ممن لم يحسنوا العربية لذلك اصاب قسمها العربي « التباين في الاسلوب فكانت ركيكة » اذ المألوف كما يقول الدكتور منير بكر التكريتي في كتابه « الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية من ١٢٨٦ ــ ١٣٤٠هـ / ١٨٦٩ ــ ١٩٢١م » والمنشور ببغداد سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ان تكون هذه الجريدة ذات صلة وثيقة بمن تخاطب من العرب الذين يتكلمون العربية ، وتعبر تعبيرا صادقا في الفاظ معروفة ومعاني سائدة لكن هذا ما لا نجده في الزوراء الرسمية التي تصدر في بلد عربي ، هو العراق بلد الادب واللغة ، فقد عفى عليهما حتى كأنك تقرأ رطانة لا صلة لها بالعربية وتردد الفاظا مبتذلة عامية تشعر وانت تقرأها اشبه بالغريب عن لغتك ومصطلحاتك . وبهذا الخصوص كتب الاب انستاس الكرملي يقول عنها سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م « واما مواضيعها فلا تستحق الذكر

وا أسفاه على ولاية بغداد ان تكون جريدتها الرسمية بهذه الصورة الدنيئة» ومعنى هذا ان الجريدة انحطت في اواخر ايامها ويقول روفائيل بطي ان بعض ادباء العرب انتقدوا جريدة الزوراء ونعوا عليها هذه الركاكة الفاضحة والغلط المزري » وقد تداركت السلطة هذا الامر فأناطت تحرير قسمها العربي بجماعة من رجال العلم والادب من العراقيين منهم احمد عزت باشا الفاروقي الموصلي واخوه علي رضا وعبدالحميد الشاوي وطه الشواف ومحمود شكري الالوسي وغيرهم، لذلك يلاحظ القارىء في بعض اعدادها ان لغتها واسلوبها يصلان تارة الى الذروة فيجد في عباراتها حسن السبك وجزالة اللفظ وسلامة التعبير ، واخرى يهبطان الى ارك من الركاكة فيرى عبارات عقيمة ، غامضة ضحلة . ومنشأ كل ما سبق يعود الى اختلاف ثقافة محرريها وقابلياتهم المتباينة .

ومهما يكن من امر فأن الزوراء عكست اوضاع العراق الثقافية والاجتماعية والسياسية انذاك ، كما انها قدمت صورة للفكر والادب العراقيين في الفترة التي عاشتها، أما جريدة (موصل) فقد صدرت في ١١ رمضان ١٣٠٢هـ/ ٢٥ حزيران، سنة ١٨٨٥م في مدينة الموصل باربع صفحات بالحجم المتوسط مقاس (٤٣ × ٢٧ سم) . وكانت كل صفحة تتألف من ثلاثة اعمدة وكانت الصفحتان الاولى والثانية بالتركية والثالثة والرابعة بالعربية . وكانت ادارة الجريدة في شقة خاصة في مبنى الحكومة بمدينة الموصل ، وقد جاء في ترويستها انها « الجريدة الرسمية للولاية تنشر مرة كل اسبوع » واحتوت الصفحة اليمنى من الاعلى معلومات تتعلق بالعدد وادارة المطبعة وعبارة هي « بخصوص الاشتراك يراجع مباشرة تحريرات الولاية » ، وتاريخ الصدور واجرة النشر عن كل سطر يتكون من خمس كلمات ولم يتكرر من تكراره قرش واحد وكانت جريدة الموصل كالزوراء جريدة رسمية للولاية ولم يشاهد فيها اي صور او عمل فني .

تعد جريدة الموصل اول جريدة تصدر في المدينة كما تعد الجريدة الرسمية

للولاية وتنشر مرة كل اسبوع وكان يوم الخميس موعدا لصدورها • وقد استمرت على الصدور حتى نشوب الحرب العالمية الاولى •

مرت جريدة الموصل بثلاث مراحل : تمتد المرحلة الاولى منذ صدورها في ١١ رمضان ١٣٠٢هـ/٢٥ حزيران ١٨٨٥م حتى اعلان الدستور في ٢٣ جماد الثاني ١٣٢٦هـ/٢٣ تموز ١٩٠٨م • وتمتد المرحلة الثانية منذ اعلان الدستور حتى قيام الحرب العالمية الاولى ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م • وبعد الاحتلال البريطاني للموصل سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٨م استمر صدور الجريدة حتى سنة ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤م ويمكن اعتبار هذه الفترة المرحلة الثالثة من تاريخ جريدة الموصل •

كانت جريدة الموصل ، من الصحف الرسمية لذا تميزت مثل نظيرتها جريدة الزوراء بانها صحيفة مداهنة وتملق • ففي المرحلة الاولى لم تكن تنشر سوى مايطيب للسلطان وولاته من الفاظ التفخيم والتعظيم رغم ظلمهم وسوء ادارتهم • ولم تكن الصحافة في هذه الفترة سوى لسان السلطان واعوانه ، اما امال الشعب وطموحاته فليس لها نصيب من اهتمامها • فكثيرا ما كانت تنوه بمحاولات الثورة على انها تمرد وعصيان على السلطان وتنقل اخبار اولئك الذين يهتمون بالتحريض على التمرد ضد الدولة • فقد نشرت على سبيل المثال في عددها الصادر في ٢ ربيع الاخر سنة ١٣٢٣هـ/٧ حزيران ١٩٠٥م خبرا يتعلق بنفي عدد من الاشخاص الى بعض الولايات فقالت «غادر مدينتنا (الموصل) قبل بضعة ايام متوجهين الى بغداد كل من اصحاب الفضيلة الافندية ثابت وشاكر ال الالوسي والحاج احمد ال العسافي وذلك بعد صدور الارادة السنية ... بالمرحمة وصرف النظر عن ابعادهم • وكانوا قد ارسلوا من ولاية بغداد العلية متوجهين الى اماكن نفيهم من ديار بكر وسيواس وخربوط » • كما اشارت في عددها الصادر في ٢٦ ذى الحجة ١٣٢٢هـ/ شباط ١٩٠٥م الى اعتقال عاصي بن فرحان باشا وابنه الهادي من رؤساء عشيرة شمر الجرباء في الموصل بتهمة يرجح انها تتعلق بممارستهم نشاطا معاديا للسلطة •

تميزت جريدة الموصل عن جريدة الزوراء في ان اسلوبها ادبي جزل واضح . ليس فيه شيء من اثار العجمة والغموض والركاكة التي حفلت بهـا صفحات جريدة الزوراء . ولم يخل هذا الاسلوب مما كان يخضع له النثر في تلك الفترة من محسنات بديعية كالسجع والطباق والجناس ونحوها . ويقارن احد الباحثين بين جريدتي الموصل والزوراء من حيث الاسلوب واللغة فيقول ان هناك بونا شاسعا بينهما من هذه الناحية فقد استمرت جريـدة الزوراء تصدر حتى اخر عدد منها باسلوب تغلب عليه العجمة والركاكة على حين بدأت جريدة الموصل ، منذ اعدادها الاولى متينة الاسلوب نسبيا . ويمكن ان نعزو ذلك الى ان معظم المشرفين عليها كانوا من الادباء والكتاب والموصليين العرب وليسوا من الاتـراك .

تميزت جريدة الموصل في هذه المرحلة (بطابع اخباري) اذ اقتصرت على نشر اخبار مختلف شؤون الولاية اضافة الى الاخبار الرسمية والقوانين والبيانات والانظمة واوامر الحكومة واعلاناتها . ولم تهمل الاخبار الخارجية التي تردها تباعا من العاصمة . كما اعتادت على نشر خطب الجمعة التي تلقى في جوامع الموصل والتي تنطوي على الدعم والتأييد والدعاء بالخير للسلطان فقد نشرت في عددها الصادر في ٢٤ جماد الثاني ١٣٢٣هـ/٢٧ آب سنة ١٩٠٥م الدعاء الذي القاه السيد محمد الشعار من علماء الموصل المشهورين في جامع نبي الله يونس لمناسبة نجاة السلطان عبدالحميد الثاني من حادث الاغتيال الذي تعرض اليه في جماد الثاني ١٣٢٣هـ/ آب ١٩٠٥م ، هذا وقد نقلت جريدة الموصل كذلك على صفحاتها ما يتعلق بحياة الناس اليومية ، وما يطرأ عليها . فهاهي تنشر خبر انخفاض درجة الحرارة وتجمد مياه دجلة بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ مدينة الموصل مما تسبب في التحاق الضرر بالاهالي نتيجة لاشتداد البرد وقلة وسائل التدفئة لديهم . وكان للجريدة باب خاص لهذا الغرض اسمته (احداث الولاية) .

كما نشرت الجريدة كذلك اخبارا تتعلق بالشـؤون العامة لولايـة الموصل : ففي عددها الصادر في ١٨ ذي القعدة ١٣٢٣هـ/١٨ كانون الثاني سنة ١٩٠٦م نشرت خبرا يتضمن وصول وفد من الاستانة يتألف مـن عدد مـن المسؤولين العثمانيين وذلك لبحث مشكلة الحدود العثمانية ــ الايرانية ٠

وقد نشرت جريدة الموصل على صفحاتها ما يتعلق بتشجيع المواطنين للقيام ببعض الاعمال ، ومن ذلك نشرها طلب مديرية الديون العمومية في ولاية الموصل سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م الى السلطات المحلية بوجوب حث سكان المدينة واطرافها على زراعة اشجار التوت وتشجيعهم على تربية دودة القز عليها لما لذلك من اهمية اقتصادية ٠

اهتمت جريدة الموصل بنشر الاخبار التي من شأنها اظهار اسـتعداد السلطات لخدمة البلاد ، ومن ذلك الخبر الذي نشرته حول مشروع مد الخط الحديد بين الشام والمدينة المنورة وشكرت الوالي مصطفى يمني بك لتبرعه براتبه كمساهمة في سد نفقات ذلك المشروع ٠

بالرغم من قول روفائيل بطي من ان جريدة الموصل لم يكن لها اثـر يذكر على الحياة الفكرية في المدينة وذلك لصدورها باللغة التركية ولانتشار الجهل بين الاهالي يمكن القول بان جريدة الموصـل ادت دورها في توعية الاهالي صحيا واجتماعيا وذلك بما كانت تنشـره من المقـالات الصـحية والاجتماعية وما تنقله من توجيهات السلطات المحلية للاهالي بوجوب ممارسة الزراعة والاستقرار وغير ذلك ويتوضـح دورها بشـكل اكبر في العهـد الدستوري العثماني كما سنرى ٠

وفي البصرة اصدرت السلطات العثمانية جريـدة (بصـرة) باللغتين التركية والعربية وبأربع صفحات وذلك في عهـد الوالي هدايت باشا وقـد صـدر عددهـا الاول فـي سـنة ١٣٠٧هـ / ٢٦ ايـار سـنة ١٨٨٩ م

وتولى محمد علي افندي باش كاتب الاملاك السنية مسؤولية تحرير الجريدة . وقد اهتمت شأنها شأن شقيقتيها الزوراء والموصل بنشر اوامر الباب العالي والفرمانات والبيانات الرسمية فضلا عن نشرها اخبار وحوادث الولاية ، وقد توقفت عن الصدور سنة١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م ثم عادت الى الصدور بعد ذلك بزمن قصير وكانت الصفة الغالبة على مقالاتها كيلها الحمد والثناء للسلطان العثماني ، وقد غلب على اسلوبها الصنعة والركاكة والتكلف والسجع ومما يلحظ على مقالاتها كثرة الاخطاء اللغوية وسيادة الكلمات غير العربية كما امتازت اخبارها بعدم مقدرة كاتبها ايجاز المعنى الذي يريد ابلاغه ولم تصدر الجريدة بمقال افتتاحي ولم يذكر شيء عن محرريها وقد استمرت في الصدور حتى الاحتلال البريطاني للبصرة في ١٣٣٣هـ/١٢ تشرين الثاني ١٩١٤ اذ احتجبت عن الصدور بعدما سلخت من العمر قرابة ربع قرن .

كما صدرت في هذه الفترة بعض المجلات الدينية باللغة العربية منها مجلة اكليل الورود ، ومجلة زهيرة بغداد . فاما المجلة الاولى فتعد اول مجلة تصدر في العراق كله وقد صدر عددها الاول في رمضان ١٣٢٧هـ/كانون الاول ١٩٠٢م وجاء في ترويستها انها «مجلة دينية ادبية علمية شهرية اصحاب الامتياز الآباء الدومنيكان» . وقد بلغ عدد صفحاتها في بداية صدورها (٢٠) صفحة ولكنه كان يتغير في بعض الاحيان اذ يزداد ليتراوح بين (٢٤ ــ ٢٨) صفحة علما بأن الواجهتين الداخليتين للغلاف كانتا تستعملان لكتابة المقالات كذلك وقد تستعمل الواجهة الاخيرة من الغلاف في تكملة المقال . اما بالنسبة لمقاس المجلة فهو (١٨ × ١١٫٥ سم) . صدرت مجلة اكليل الورود بثلاث لغات وهي : العربية وصدر منها (٥٦٠) عددا والفرنسية وصدر منها (٤٠٠) عدد والكلدانية وصدر منها (٣٣٠) عددا ، وفي جميع هذه اللغات كانت الموضوعات متشابهة تقريبا حيث كانت تترجم من لغة الى اخرى فقط .

اشتغل في تحرير المجلة عدد من المحررين منهم : الاب عبدالاحد جرجي السرياني البغدادي والاب هياسنت وهو فرنسي الاصل ، والقس باسيل بشوري السرياني البغدادي والاديب فرج الله كسبو . وتتسم كتابات هؤلاء جميعا بالطابع الديني الكنسي .

كرست مجلة (اكليل الورود) معظم مقالاتها لنشر المذهب الكاثوليكي على نطاق واسع ومع هذا فقد اهتمت بالموضوعات الصحية والسياسية والاجتماعية والثقافية فأخذت المجلة مثلا : تهتم بتزويد القارىء بالمعلومات العامة المفيدة فقد كتبت عن (السكر) و (التبغ) و (القهوة) وما شاكل ذلك .

لقد مارست مجلة أكليل الورود وظيفتها الصحفية في العناية بمواد التوجيه والارشاد والتثقيف وبوسائل عديدة منها نشر القصص القصيرة ذات الطابع الانساني او نشر الاقوال الحكيمة وخصصت مجلة (اكليل الورود) بعض صفحاتها لعرض ونقد الكتب الجديدة ومن ذلك ما نشرته في عدد محرم ١٣٢٥هـ/شباط ١٩٠٧م عن صدور كتاب (الاجوبة الشافية في فني الصرف والنحو) لمؤلفه المعلم سليم حسون .

كما عنيت المجلة منذ بداية صدورها ، بتزويد القارىء بأخبار علمية : فقد نشرت في عددها الصادر في رمضان ١٣٢٥ هـ / تشرين الاول ١٩٠٧ م خبرا يتعلق (بمذنب دانيال) الذي أصبح يشاهد منذ شهر رجب ١٣٢٥ هـ / آب ١٩٠٧ م وقالت ان قطره يساوي (٢٢) مرة بقدر قطر الارض ، كما نشرت خبرا آخر حول قيام الكولونيل الانكليزي (برنلي كامبل) بدورة حول الارض استغرت اربعين يوما و ١٩ ساعة ونصف ونشرت خبرا بعنوان (أوسع بناية في العالم) قالت فيه أن هذه البناية انشئت في نيويورك في الاونة الاخيرة وفيها عشرة الاف مسكن

واشارت في عددها الصادر في شوال ١٣٢٧هـ/تشرين الاول ١٩٠٩ في مقال مطول بعنوان (نظر في الاختراعات الحديثة) الى ان « زماننا هو زمان الترقي في مرافيء الفنون واجتناء اغرب اثمار الاقطار العالمية والقرائح السامية،وماتلك الاثمار الا الاختراعات المتواصلة التي لايزال العالم يتلقاها من ارباب العلم والفهم ولاسيما المتفانين منهم في تذليل المصاعب الطبيعية وهتك اسـرارها الخفية » . ومن هـذه الاختراعـات التلغراف واللاسـلكي والاتومبيـل (السيارة) والمناطيد او المركبات الهوائية الحديثـة ، اما عن النفط فقـد اهتمت المجلة بنشر بعض الاحصائيات عن انتاجه واهميته . ونشرت المجلـة اخبارا طريفة عن العالم في بعض صفحاتها ، كما تابعت المجلة اخبار الصحافة العالمية .

كان لمجلة (اكليل الورود) ابواب ثابتة اهمها : باب بعنوان (نصائح صحية) اوردت فيه مقالات تعالج بعض المسائل الصحية وتدعو الى وجوب الالتزام بالقواعد الصحية ومن ذلك مقالات عن (الهواء) ، (في الرياضـة البدنية) ، (الاستحمام بالماء البارد) و (والاشربة الكحولية) و (مضـار البرد والرطوبة) . كما افردت بابا بعنوان (اخبار حالية) تذكر فيه بعض الاخبار السياسية والاقتصادية والعمرانية وفي بعض فهارس المجلة نشير الى العناوين التالية : (الطواف حول الارض) (معاشـات بعض رؤسـاء الحكومات) (مدفع فرنسي جديد) (أول سـلك تلغرافي بحري) (اكبر ساعة في العالم) (حريقان هائلان في باريس) (الوفد العثماني في الفاتيكان) (اهوال الزلازل في جنوبي ايطاليا) .

ان مجلة اكليل الورود « وان كانت غايتها الاولى تهذيب الاخـلاق بالطرق الدينية فقد نشر فيها اصحابها ــ كما يقول احد مؤرخي الصحافة ــ

طائفة صالحة من المقالات الادبية والاجتماعية واثبتوا على أعمدتها اخبارا متنوعة » . كما اعتنت بنشر اخبار المجتمع الموصـــلي ، ظلت اكليل الورود تصدر بأنتظام نحو ستة اعوام حتى بعد اعلان الدســتور العثماني في ٢٣ جماد الثاني ١٣٢٦ هـ/٢٣ تموز ١٩٠٨ م وكثرت الصحف والمجلات في العراق فتوقفت عن الصدور من تلقاء نفسها لتفسح مجال الخدمة الى غيرها مـــن الصحف والمجلات وقد صدر آخر عدد منها في كانون الاول ١٩٠٩م .

اما مجلة (زهيرة بغداد) فقد كانت مجلة دينية ادبية شهرية اصدرها الآباء الكرمليون في بغداد في ٢٥ اذار سنة ١٩٠٥ وكان من ابرز محرريهـــا الاب انستاس ماري الكرملي . وكانــت الـــى معالجة المباحــث الدينيــة والمذهبية اقرب منها الى معالجة المباحث الادبية والاجتماعية وقد استمرت في الصدور اكثر من سنة وتوارت عن الانظار ولم يعثر على اي عدد من المجلة لحـــد الان .

صحافة العراق في عهد حكومة الاتحاديين وحتى الحرب العالمية الاولى

ان الانقلاب العثماني الذي تم في ٢٣ جماد الثاني ١٣٢٦هـ/٢٣ تموز سنة ١٩٠٨ م قامت به مجموعة من الضباط تنتمي الى جمعية الاتحاد والترقي وعلى رأسها انور وجمال ونيازي وقد تمخضت العملية الانقلابية عن تظاهر السلطان عبدالحميد الثاني ١٢٩٣ ـــ ١٣٢٧ هـ/١٨٧٦ ـــ ١٩٠٩ م باستجابته لمطالب الانقلابيين باعلان دســتور سنة ١٢٩٣هـ /١٨٧٦م المعلق من ســـنة ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧ م والسير بموجب شعارات الحرية والاخـــاء والمســـاواة وسرت من جراء ذلك موجة عارمـــة من الفرح والابتهـــاج في معظم ارجاء

الدولة العثمانية املا في بداية عهد جديد تترجم فيه شعارات الاتحاديين الى واقع ملموس ٠

نشط الاتحاديون في الدعاية لمبادئهـم عن طريق التوعية السياسـية والفكرية ٠ وتمثلت هذه بمختلف فروع الاتحـاد والترقي التي افتتحت في ارجاء الدولة العثمانية ومنها الولايات العراقية كما تمثلت كذلك في افساح المجال لاصدار العديد من الصحف والمجلات ٠

دخلت الصحافة دورا مهما باعلان الدستور العثماني ذلك ان الدولة العثمانية شهدت نهضة صحافية حقيقية كبرى ٠ فقد صـدرت بين سـنتي ١٣٢٨ ــ ١٣٣٠هـ/١٩١٠ ــ ١٩١١ م (٣٦) جريدة عربية وذلك مايعادل ٦٠٪ من (٦١) جريدة كانت قد صدرت في الفترة الواقعة بين ١٣٢٢ ــ ١٣٣٣هـ / ١٩٠٤ ــ ١٩١٤ م حيث ان ١٤ جريدة او ٤٠٪ من مجموع الصحف كانت قد صدرت في سنة ١٣٣٠ هـ/١٩١١ م ، وقد بلغ مجموع الصحف التي اجيزت في العراق بعد اعلان الدستور خمسا وعشرين صحيفة ومجلة منها (١٩) جريدة ومجلة في بغداد وحدها ٠ اما في الموصل والبصرة فقد صدرت اعداد لا بأس بها من الصحف ، هذا فضلا عن استمرار جريدتي الموصل والبصرة في الصدور ٠ أما أبرز الصحف التي صدرت في هذه الفترة فهي :

١ ــ جريدة الرقيب :

صدر عددها الاول في ٥ محرم ١٣٢٧ هـ/٢٨ كانون الثاني سنة ١٩٠٩ م وقد جاء في ترويستها انها «جريدة عربية تركية خادمة لترقي الوطن بكمال الحرية» وكانت في بداية الامر اسبوعية ثم صدرت مرتين في الاسبوع وقد رحبت بالدستور وسجلت مواقفها الجريئة وصراحة لهجتها ومجابهة الحكام بقـوة الحق وكان لها تأثير في المجتمع ومكانة مرموقة بفضل صدق وصراحة ووطنية صاحبها (عبداللطيف ثنيان) وهو من الادباء العراقيين المعروفين ٠ وقـد

تعرض ثنيان بسبب مواقفه هذه الى السجن والنفي مرات عديدة وقد حرصت (الرقيب) على اللغة العربية وآدابها ودعت في مقالات عديدة الى الحفاظ عليها « بعدما اراد الاتراك القضاء عليها ليسهل عليهم تتريك العناصر العربية وهذا ما اعلنته جمعية الاتحاد والترقي » • وقد كتب ثنيان مقالا في العدد (١٢) من الرقيب الصادر في سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م طالب فيه الحكومة ادخال اللغة العربية في المدارس قائلا : «طلبنا من اعضاء مجلسنا العمومي ان يبذلوا جهدهم ويحصروا فكرهم في السعي وراء تشييد لغتنا العربية وان يجعلوا التعليم في اللغة العربية محضا » ، ولم تكتف الرقيب بهذا بل كانت تنشـــر القصائد التي تبين سوء الاوضاع في العراق •

لقد كان لمقالات جريدة الرقيب الاثر الواضح في الاوساط الشعبية ، اذ لاقت من الاقبال والرواج ما لم تنله اية جريــدة في ذلك الوقت فتلهف الناس على قراءتها غير ان الوالي العثماني ناظم باشا لم يتحمل صراحة هذه الجريدة فأستدعى ثنيان وهدده بقصم ظهره اذا تعرض لانتقاد اعمال الحكومة ويذكر المؤرخ عباس العزاوي في كتابه (تاريخ العراق بين احتلالين) الجزء الثامن ، الصفحة ١٦٤ : ان ناظم باشا اوقف عبداللطيف ثنيان لاشتراكه في مظاهرة شعبية ضد حكومة الاتحاديين وقد اضطر ثنيان الى تعطيل الجريدة والفرار من العراق الى الشام • وهكذا كان لجريــدة الرقيب دور كبير في خدمة العراق وقضاياه القومية في تلك المرحلة الحالكة من تاريخه •

٢ ـــ جريدة صدى بابل :

اما جريدة صدى بابل فقــد اصدرها المعلم الموصلي داؤد صليوا في بغداد في الثالث عشر من آب سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م وقد استمرت في الصدور مدة تقرب من ست سنوات • وقد جاء في ترويستها انها « صحيفة سياسية تجارية ادبية اخبارية خادمة لترقي الوطن تصدر في الاسبوع مرة مؤقتا » • وكانت في مقالاتها من العوامل المنبهة والمحفزة للاخذ بكل اسباب التقــدم

والرقي • فقد بينت للشعب العراقي مواضع النقص وارشدته الى طريــق الاصلاح والحرية ووقفت مواقف مشرفة في ظل السيطرة العثمانية في اثارة ابناء العراق والمطالبة بجعل اللغة العربية في العراق لغة رسمية ولعل أهم ما أمتازت به جريدة صدى بابل انها مثلت نفســية الشعب العراقي وسـعيه للمطالبة بالعدل والانصاف واصلاح شؤونه • ففي مقال بعنــوان (اماني العراقيين) نشر في عددها الصادر في ٧ آيار ١٩١٠ اشارت الى ان العــراق يحتاج الى اصلاحات شتى ترتكز على الامان والعدل والعلم • وقــد اقبل الناس على قراءتها ولعل ذلك يرجع الى اسلوبها السلس البسيط البعيد عن المبالغة والخيال والالفاظ الجوفاء •كما ان اخلاص صاحبها (داود صليوا) ودوره في هذه النهضة الصحفية اثر كبير في ذلك • وقد اختفت عن الانظار قبيل الحرب العالمية الاولى بعد جهاد دام ست سنوات •

٣ ـــ جريدة النهضة :

صدرت جريدة النهضة في ٢ ذي القعدة ١٣٣١ هـ / ٣ تشرين الاول سنة ١٩١٣ م لتكون لسانا للنادي الادبي الذي أسسه جماعة من العاملين في الحركة القومية منهم الشيخ محمد رضا الشبيبي وتحسين العسكري وبهجت زينل • وقد جاء صدورها بعد انعقاد المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٣٣٢ هـ ١٩١٣ م واشتداد المطالبة بابراز شخصية الامة العربية وكيانها • وقد وصف روفائيل بطي الجريدة المذكورة بانها كانت « الصحيفة القومية الفــذة بين زميلاتها ، جهيرة الصوت ، بليغة التعبير في محاسبة الحكومــة العثمانية ، والمناداة بحقوق العرب ••• » • الا ان السلطات العثمانية لم تتحمل لهجتها الناقدة فأغلقتها بعد صدور عددها الحادي عشر ، فهرب مؤسسها ومحررها ابراهيم حلمي العمر الى البصرة •

بدايات الصحافة العراقية الكردية

وثمة بعض الصحف العراقية الكردية التي ظهرت خلال هذه الفترة منها على سبيل المثال مجلة (تشكي هونەر) لصاحبها فتاح كاوه وقد صدرت في السليمانية باللغة الكردية وقد صدر عددها الاول في ٢٧ صفر ١٣٢٨هـ/١٠ اذار سنة ١٩١٠ م . وصدرت ببغداد في ١١ ربيع الاول ١٣٣٢ هـ/٨ شباط ١٩١٤ م جريدة (بانگي كورد) أي صوت الاكراد باللغتين الكردية والتركية وكانت تصدر مرة كل خمسة عشر يوما . واهتمت الجريدة بمسائل التعليم ودور الثقافة في حياة الامم وساهمت في احياء التراث العراقي الكردي ومن المقالات التي تضمنها العدد الاول مقال بعنوان (الاكراد وديار الكرد) بقلم حقي بابان ومقال بعنوان (نظرة في تاريخ الاكراد) بقلم شكري الفضلي . ولم يكتب لها البقاء بسبب نشوب الحرب العالمية الاولى فاضطر صاحبها جمال بابان الى حجبها عن القراء بعد ان صدرت منها ثلاثة اعداد فقط . الا ان جريدة (تى گەيشتني راستى) أي فهم الحقيقة التي صدرت ببغداد سنة ١٣٣٧هـ /١٩١٨ م استمرت في الصدور لمدة سنة وقد جاء في ترويستها انها جريدة سياسية اخبارية . واصدرت سلطات الاحتلال البريطانية جريدة (سليماني بيشكەوتن) أي تقدم السليمانية . وكانت جريدة اسبوعية باللغة الكردية صدر عددها الاول في ٩ شعبان ١٣٣٨هـ/٢٩ نيسان ١٩٢٠م اما آخر عدد منها فقد صدر في ٣ ذي القعدة ١٣٤٠ هـ/٢٩ حزيران ١٩٢٢ .

صحافة الموصل

وفي الموصل كان لاعلان الدستور اثر كبير في ايقاظ المثقفين الموصليين ورغبتهم في التخلص من شتى صنوف الكبت والظلم والاستبداد والفساد الاداري . لذا فقد انصرفوا الى اصدار الصحف للتعبير عن آمالهم واماليهم في عهد الدستور ومن هذه الصحف جريدتي نينوي والنجاح . فجريدة

نينوى صدرت في ٢٦ جماد الثاني ١٣٢٧هـ/١٥ تموز ١٩٠٩ م وكان صاحب امتيازها فتح الله سرسم ومديرها المسؤول محمد امين الفخري ثم اصبح بعد ذلك محمد شكري افندي • وكان لها محرران احدهما للقسم العربي وهو محمد فخري والثاني للقسم التركي وهو علي حكمت • وتعد (نينوى) أول جريدة اهلية في الموصل وكانت تصدر مرتين في الاسبوع وقد تضمن المقال الافتتاحي لها سياستها واتجاهاتها ومما جاء فيه :

« اما بعد ، فان مما وقع عليه الاتفاق في جميع الافاق استحسان العدل وإيجابه واستقباح الظلم واجتنابه ، فان العـدل مدار حيـاة العالم ومناط سعادة بني آدم وانا كنا في ليل ظلم داج ، تتقلب في بحار بغيه بامواج نشبت بنا مخالب استبداده واظلت غمائم فساده ، نستغيث فلا نجاب ونسترشد فلا نهتدي لصواب الى ان كشف الله الغمة عن هذه الامة ، وانتدب من الرجال أهل النخوة واجتمعوا للندوة وتحالفوا على الاتحاد لترقي الملة ••• وتوفقوا لنشر اعلان الدستور وتمت المشروطية والحرية وانفتحت ابـواب العدل في الحكم وطفقت تنقشع سحائب الجور والظلم وهي الاحـوال التي نتمناها ونسمع بها ولا نراها بل نراها كالعنقاء ونحسبها أخت الكيماء » ، وتطرقت الجريدة الى اوضاع الموصل الاقتصادية والثقافية والسياسية وقـد رحب بجريدة نينوى عدد من كتاب الموصل ومفكريها وشـعرائها واتخذوا من صفحاتها وسيلة لنشر ما يعبر عن طموحاتهم وآمالهم • أسهمت (نينوى) في معالجة قضية حيوية شغلت اذهان الناس في تلك الفترة الا وهي : جعل اللغة العربية لغة التدريس في المدارس • فقد نشرت في عددها الصـادر في ٢١ شوال ١٣٢٨هـ/٢٧ تشرين الاول سنة ١٩١٠ م مقالا قالت فيه : (ان المدارس الرسمية تميت اللغة العربية ونميت معها كل نهضة •••) وتساءل كاتب المقال (فهل بحث نواب الامة عن أسباب هذا الخلل ؟) •

هذا وقد اثير على صفحات الجريدة كثير من القضـايا السياسـية

والاجتماعية بينت فيها للرأي العام الموصلي مواضع النقص وارشدته الى طريق الاصلاح ..

هذا وقد أسهمت في هذه الحركة الصحفية ، جريدة اخرى صدرت في الموصل في ٨ ذي القعدة ١٣٢٨هـ/١٢ تشرين الثاني ١٩١٠ م بأسم (النجاح) التي عرفت باتجاهها للدعوة الى اللامركزية وبنقدها للحكومة العثمانية بل ومهاجمتها . فكان لذلك اثر كبير في خلق فئة مثقفة في الموصل وكان صاحب امتيازها احمد مدحت وبعد صدور خمسة اعداد منها أصبح صاحب امتيازها خيرالدين الفاروقي (العمري) وهي جريدة اسبوعية ، تصدر باللغتين العربية والتركية وفي عددها الاول بينت خطتها واسباب صدورها فقالت :

(... ان السبب الداعي لاصدار هذه الجريدة خدمة الوطن في هذا الزمن ونشر الحقائق والدقائق والحمية والغيرة على اعلاء شأن الدستور الذي اشرقت شمسه الساطعة في سماء العدل فاستضاءت بها الافكار المظلمة من دور الظلم الذي سبق بأنحس الطالع وأخس المطامع ...)

لقد اسهمت جريدة النجاح في الدعوة الى التمسك بالدستور وعملت على تكوين وعي دستوري بين قرائها واندفعت الجريدة لمهاجمة الاتحاديين وحرصت حرصا شديدا على اللغة وآدابها فدعت الى احيائها ولم تنفك من دعوة الشبيبة العربية الموصلية الى الاهتمام بلغتها فقد نشرت مقالات متسلسلة بتوقيع (عربي) حثت فيها على ضرورة دراسة اللغة العربية ، ووجهت الانظار الى التاريخ العربي ودعت الشباب الى قراءته والنظر فيه نظرة تدقيق وامعان واخذت تشير اشارات صريحة الى ما شهدته مصر وسوريا من نهضة فكرية .

كما حاولت الجريدة ان تلفت انظار السلطات الاتحادية الى اهمية التربية والتعليم ووجهت نقدا قاسيا الى حملة الاقلام من الموصليين الذين يكتبون

مقالاتهم باللغة التركية على صفحات الجرائد وحملت الحكومة مسؤولية عدم الاهتمام باللغة العربية •

لقد كانت الصحافة اداة مهمة في هذه الفترة للتعبير عن الشعور القومي العربي لدى الموصليين فعندما وقع الاعتداء الايطالي على ليبيا في شوال ١٣٢٩هـ/ ايلول سنة ١٩١١م كتبت جريدة النجاح مقالات عديدة دعت فيها ابناء الوطن للتطوع ومقاومة العدوان وجمع الاعانات للمجاهدين ، كما اسهمت الجريدة في التوعية الانتخابية ، فنشرت مقالات عديدة حول ضرورة قيام انتخابات حرة وضمان الحرية للمنتخبين ودعت الاهالي الى ضرورة انتخاب الشخص الذي ينفع البلد ويعمل على رقيه وتقدمه • ونقلت جريدة النجاح على صفحاتها ما يتعلق بحياة الناس اليومية ومشكلاتهم ومطالبهم فكانت بحق ، مرآة المجتمع الموصلي واداة من ادوات التعبير عن الرأي العام فيه ، ووسيلة من وسائل التثقيف والتوجيه والارشاد • وفي البصرة صدرت جريدة الدستور لصاحبها ومديرها المسؤول عبدالله الزهير وذلك في ٢ صفر ١٣٣٠ هـ ٢٢ كانون الثاني ١٩١٢ م وقد جاء في ترويستها انها (جريدة يومية سياسية) وحين انتخب عبدالله الزهير عضوا في مجلس المبعوثان ، تنازل عن الجريدة الى عبدالوهاب الطباطبائي وسميت عند ذلك بـ (صدى الدستور) والتي صدر عددها الاول في ٢٢ شوال ١٣٣١ هـ/٢٥ ايلول ١٩١٣م باللغتين العربية والتركية وقد استمرت في الصدور حتى الاحتلال البريطاني للبصرة • وقد كرست جريدتا الدستور وصدى الدستور صفحاتهما للدفاع عن الدستور لذلك عكست الوضع السياسي في البصرة خلال الفترة الواقعة في ١٣٢٦ ـ ١٣٣٣هـ/١٩٠٨ ـ ١٩١٤م حين اشتدت المعارضة لحكم الاتحاديين بزعامة السيد طالب النقيب الذي الف جمعية الاصلاح البصرية في ربيع اول ١٣٣١ هـ شباط ١٩١٣ م وقد طرحت هذه الجمعية برنامجا اصلاحيا متطورا ذا بعد قومي ولم يخفف اعلان قانون الولايات الجديد في سنة ١٣٣٢ هـ/١٩١٣م من

معارضة السياسة الاتحادية بل زادها قوة ، اذ لم يحقق الطموح المطلوب .
وقد نقل السيد طالب النقيب معارضة البصريين للقانون رسميا الى العاصمة العثمانية . وكانت جريدة الدستور الناطقة بلسان جمعية الاصلاح البصرية قد نددت بالقانون ووصفته بأنه مجحف بحقوق الوطن ونشرت لائحة الاصلاح المقترحة التي اجمع عليها البصريون واسفرت عنها اجتماعاتهم وتنص هذه اللائحة على مواد عديدة تؤكد على اهمية اعطاء الولايات صلاحيات واسعة ومناهضة النفوذ الاجنبي والعناية باللغة العربية ، وفي ١٢ رمضان ١٣٣١ هـ ١٦ آب سنة ١٩١٣ م نشرت جريدة الدستور مقالا اكدت فيه على ضرورة تطبيق الادارة اللامركزية ونددت بالسياسة الاتحادية ، وقد اثار المقال صدى كبيراً في مختلف اوساط المجتمع البصري والسلطات العثمانية المحلية حتى انها فكرت في مهادنة السيد طالب النقيب ومحاولة استمالته واستغلاله ، لكنهم اصدروا في الوقت نفسه قرارا باعتقاله فاضطر الى الهرب قاصدا البصرة .
اما ابرز المجلات التي صدرت في هذه الفترة فهي مجلات العلم وخردلة العلوم ولغة العرب ، صدرت مجلة العلم في النجف الاشرف باللغة العربية وظهر عددها الاولى في ١٦ ربيع الاول ١٣٢٨هـ/٢٩ اذار ١٩١٠ م بـ (٤٨) صفحة من القطع الصغير وكان صاحبها السيد محمد علي هبة الدين الشهرستاني ومديرها المسؤول عبدالحسين الازري وجاء في ترويستها انها « مجلة شهرية دينية فلسفية سياسية علمية صناعية » . وقد بلغت المجلة من النضج والرصانة درجة لا يستهان بها فعندما يتحدث صاحبها عن مهمة الصحافة بالعدد الاول الذي صدر في ١٦ ربيع الاول ١٣٢٨هـ/٢٩ اذار ١٩١٠ م يقول : « اليست هي للامة عينا مراقبا ولسان ناطقا وخطيبا صادقا ودرعا واقيا ومعلما هاديا ومؤدبا ناجحا وصراطا واضحا ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر لا تحمي في الباطل حميما ولا تهضم في الحق خصيما ، وكل صحيفة اخطأت هذا الصراط فعلى الامة تأدبها ولو بالسياط » . لقد اهتمت المجلة فيما اهتمت فيه ، بالنقد

النزيه البناء ففتحت ما اسمته باب (التقريظ والانتقاد) وقالت : « ان هـذا الباب سمي (عند الافرنج Critique) أي ابداء الرأي فيما يقرأ ويكتب حسنا او قبيحا » وقد حاولت المجلة ان تحتفظ بنظرتها التقدمية الى الحياة دون أن تثير شكوك المحافظين من رجال الدين وغيرهم . فنشرت مرة تقول :

«على إن الاسلام مع العلم الصحيح فرسا رهان ورضيعا لبان لا يفترقان حينا من الدهر ... » .

ولم يكن اهتمام مجلة (العلم) بالقضايا الوطنيـة اقل من اهتمامهـا بالمواضيع الاخرى . وينقل المحرر قصيدة للسيد خيري الهنداوي في عددها الصادر في ٢ رجب ١٣٢٨هـ/١٠ تموز ١٩١٠ م تحت عنوان (اين كنا واين صرنا) جاء فيها :

شـهدت بالعلى لنا امـة الغـرب
وهـل ينكـر الفتـى الاسـتاذا
قـد تلقـت منـا العلـوم ففـا
قتنـا بمـا تلقـت اسـتعدادا

وظلت المجلة بعيدة كل البعد عن الروح الطائفية التعصبية الضيقة وكانت خطتها تقوم على اساس البرهان بأن العلوم الحديثة لا تناقض الدين وانمـا تتفق معه . لذلك خصصت بعض صفحاتها لتجيب على معظم اسئلة القـراء العلمية والدينية والفلسفية والتاريخية . ومن أهم ابواب المجلة (باب توافق الدين والعلم) وباب (الكشفيات الجديدة والاخبار العلمية) وباب (المطالب الفلسفية) وباب (العقائد والمطالب الدينية) .

وبعد ان صدر اثنا عشر عددا من السنة الاولى للمجلة وتسعة اعداد من سنتها الثانية توقفت عن الصدور بسبب اندلاع الحرب العالمية الاولى .

وتعد مجلة « خردلة العلوم » من اوائل المجلات العلمية التي صدرت في العراق ، اذ صدر عددها الاول في ذي القعدة ١٣٢٨هـ/تشرين الثاني ١٩١٠ م وقد جاء في ترويستها انها « مجلة علمية ادبية صحية تاريخية تصدر عشر مرات في السنة » صاحبها رزوق عيسى وكان شعارها يقول انها « تبحث في المسائل العلمية والتاريخية بكمال الحرية » ، وقد صدرت بـ (٣٢) صفحة من القطع الصغير ومما يلفت النظر في المجلة اعتراف صاحبها ببساطة تكوينه الفكري ولكن حماسته العارمة تدفعه الى امام ليقدم شيئا ، لذلك يكتب قائلا « ... العراق لم يفقه حتى الآن معنى العلم والتهذيب ولم ينتبه لحالته التي يرثى لها ويبكى على ما وصل اليه من التقهقر والانحطاط دما ، وهذا ما جعلني انهض من سباتي الى انشاء مجلة تلتقح بموادها اولى الالباب والذكاء الفطري من اهل البلاد » .

ثم يذكر انه سماها بخردلة العلوم تيمنا بالعلم واسمه لكي يقتفي اثر العلماء في نشر العلم . وكانت مواد العدد الاول تتضمن ابوابا لحفظ الصحة وتدبير المنزل والاخبار والشذرات العالمية . وتعد الرواية التي نشرتها تحت عنوان (فتاة بغداد) لمنشيء المجلة اول رواية عراقية تنشر في العصر الحديث وقد خصص في المجلة باب لعرض الكتب ونقدها ومن الكتب التي عرضت كتاب (الجاذبية وتعليلها) لجميل صدقي الزهاوي ، وقد ختمت المجلة حياتها بنداء وجهه صاحبها الى القراء على الغلاف الاخير من العدد الثاني يقول « عليكم يا رجال العلم والسياسة ان تقولوا الحق وتجاهروا به ولو تزلزلت الارض وخسفت تحت بطون اقدامكم .. » ولم يظهر من المجلة سوى عددين فقط ، لان صاحبها رأى ، كما قال فيما بعد ، ان سوق الادب في بغداد كانت آنذاك كاسدة .

اما مجلة العرب، فقد صدر عددها الاول في بغداد اول شعبان ١٣٢٩ هـ تموز سنة ١٩١١م بـ (٤٠) صفحة من الحجم الصغير وقد جاء في ترويستها «مجلة

شهرية ادبية علمية تاريخية » رئيس تحريرها الاب انستاس ماري الكرملي ومديرها المسؤول الشيخ كاظم الدجيلي . وتعد مجلة لغة العرب من اشهر المجلات الادبية الرصينة في ذلك الوقت وقد تجاوزت حدود العراق لتجد لها آفاقاً رحبة في الاقطار العربية لذلك ساهم في تحريرها عدد كبير من الكتاب الادباء العراقيين والعرب منهم احمد زكي ابو شادي واحمد حامد الصراف ويعقوب نعوم سركيس ومحمد مهدي الجواهري ومعروف الرصافي وعلي الشرقي وعيسى اسكندر المعلوف ومحمود الملاح ويوسف رزق الله غنيمة ، وقد ادت المجلة خدمة كبيرة للعربية وادابها حتى انها عدت من المراجع المهمة لدراسة الادب العربي الحديث وقد وصفها احد الادباء العراقيين وهو كوركيس عواد بانها : «من انفس المجلات العربية واغزرها مادة تعد في جملتها من المصادر اللغوية التي لا يستغنى عنها » كما وصف اسلوبها الدكتور منير بكر التكريتي بقوله : « ان المجلة عالجت موضوعاتها باسلوب عربي فصيح ، ولغة سليمة بعيدة عن التراكيب الركيكة والالفاظ المبتذلة مما اعاد للغة الضاد حيويتها بعد سبات طويل » واهتمام هذه المجلة بمضمونها ، واسلوب الكتابة فيها ، وتوخي اللغة الفصحى ونبذ العامية لم يشغلها عن الاهتمام بالجوانب الشكلية الاخرى في المجلة ومن ذلك تبويبها المنسق وانتظام صدورها وطبعها وملاحقة الاخطاء الطباعية ، وشرح المفردات التي ترد في معرض المضمون .

أما ابرز موضوعاتها فهي البحث عن معاني الالفاظ المختلفة وتتبع اللهجات المحلية العراقية ودراسة الامثال الشعبية . كما اهتمت بالقصة وخاصة تلك التي لها مغزى اخلاقي انساني ومن اهتماماتها كذلك المباحث التاريخية وخاصة تاريخ العراق والسير الاجتماعية كما انتهجت الاسلوب العلمي بعملها فهارس لكافة اعدادها الصادرة وبعد ان اتمت سنتها الثالثة صدر عددان من السنة الرابعة وتوقفت عن الصدور بسبب اندلاع الحرب العالمية الاولى وفي اول تموز ١٩٢٦ م . عادت الى الصدور لتتوقف نهائيا في كانون الاول ١٩٣١ م .

لقد ساهمت الصحف والمجلات التي اشرنا اليها في حركة النهضة الفكرية التي شهدها العراق خلال هذه الفترة واتصف بعضها بالجرأة والاخلاص للقضية العامة ، كما سبق ان قدمنا ، مما عرض الكثيرين من اصحابها لمشكلات كثيرة ، خاصة وانها كانت تعمل تحت ظل حكومة سيطر على تصرفاتها الاستبداد في كثير من الاحيان هذا فضلا عن الصعوبات التي نشأت عن المشكلات الفنية للطباعة في هذه الفترة وفوق هذا كله كان القراء قليلين ، وذلك لتأخر الثقافة وانتشار الامية وكانت هذه الصحف عرضة للتعطيل فعندما اعلنت الحرب العالمية الاولى اصدرت وزارة الداخلية امرا بتعطيل جميع الصحف الاهلية في بغداد والبصرة والموصل ولم تكتف الحكومة بتعطيل الصحف ، بل شردت اصحابها فنفت داؤد صليوا صاحب جريدة صدى بابل والاب انستاس الكرملي صاحب مجلة لغة العرب الى قيسري ونفت ابراهيم صالح شكر وعبداللطيف ثنيان الى الموصل ولجأ الكاتب الشيخ كاظم الدجيلي الى البصرة ، كما لجأت السلطة العثمانية الى اصدار صحف تساندها وتؤيدها الى جانب الصحف الرسمية الموجودة انذاك . ففي بغداد صدرت جريدة الزهور (١٣٣٣ — ١٣٣٤هـ/١٩١٤—١٩١٥م) وجريدة حقي طوغرو أي دعوة الحق في الموصل (٢١ جماد الاول ١٣٣٣هـ/٧ نيسان ١٩١٥م) .

بالرغم من كل ما سبق ، فأن الصحافة في هذه الفترة قد قامت ، كما يقول الدكتور عبدالله فياض ، بدور لا يستهان به في تيقظ الافكار وفي توسيع افق القراء بخصوص ما يجرى في العالم الذي يعيشون فيه من حركات سياسية واجتماعية . وقد صحب ازدياد الوعي الفكري في العراق نتيجة لجهود الصحافة وغيرها من وسائل التثقيف اتساع في دائرة الوعي السياسي في البلاد .

المراجـع

١ ـ روفائيل بطي ، الصحافة في العراق ، (القاهرة ، ١٩٥٥)
٢ ـ عدنان عبدالمنعم ابو السعد (اسلوب الصحافة العراقيــة بين الادارة العثمانية والادباء العراقيين) مجلــة افــاق عربية ، السنة ٧ ، اذار ١٩٨٢ .
٣ ـ عدنان عبدالمنعم ابو السعد (تاثير الطباعة في تطور الصحافة العراقية في العهد العثماني ١٨٦٩ـ١٩١٧) مجلة كلية الاداب ، بغداد ، العدد ٢٨ ايار ١٩٨٠ .
٤ ـ عناد اسماعيل الكبيسي ، الادب في صحافة العراق منذ بداية القرن العشرين (النجف ، ١٩٧٢) .
٥ ـ منير بكر التكريتي ، الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية من ١٨٦٩ ـ ١٩٢١ ، (بغداد ١٩٦٩) .
٦ ـ عبد الرزاق الحسني : تاريخ الصحافة العراقية جـ١ (صيدا ، ١٩٧١)
٧ ـ د . ابراهيم خليل احمد ، نشأة الصحافة العربية في العراق (الموصل ، ١٩٨٢) .
٨ ـ د. ابراهيم خليل احمد (اكليل الورد اول مجلة تصدر في العراق) مجلة الجامعة ، العدد ٨ ، السنة ٧ ، ايار ١٩٧٧ .
٩ ـ د. ابراهيم خليل احمد (ولاية الموصل ، دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ـ١٩٢٢ رسالة ماجستير غير منشــورة قدمت الى كلية الاداب بجامعة بغداد سنة ١٩٧٥ .
١٠ـ د. ابراهيم خليل احمد (اثر الصحافة في تنامي الوعي القومي العربي في الموصل (مجلة بين النهرين / الموصلية) السنة ٣ ، العدد ١٢ ، ١٩٧٥ .
١١ـ د . عباس ياسر الزيدي ، تاريخ الصحافة العراقية منذ نشأتها حتى سنة ١٩٣٦ رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت الى كلية الاداب بجامعة عين شمس .
١٢ـ ابراهيم السامرائي ،مقدمة مجلة لغــة العر ب، العدد (١) المجلد (١) اصدرتها وزارة الاعلام العراقية ، (بغداد ١٩٧١) .
١٣ـ زاهدة ابراهيم ، كشاف الجرائد والمجلات العراقية ، مراجعة عبدالحميد العلوجي (بغداد ١٩٧٦) .
١٤ـ د .. عبدالله الفياض ، الثورة العراقية الكبرى ، سنة ١٩٢٠ . (بغـداد ١٩٦٣) .

١٥ـ سليمان فيضي ، في غمرة النضال ، (بغداد ١٩٥٢)
١٦ـ ويلارد ايرلند ، العراق ، دراسة في التطور السياسي ، ترجمة جعفر خياط (بيروت ١٩٤٩) .
١٧ـ اعداد متفرقة ولسنين مختلفة من بعض الجرائد والمجلات الوارد ذكرها في المتن .
١٨ـ سهيل قاشا (مطبعة الاباء الدومنيكان بالموصل وتراثها الثقافي) مجلة بين النهرين العدد ٥ السنة ١٩٧٧ .
١٩ـ بهنام فضيل عفاص (تاريخ الطباعة العراقية منذ نشوؤها حتى الحرب العظمى الاولى) مجلة المورد ، المجلد (١٠) العدد (٣ ـ ٤) ، ١٩٨١ والمجلة (١٢) العدد (٢) ١٩٨٣ .
٢٠ـ ابراهيم حلمي العمر (الطباعة في دار السلام والنجف وكربلاء) مجلة لغة العرب السنة (٢) العدد ٧ كانون الثاني ١٩١٣ .
٢١ـ عصام محمد محمود ، مطبوعات الموصل منذ سنة ١٨٦١ ـ ١٩٨٠ (الموصل ١٩٧١) .
٢٢ـ خليل صابات ، تاريخ الطباعة في الشرق العربي ، (القاهرة ١٩٦٦)
٢٣ـ رجب بركات ، من صحافة الخليج العربي ، الصحافة البصرية بين عامي ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣ (بغداد ١٩٧٧) .
٢٤ـ خالد حبيب الراوي ، من تاريخ الصحافة العراقية (بغداد ١٩٧٨) .
٢٥ـ فائق بطي ، صحافة العراق ، تاريخها وكفاح اجيالها ، (بغداد ١٩٦٨) .
٢٦ـ فائق بطي (الموسوعة الصحفية العراقية ، (بغداد ١٩٧٦) .
٢٧ـ روفائيل بطي ، تاريخ الطباعة العراقية ، مجلة لغة العرب ، السنة ٥ ، جـ ٥ ، ١٩٢٦ ، جـ ٩ ، ١٩٢٧ .
٢٨ـ سليمان الصائغ ، روفائيل مازجي ، مجلة النجم الموصلية ، ٢٥ كانون الاول ١٩٢٩ .
٢٩ـ محمد سعيد الجليلي (ناشر) الاناشيد الموصلية للمدارس الابتدائية ، طـ٢ ، (الموصل ١٩٥٣) .
٣٠ـ رزوق عيسى (الصحافة في العراق) مجلة الحرية ، السنة ٢ ، جـ٢ ، بغداد (١٩٧٩) .
٣١ـ حميد احمد حمدان التميمي ، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني (بغداد ، ١٩٧٩)
٣٢ـ عبدالعزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث ، (القاهرة ١٩٦٨)
٣٣ـ عبدالجبار محمد جباري ، تاريخ الصحافة الكردية (السليمانية ١٩٧١) (بالكردية) .

المحتـــوى

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ــ بغداد
١٤٩٣ لسنة ١٩٨٥

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م